جوانب من التاريخ العمراني والاجتماعي والاقتصادي في غزة

١٢٧٣ ـ ١٢٧٧ / ١٨٥٧ ـ ١٨٦١

من خلال الوثائق الشرعية

د. عبدالكريم رافق

كلية الاداب ـ جامعة دمشق

٤ ـ مظاهر اقتصادية :

سنستعرض ، في هذا المجال ، من خلال ما ورد في الوثائق الشرعية ، مراكز الفعاليات الاقتصادية في غزة ، ونماذج من النشاطات الاقتصادية ، مثل مقومات الثروة والدخل ، وعمليات البيع والشراء ، والديون ، واسعار السلع والعقارات والمقارنة بينها ، وكذلك الاقتصاد في الريف ، والعلاقة بينه وبين المدينة . وننهي البحث بدراسة عن المقاييس ، والمكاييل ، والاوزان ، والنقود في لواء غزة .

وقد حفلت غزة ، بدليل اسماء الخانات والاسواق فيها ، بفعاليات اقتصادية مختلفة ، على مر العصور ، ولا عجب في ذلك ، لانها كانت على الطريق التجاري البري

---

* هذه الدراسة مبنية على سجل وحيد يعود لمحكمة غزة في الفترة موضوع البحث ، محفوظ في مديرية الوثائق التاريخية بدمشق ، ويتالف من ٤٥٩ صفحة من القطع الكبير ، ويضم حوالي ٣٧٤٥ وثيقة. وتسهيلا للبحث فقد أشرنا ، حيث دعت الحاجة الى الرموز المتعارف عليها للاشهر القمرية في التاريخ الهجري ، وما يقابلها في التاريخ الميلادي .

* اعد البحث للمؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام ، الذي انعقد في الجامعة الاردنية في الفترة مابين ٤ ـ ٩ جمادي الثانية ١٤٠٠هـ / ١٩ ـ ٢٤ نيسان ١٩٨٠ م ، وتركزت ابحاثه على فلسطين عبر التاريخ .

وقد نشر القسم الاول من البحث (المظاهر العمرانية والاجتماعية) في العدد الثامن من هذه المجلة (رجب ١٤٠٢ هـ / نيسان ١٨٢ م) ، وهذا هو القسم الثاني منه .

الوحيد الذي يربط بين بلاد الشام ، وما أتصل بها من تجارة الاناضول والعراق وفارس وما وراءها ، ومصر ، كما ان قافلة الحج الشامي ، وهي بالضرورة قافلة تجارة ايضا ، كثيرا ما سلكت الطريق الغزاوي ، في طريق عودتها ، حين كانت محملة بالبضائع من الحجاز . وأم غزة ، كذلك ، عدد من الحجاج ، قاصدين العقبة ، للالتحاق بقافلة الحج المصري . يضاف الى ذلك موقع غزة ، في وسط منطقة زراعية غنية ، قريبة من البحر ومن البادية ، مما يجعلها سوقا لمنطقة واسعة تحيط بها . وكان لهذا الموقع التجاري الهام ، وتنوع الفعاليات الاقتصادية ، المحلية والدولية ، في غزة ، اثره الكبير في اشتهارها عبر العصور .

وقد ذكرت وثائق غزة الشرعية عددا من الخانات فيها تدل اسماؤها على انواع السلع التي تعاطتها . واشهر هذه الخانات ، بدليل ان جميع من زار غزة ذكره أول ما ذكر ، خان الزيت ، الواقع داخل غزة ، بمحلة الخضر ، بخط حمام السمرة . وكان من اوقاف آل رضوان ، الذين اشتهروا في حكم غزة ، في النصف الثاني من القرن السادس عشر . وجاء في كتاب (بيديكر) ان خان الزيت يقع الى الجنوب الغربي من الجامع الكبير ، وان حارة الزيتون تقع الى الجنوب الغربي من هذا الخان . ولا أدل على اشتهار الزيت والزيتون في منطقة غزة من تسمية خان الزيت ومحلة الزيتون باسميهما . وهناك خان الكتان ، ويقع داخل المدينة بمحلة البرجلية . وتسمى الخط ، حيث وجد ، باسمه (خط خان الكتان) ، نظرا لاهميته في تلك المنطقة . وذكر خان زاوية الهنود ، داخل غزة ، بسوق الفخار . ويقع هذا السوق بمحلة البرجلية ، وتسمى خط باسمه (خط سوق الفخار) . ويبدو أن هذا الخان كان لصيقا بزاوية الهنود ، مما جعله يعرف بها ، وقد ذكر (غات) زاوية الهنود ضمن قائمة الخانات ، مما يعني انها استخدمت خانا ، ولا ندري ما اذا كانت الزاوية قد استخدمت خانا في الفترة التي كتب فيها (غات) ، في عام ١٨٨٧ . ام أن الخان الملاصق للزاوية الحق بها وتسمى باسمها ، أم ان (غات) قد اشار خطأ الى الزاوية على انها الخان . وقدميزت الوثائق الشرعية ، في فترة دراستنا ، بين زاوية الهنود وخان زاوية الهنود .

ووجد في غزة خان الجمالي ، نسبة الى الحاج علي الجمالي ، بمحلة الزيتون ، بخط الخضر . وقد اشار اليه (غات)(١) باسم خان الجمالة . واذا كانت نسبة الجمالي تدل على تعاطي امور الجمال فربما استخدم الخان لايواء الجمال ، التي نقلت عليها البضائع من غزة واليها . ونظرا لكثرة الجمالة ، فقد عرفت حارة باسمهم ، وهي حارة الجمالة ، بمحلة التفاح . ومن خانات غزة خان القهوة بمحلة السجاعية ، في سوقها . والجدير بالذكر ان قافلة الحج الشامي حملت القهوة (البن) من

الحجاز ، التي اتاها من اليمن وغيرها ، الى الشام . ويبدو ان خان القهوة هذا كان لخزن القهوة وبيعها ، لا استهلاكها . ووجدت في غزه مقاه (قهوات) تقدم القهوة للجالسين . وهناك خط في غزة عرف بخط القهوة ، في محلة حكر التفاح . كما وجد جامع ، ولعله في محلة حكر التفاح ، عرف بجامع القهوة ، مما يدل على اشتهار القهوة التي عرف الجامع بها . وهناك خط آخر ، يدعى خط القهوة ، بمحلة البرجلية ، وربما كانا خطا واحدا مر بمحلتي حكر التفاح والبرجلية .

وذكر (غات)(٢) خان الغلة ، وخان المعارف ، ووكالات ابو شعبان ، وابو خضرة ، وعلي ساق الله في غزة . واستخدام التعبير المصري « وكالة » للاشارة الى الخان دليل على الاثر المصري في المفردات السائدة في غزة . ولم تشر الوثائق الشرعية، في فترة دراستنا ، الى هذه الاماكن ، اما لانه لم تعرض في محكمة غزة قضايا تستدعي ذكرها ، او لانها ، كلها أو بعضها ، وجدت في فترة الخمس والعشرين سنة التي فصلت بين فترة دراستنا والفترة التي كتب فيها (غات) وربما كانت تسميات قديمة لبعض الاماكن وقد تبدلت آنذاك .

ووجدت في غزة أسواق متخصصة ببيع منتجات معينة ، بعضها من الانتاج المحلي والبعض مستورد من ريف غزة أو من الخارج . وكان للسوق قصبة ، اي ساحة ، تطل عليها الدكاكين . ومن هذه الاسواق سوق الفخار ، بخط الفخار ، بمحلة البرجلية . واشير اليه احيانا باسم سوق الفواخرية . وبيعت في هذا السوق المنتجات الفخارية ، التي صنعت في غزة في أمكنة سميت بالفواخير . وذكرت الوثائق وجود خط ، بمحلة البرجلية ، عرف بخط الفواخير . حيث تواجدت الفواخير بكثرة ، بعضها بجانب البعض ، كما في المثال التالي : « المشتري الحاج سلمان بن المرحوم اسماعيل الرايع البايع علي بن خليل القعوة المبيع ١٢ قيراط من أصل كامل في جميع الفاخورة الكاينة بمدينة غزة بمحلة البرجلية بخط الفواخير التي حدها قبلة فاخورة احمد عطا الله وتمامه فاخورة ابراهيم الشويكي ومن يشركه وتمامه حاكورة ابراهيم العيد وشرقا المسطاح التابع لها الداخل في المبيع ومنه التوصل وشمالا المشتري ومن يشركه وغربا كذلك المشتري الثمن ١٠٨٠ قرشا»(٣).

ولا نعلم اذا كان خط الفخار ، بمحلة البرجلية ، هو نفسه خط الفواخير ، ولكن مما لا شك فيه أن سوق الفخار ضم دكاكين بيع الفخار ، في حين صنع الفخار في الفواخير التي تجمعت في محلتين : في محلة البرجلية ، بخط الفواخير ، الذي يبدو انه امتد داخل غزة وظاهرها ، وفي محلة الدرج ، بخط مسجد الشيخ ظريف ، وكذلك في ظاهر هذه المحلة . واشتملت الفاخورة على دواليب خشبية ، لصنع

الفخار ، ومسطاح ، وهو عبارة عن ساحة واسعة مكشوفة لتجفيف الفخار فيها بعد صنعه . ويبدو ان غزة اشتهرت بصناعة الفخار نظرا لكثرة الفواخير فيها ، وتخصيص سوق لبيع منتجاتها . كما انها صدرت الفخار الى مناطق اخرى . وذكر ، مثلا ، تحميل الفخار على جمال ، ونقله الى القدس . واستمرت صناعة الفخار فيها رائجة ، كما يبدو ، الى درجة ان مصطفى الدباغ ذكر ان أحد أحياء غزة عرف بالفواخير ، ولكنه لم يعين تاريخ ذلك .

ونظرا للحاجة الى الخبرة في صناعة الفخار ، وربما حرص اصحاب هذه الصناعة على حصرها باسرهم ، فاننا نلاحظ تخصص اسر معينة بها . ومن الاسر التي ذكرتها الوثائق في هذا المجال اسرة قعوة ، التي امتلك عدد من افرادها الفواخير ، ومنهم خليل بن قعوة ، واحمد قعوة ، وعلي بن خليل قعوة ، وموسى بن خليل قعوة . ومن الذين امتلكوا الفواخير . او اجزاء منها ، من غير هؤلاء ، ابراهيم الشويكي . خلف الاقرع ، محمد فلفل ، عبد ربه بن الحاج محمد الغداوي ، الحاج عبد الفتاح ابن مصطفى المشهراوي ، الحاج سلمان بن المرحوم اسماعيل الرايع ، ابراهيم بن أحمد الزنوتي ، أبو عبيد الازعر ، والحرمة امون بنت صالح دغمش . ولا نعلم اذا كانت الحرمة امون مجرد مالكة ، بطريقة الشراء أو الارث ، لفاخورة كاملة ، أو جزء منها ، أم انها عملت فيها أيضا . وتدل كثرة المتعاملين بالفواخير ، ملكا أو صناعة أو تسويقا ، على أن هذه الصناعة كانت رائجة .

ووجد في غزة سوق الاسكافية (الذين يعملون بصنع الاحذية) ، بمحلة السجاعية ، وتسمى الخط ، حيث موقع هذا السوق ، بخط الاسكافية (أو السكافية) . وليس من الضروري ان يقتصر أي سوق حصرا على مهنة معينة ، وان يكن اتخذ اسمها . ففي خط الاسكافية ، مثلا ، ذكر لدكان صباغة . وفي غزة سوق الصوافين ، بمحلة السجاعية ، وسوق الغزل ، بمحلة السجاعية أيضا ، حيث تسمى خط باسمه (خط سوق الغزل) ، وسوق العطارين داخل غزة . ولم يعين مكان وجود السوق الاخير بالضبط ، ولكن ذاكر ان ظهر هذا السوق كان مواجه الصبانة (ولعلها الصبانة ، أي المصبنة ، الرضوانية ، التي ذاكرت بكثرة في الوثائق) . ولم يذكر (غات) ، في قائمة الاسواق التي ذكرها في عام ١٨٨٧ ، الاسواق المذكورة سابقا . ولا يعني هذا انها لم تعد موجودة في زمنه . وربما لم تثر اهتمامه ، أو ان اسمها تبدل ، أو ادمج بغيره ، أو انها لم تعد مشهورة بالنسبة لاسواق اخرى .

وذكرت الوثائق ، سوق السراجين ، بمحلة الزيتون ، وسوق الخضر ، داخل غزة . ولم يعين مكان وجوده بالتفصيل ، ولعله كان بمحلة الخضر . والملاحظ

انه حين يشتهر سوق ما فان الوثائق لا تشير الى موقعه بالتفصيل ، مثل سوق السجاعية ، الذي غالبا ما أشارت اليه بالسوق داخل غزة . ووجد سوق للحمير ، وسمي خط باسمه (خط سوق الحمير) ، وكان بظاهر غزة ، الى الجنوب الغربي منها . وهناك سوق المسلخ ، داخل غزة ، بمحلة البرجلية ، كما يعتقد ، وربما بيعت في هذا السوق ذبائح المسلخ ، او انه سمي بذلك لوقوعه قرب المسلخ . اما المسلخ نفسه فكان بظاهر غزة ، بضريبة المسيل ، ويؤدي اليه زقاق عرف بزقاق المسلخ . وذكرت الوثائق خط النحاسين ، داخل غزة ، دون ان تذكر المحلة التي وجد فيها ، ولعل التسمية جاءت من كثرة النحاسين في هذا الخط .

ويبدو ان السوق الرئيسي في غزة ، الذي لم يتخصص بسلعة معينة ، ولم يحدد بخط معين ، كان سوق السجاعية . واشتهرت ساحته ، المعروفة بالقصبة ، التي تطل عليها الدكاكين . والى جانب القصبة وجد ، بسوق السجاعية ، خط عرف بخط البازار ، مما يعني ان هذا السوق كان متشعبا . واشارت الوثائق الى السوق الفوقاني بمدينة غزة ، وكانت له قصبة . ولا نعلم سبب تسميته بالفوقاني ، وبالنسبة لاي موقع سمي بذلك . ولعله تسمى بذلك لكونه يقع شمالي سوق السجاعية ، او ربما كان جزءا من سوق كبير اطلق على قسمه الاعلى تعبير السوق الفوقاني .

وكثرت في غزة أماكن الصباغة ، وتوزعت في انحاء متعددة من المدينة لتلبية حاجات المواطنين . واشير الى هذه الاماكن أحيانا ، بالمصبغة ، واحيانا اخرى بدكان الصباغة ، وتصعب معرفة وجه الاختلاف بين التعبيرين . ويبدو ان لا فرق بينهما لانهما استخدما بمعنى واحد . ووجدت مصبغة في خط الاسكافية ، بمحلة السجاعية ، واخرى في خط جامع ابن عثمان ، بالمحلة ذاتها . وقد اوقف المصبغة الاولى صاحبها ، احمد بن علي المشهرواي ، على سبيل الى جانبها ، وكانت المصبغة الثانية وقفا على جامع ابن عثمان . وذكرت مصبغتان اخريان بمحلة السجاعية : تملك احداهما عبد الرحمن زموا ومن يشركه ، وملك الاخرى عبد الرحمن زموا أيضا ، ونازعه في ملكية جزء منها السيدان يوسف السقا واخاه علي .

وذكرت صبانتان (مصبنتان) في غزة : الصبانة الرضوانية داخل غزة ، وصبانة بمحلة البرجلية ، بخط بني عامر . ولا يوجد دليل قاطع على ان الصبانة الثانية كانت غير الاولى . ووجدت مشعرة في غزة ، ويبدو انها مكان لغزل شعر الماعز . واشارت الوثائق الى عدد من المعاصر في غزة ، ولكنها لم تذكر تخصص كل منها ، باستثناء واحدة بمحلة البرجلية ، بخط مسجد الشيخ عياد . وقد اشتملت

على حاملين وفرن ومعجن واحواض وشمعة لتثبيت الاحجار ، وهي معدة لطحن السمسم ، وقد اشترى ثلثيها في ٢٥ جمادى الثاني ١٢٧٣/٢٠ شباط ١٨٥٧ ، السيد خليل بن المرحوم السيد محمد ابي خضرة من صاحبيها بالتساوي الحاج احمد بن المرحوم الحاج خليل العشي والخواجة نقولا ولد جبران الطويل النصراني . واذا صح القول ان معصرة الزيت عرفت باستمرار « بالبد » ، الذي اشارت اليه الوثائق في أماكن كثيرة ، فان المعاصر ، التي ورد ذكرها في الوثائق ، ولم تعين هويتها ، كانت اما لطحن السمسم ، الذي استخرج منه زيت السيرج ، كما في المثال السابق ، أو لعصر العنب لاستخراج الدبس . والمعاصر التي اشارت اليها الوثائق هي التالية : معصرةاولاد الغزالي بمحلة السجاعية ، ومعصرة بدوي حتحت بمحلة السجاعية ، بخط الست رقية ، ومعصرة اولاد حتحت بمحلة السجاعية ،بخط جامع ابن عثمان ، ومعصرة اولاد مكي بمحلة الخضر ، بخط معصرة اولاد مكي ، ومعصرة اولاد القهوجي بمحلة البرجلية ، بخط سوق الحمام ، ومعصرة الحاج حسن بن المرحوم الحاج احمد البورنة (كتبت احيانا البورنو أو البورنوا) ، بمحلة الزيتون ، بخط الشيخ عطية .

وقد ذكر عدد من البدود التي يعتقد انها اختصت بعضر الزيت . وضم البد المسطاح ، وهي الارض المكشوفة ، حيث يجمع الزيتون قبل عصره ، وحيث رصت وجففت بقايا الزيتون المعصور لتستخدم كوقود . وهناك بد لاولاد شرير بمحلة الزيتون ، وبد آخر بمحلة الزيتون ، بخط البطل ، امتلك بعضه ، أو كله ، آل مرتجا . واشير الى خربة البد بمحلة الزيتون ، بخط ساقية القيدة ، والى خربة بد آخر بمحلة الزيتون عرف ببد زايد ، والى خربة بد ثالثة بمحلة الزيتون ، بخط البطل . وليس غريبا ان جميع هذه البدود قد وجدت بمحلة الزيتون التي اقترن اسمها بهذا الانتاج . وهناك بد بنزلة المشاهرة بظاهر غزة ، وبد آخر ،بظاهر غزة أيضا ، من الجهة القبلية ، بجانب « حارت الزيتون » ، بخط البطل .

واشارت الوثائق الى خربة طاحون بمحلة الزيتون ، اشترى حوالي ثلثيها نصار بن الحاج سليمان يسين من اولاد الطحان . وهناك اشارة الى فرن بمحلة البرجلية ، بخط مسجد الشيخ عياد ، وكان في وقف الشيخ ذكري .

ولم تشر الوثائق الشرعية الى طوائف حرفية في غزة ، في فترة دراستنا . وليس ذلك بسبب عدم وجود هذه الطوائف ، بل ربما لان المحكمة الشرعية لم تعد آنذاك المرجع المسؤول عن النظر فيها ، بدليل ان واجبات قاضي غزة التي ذكّر بها عند تعيينه لم تنص على النظر في قضايا الطوائف . والجدير بالذكر ان قضاةدمشق ،

في الفترة ذاتها ، لم ينظروا في قضايا الطوائف الحرفية ، خلافا لما كان عليه الامر في القرون السابقة ، ابان الحكم العثماني ، وعهد الى مجالس اخرى بالنظر فيها . ومع ذلك وجدت اشارات الى وجود حرفيين في غزة ، مثل محمد بن قبيل ، دقاق البارود المصري ، وخليل بن ابراهيم البلعاوي الحداد ، الذي ذكر بمناسبة بيع دكانه المعدة للحدادة بمحلة الخضر ، بسوق الخضر . كما جاء ذكر داود ولد مسعود النحاس الذمي ، ورمضان البيطار ، الذي اشترى من الخواجه سالم البصلة خمسة عشر الف مسمار . وورد اسم الحاج مصطفى قصاب باشي الحج الشريف . وذكر الصوافون بغزة ، وانهم ارباب خبرة ودراية بصناعة الصوف وشرائه .

وهناك قاعات اعدت للحياكة في غزة ، منها واحدة بمحلة السجاعية ، بخط مسجد علي المغربي ، واخرى امتلكها محمد الاقرع ومن يشركه بمحلة البرجلية ،بخط بني عامر . وذكرت « القاعة المعدة للحياكة سابقا » ، بمحلة السجاعية ، بخط الحمام .

* * *

وفي اطار علاقات غزة التجارية مع العالم الخارجي ذكر استيراد الذرة من الاسكندرية اليها ، عن طريق البحر . وكانت الذرة معبأة بأكياس ، داخل كل كيس ٢٣ ربعا . وكان لتجار غزة وكلاء في الاسكندرية . كما انه تم استيراد الصوف من جدة الى غزة ، بواسطة امين التجار في السويس ، واسمه جريس الظهر . وكان مصدر الصوف في جدة السيد يوسف بناجه ، وله أمين ، أي وكيل ، في غزة ، اسمه السيد احمد يوسف السقا . وكان السيد احمد هذا امينا ، في الوقت ذاته ، لتجار آخرين . وكان الصوف موجها ، في الاصل ، الى الحاج عمر زعيتر بنابلس . ولكن هذا اذن لوكيله ، السيد احمد يوسف السقا ، ببيعه في غزة . وورد ذكر شراء خيول وبواريد من مصر وجلبها الى غزة . وبالمقابل ، صدر الفخار من غزة الى القدس .

* * *

ويلاحظ في العمليات التجارية في غزة انتشار الديون بشكل كبير ، ودراسة هذه الظاهرة تلقي ضوءا هاما على البنية الاجتماعية والاقتصادية في غزة وريفها ، اذ يقتضي ذلك معرفة هوية المدينين والدائنين ومهنتهم ، على حد سواء ، ومقدار مداخيلهم . ويقودنا ذلك الى معرفة انواع الثروة ، وتوزعها بين الناس ، واكيفية توظيف الرساميل ، والعقلية التجارية التي حركت ذلك . واهم مصدر لمعرفة هذه

التفاصيل هو ضبوط تركات ، اي مخلفات ، المتوفين . ولابد من الاشارة هنا الى انه ليس من الضروري ان تسجل كل تركة في سجل الوثائق الشرعية ، اي ان عددا من التركات لم يسجل بسبب عدم وجود خلاف حولها يستدعي عرضها على القاضي. كما أن ضبط التركة لا يجري مباشرة بعد وفاة صاحبها بدليل ان حسين بن حمودة الدباغة توفي في شهر ذي القعدة ١٢٧٣/حزيران – تموز ١٨٥٧ ، في حين ان تاريخ ضبط متروكاته وبيعها ، كان في ٥ ربيع الاول ١٢٧٤/٢٤ تشرين الاول ١٨٥٧ . ويبدو ان هذا التأخير كان بسبب ثروته الكبيرة ، وضرورة حصرها ، وجمع ما أمكن من الديون التي كانت له بذمة الناس . ونجد ، بالمقابل ، ان التركة البسيطة ، التي لا مشكلة تقتضي تأخير ضبطها ، سجلت بعد وفاة صاحبها بوقت قصير ، مثل تركة مصطفى افندي اسطنبلي ، اون باشي كرنتينة غزة ، المتوفى بخان يونس في ١٠ رجب ١٢٧٦/٢ شباط ١٨٦٠ ، والتي سجلت في سجل محكمة غزة بتاريخ ٢٣ رجب ١٢٧٦/١٥ شباط ١٨٦٠ . ولم يشر ضبط التركة في الغالب ، الى تاريخ الوفاة ، او الى مكان سكن المتوفى ، أو عمله . ويمكن استنتاج مهنته من تفاصيل الادوات التي وجدت في دكانه ، ومن طبيعة الاعمال التي قام بها .

ونعرض فيما يلي نموذجا لهذه التركات يتمثل في ضبط تركة ابراهيم ابو ريالة الحداد : « بيان ضبط تركه ابراهيم ابو ريالة الحداد المنحصر ارثه في اولاده عبد القادر واحمد وعزيزة وشنن القاصرين عن درجة البلوغ ومحمد وعبد ربه وخديجة البالغين وفي زوجتيه هما الحرمة زينب بنت خليل ابو حمار وفاطمة البكر القاصرة بنت محمد كشكوا وذلك بحضور ومعرفة كل واحد من محمد البالغ المذكور الاصيل عن نفسه والمنصوب الان من قبل مولانا الحاكم الشرعي على اخوته القاصرين المذكورين وبحضور عبد ربه ومحمد بن خليل ابو حمار الوكيل الشرعي عن اخته الحرمة زينب الزوجة المذكورة بشهادة وتعريف كل واحد من عبد الهادي الحداد وعبد ربه المذكور وبحضور محمد كشكوا ولي الزوجة الثانية وبحضور محمد الوصي وكيل خديجة البالغة بشهادة وتعريف كل واحد من محمد بن شاهين الخزامي وحسين بن نصار أبو تريا التعريف الشرعي وهو هذا كما يأتي بيانه بالمفردات .

ثمن عدة الدكان على عبد ربه ابن المتوفى ، ٧٠٠ (قرش) ، دين ثابت قبل جبر العقاد الخاني بموجب سند ، ١٣٠٠ ، دين قبل سعودي واخيه طالب العقاد بموجب سند ، ٩٨٠ ، دين قبل ابراهيم عبد الدايم الخاني بموجب سند ، ٥٢٠ ، دين قبل الحاج حسن الراعي بموجب سند ، ١٣٥ ، دين قبل سعد الدين مرتجا بموجب (فراغ) ، ١٣٥ ، المجموع ٣٧٧٠ .

مصارف نافذة : تجهيز وتكفين ومصارف ، ١٥٠ ، مؤخر الزوجة ، ٢٠٠ ، رسم التركة ، ١٠٠ ، كتاب ، ٣٠ ، رسلية ، ٦ ، المجموع ٤٨٦ . الباقي ٣٢٨٤ .
خص الزوجة الحرمة زينب بحق قيراط ونصف قيراط ، ٥ر٢٠٥ (٥ تساوي نصف قرش أي ٢٠ مصرية) ، خص الزوجة الشابة فاطمة القاصرة بحق قيراط ونصف قيراط ، ٥ر٢٠٥ ، خص ولده عبد ربه البالغ استحقاقه ، ١٥ر٥٢٢ ، (١٥ مصرية من اربعين مصرية) ، خص ولده محمد البالغ بحق استحقاقه ، ١٥ر٥٢٢ ، خص عبد القادر القاصر بحق حصته ، ١٥ر٥٢٢ ، خص احمد القاصر بحق حصته ، ١٥ر٥٢٢ ، خص عزيزة القاصرة ، ٧ر٢٦١ (اي سبع مصريات) ، خص شنن القاصرة ، ٧ر٢٦١ ، خص خديجة البالغة ، ٧ر٢٦١ ، (المجموع) ٣٢٨٤ تحريرا في غرة رجب ١٢٧٣/ (٢٥ شباط ١٨٥٧) .

ثم قضى مولانا الحاكم الشرعي لرسم طعام وشراب واكسوة عزيزة وشنن في كل يوم عشرة قروش فضة واذن لوصيها المذكور في انفاق ذلك عليهما مياومة وقبل منه ذلك غرة رجب ٧٣ .

الشهود : عبد الهادي الحداد ، محمد شاهين الخزامي ، حسين نصار ابو تريا ، نصر الله محمد المغير ، محمد ابو حمار ، السيد حسين ابو سيدو ، يوسف الكاتب ، الفقير علي م (اي علي الجاعوني كاتب المحكمة الذي انتدب من قبل القاضي لضبط التركة وتوزيعها) » .

ولم تتعرض التركة الى العقارات التي خلفها المتوفى ابراهيم ابو ريالة الحداد. ونستدل عليها(٤) من بيع الزوجة فاطمة القاصرة الى بقية الورثة حصتها ومقدراها قيراط ونصف قيراط مما يلي : جميع الدكان بخط النحاسين ، جميع الدار ، بمحلة الزيتون ، بخط مسجد الشمعة ، جميع الحاكورة ، بمدينة غزة ، بخط الكمالية . وقبضت عن حصتها هذه ٥٠٠ قرش . وهذا يعني ان ثمن كامل عقارات ابراهيم ابو ريالة الحداد يعادل ٧٩٢٨ قرشا . وبذلك يكون مجمل ثروته ، المنقولة وغير المنقولة ، ١١٢١٢ قرشا .

ومما يسترعي الانتباه ، اول شيء ، في تركة ابراهيم ابو ريالة الحداد ، وفي ضبوط التركات بصورة عامة ، ان الدولة لم تتقاض ضريبة على التركات . اما رسم التركة ، الذي اشير اليه احيانا برسم جناب الافندي (اي القاضي) ، فكان اجر القاضي . وهذا الرسم زهيد القيمة ، بلغ في ضبط تركة ابراهيم ابو ريالة ، الذي بلغت ثروته المنقولة ٣٧٧٠ قرشا ، مائة قرش ، اي بنسبة ٢٦ بالالف منها . ومن

دراسة رسوم التركات الاخرى يتبين ان نسبة الرسم تراوحت بين ١٠ و ٢٦ بالالف. ولم تتبين لنا قاعدة ثابتة لحساب نسبة الرسم ، الذي اختلفت من تركة الى اخرى .

ونلاحظ كذلك في ضبط تركة ابراهيم ابو ريالة ان ضبط التركة وتوزيعهاتناول فقط الثروة المنقولة ، ولم يتطرق ، في هذه الثروة ، الى محتويات الدار التي كانت تباع في العادة في تصفية التركات . أما الثروة غير المنقولة فلم يتعرض لها ضبط التركة ، وبقيت مشاعا الى ان رغب احد الورثة بالحصول على حصته منها . والغالب في ضبوط التركات عدم ذكر الثروة غير المنقولة التي خلفها المتوفى الا في الحالات التي فاقت فيها قيمة ديونه مجموع ثروته فيعمد عندئذ الى بيع العقارات لتغطية كامل الديون ، او جزء منها ، اذا لم يف ثمنها بمبالغ الديون المترتبة على المتوفى . ومما يجدر ذكره ان وثائق غزة الشرعية اشارت الى متروكات المتوفى ، التي توزعها ورثته ، بالمنقول ، وهذا لا يشمل الممتلكات غير المنقولة « ما عدا العقار والجدار فانه باق بينهما على حاله وكل منهما له ان يتصرف فيه بقدر استحقاقه »(٥) .

ويلاحظ أيضا في تركة ابراهيم ابو ريالة ان نسبة الاموال المنقولة الى غير المنقولة (٣٢٨٤ قرشا الى ٧٩٢٨ قرشا) بلغت ٤١ر٤ بالمئة ، وهي نسبة من السيولة المادية لابأس بها من مجموع الثروة . واذا صح ان ابراهيم أبو ريالة كان حدادا ، بدليل أن كلمة « الحداد » ، كما يبدو ، لقب مهنته ، وليست نسبته ، وكذلك بدليل أنواع الادوات المتعلقة بمهنة الحدادة التي وجدت في دكانه ، فان رأسمال هذا الحداد ، البالغ ٧٠٠ قرش ، وهو ثمن عدة الدكان ، والذي يمكن اعتباره نواة الثروة ، يشكل توظيفا ضئيلا ، ولكن مربحا جدا ، للمال ، بالنسبة لكامل الثروة التي بلغ مجموعها ١١٢١٢ قرشا ، أي ان نسبة الربح بلغت حوالي ٧ر١٥٠١ بالمئة ، دون أن تدخل فيها نفقات معيشته واسرته . ومما يدل على ان ثروة ابراهيم ابو ريالة غير المنقولة كانت بكاملها من املاكه الخاصة ، ولم تكن جزءا من مشاع ، ان زوجته فاطمة القاصرة حين اخذت حصتها البالغة قيراطا ونصف القيراط احتسبت على اساس كامل العقارات التي ملكها زوجها ، وكان من الممكن الوصول الى قناعة اضافية بأن هذه الثروة غير المنقولة جناها ابراهيم ابو ريالة بنفسه ولم يرثها عن أحد ، فيما لو كانت وثائق غزة الشرعية اكثر تفصيلا ، اي ان تذكر ، كما فعلت وثائق دمشق مثلا في الفترة ذاتها ، ان العقارات حصل عليها صاحبها بطريق الشراء لا الارث .

ان الثروة التي جمعها ابراهيم ابو ريالة الحداد ليست معيارا لحجم ثروات الحرفيين الاخرين . فثروات هؤلاء كما تظهر ضبوط تركات الحرفيين ، لم تبلغ حدود

ثروة الحداد أبو ريالة . مثلا ، ثروة مصطفى المناخلي ، الذي كانت حرفته صنع المناخل وما يتعلق بها ، بلغت ٦٩٧ قرشا . وترتب على التركة ٥ر١٣٤ قرشا من المصاريف ، فيكون باقي الثروة ٥ر٥٦٢ قرشا(٦) . أما اسعد الخاني الاسكافي فلم يخلف سوى داره التي بيعت بـ ١٢٠٠ قرش ، في حين بلغت ديونه ٢٤٦٢ قرشا . وقد وزع ثمن الدار ، بعداقتطاع مبلغ ٥ر٤٧ قرشا مقابل رسوم ومصاريف المتوفى ، على أصحاب الديون . والذي حصل من هؤلاء على كامل حصته من الدين كان السيد خليل الشوى ، لان الدار كانت مرهونة لديه ، بطريق بيع الوعد ، لقاء مبلغ قدره ٥ر٤٥٧ قرشا(٧) . وقدرت ثروة سالم الطحان بـ ١٧٠٦ قروش ، وبلغت ديونه ٤٥٤٠ قرشا . فوزعت الثروة على أصحاب الديون بنسب متفاوتة(٨) .

ويمكن تفسير ثروة ابراهيم ابو ريالة بالديون التي عقدها ، والتي لم تبرز في تركات الحرفيين الاخرين ، بل على العكس كانوا ضحيتها لانهم اغرقوا بالديون ، وما تضمنته من نسبة مرتفعة من الفائدة ، التي يبدو ان الدائنين تقاضوها ، مما ضاعفها عدة مرات . ولم تشر الوثائق الشرعية بالنص الى الفائدة أو نسبتها ، في قضايا الدين ، لانها غير مقبولة شرعا ، ولكن اشير اليها احيانا ، بصورةغيرمباشرة ، باصطلاح « مرابحة المال بالفائدة » ، كما في المثال التالي :بيانالذي قبضته الحرمة فاطمة بنت محمد الادهم من تركة ولديها عبد الخالق واحمد من يد شعبان بنالحاج أحمد بسيسه ٢٠٠٠ درهم بالاضافة الى ١٠٠٠ مرابحة المال بالمعاملة وذلك عما خص عبد الخالق واخيه ، فاصبح المجموع ٤٠٠٠ . ومات عبد الخالق عن القدر المذكور وعنه ورثته والدته واخته شقيقته واخته لابيه واخوته لامه (٩) . ولا نعلم مقدار الفترة التي تمت فيها المرابحة ، ولكن نسبة المرابحة التي بلغت الثلث ، تعتبر فائدة كبيرة . مهما كانت الظروف . وهناك مثال آخر يؤكد الفائدة ونسبتها المرتفعة ورد في ضبط عبد الله بن علي الجبالي(١٠) . فقد ذكر ان له جملة من الديون بلغت ٢٠٢٨٦ قرشا (من أصل ثروته البالغة ٢٢٢٦٣ قرشا) . وأحد هذه الديون ، بذمة علي ابن بدر شعث ، بلغ مقداره ٣٢٥٠ قرشا . وحين حساب ما تبقى من الثروة للورثة نقص مبلغ الدين هذا ، الذي بذمة علي بن بدر شعث ، من ٣٢٥٠ الى ٥٥٣ قرشا ، لانه « صار دفعه قبل وفا الاجل وقطع زيادة الربح على قدر المدة » . ولا توجد هنا ايضا اشارة الى نسبة الفائدة ، او مدة وفاء الدين ، سواء الفعلية منها ،التي دفع مبلغ الـ ٥٥٣ قرشا على اساسها ، أو النظرية ، التي توقع ان يصل اجمالي المبلغ فيها الى ٣٢٥٠ قرشا . ولكن يلاحظ ان مبلغ الـ ٥٥٣ قرشا ، الذي دفعه علي ابن بدر شعث ، لا بد وانه اكثر من اساس المبلغ الذي استدانه ، لانه يتضمن بعض الفائدة عن الفترة منذ استلامه المبلغ من الدائن وحتى وفاء الدين ، وعلى هذا ، فان مقدار الدين ، الذي كان أقل من ٥٥٣ قرشا ، كان

مقدرا له ان يبلغ ٣٢٥٠ قرشا ، فيما لو استكمل كامل مدة اجل الدين ، وهذا دليل على فائدة مرتفعة جدا ،اي ان المبلغ الاساسي كان مقدرا له ان يتضاعف ست مرات تقريبا .

ومن ثلاث واربعين تركة لرجال ، وردت تفاصيلها تامة في سجل وثائق غزة الشرعية (توجد ضبوط تركات أخرى لم تستكمل في السجل) ، نجد ان عشر تركات بلغت النفقات المترتبة على اصحابها أكثر من الثروة التي جمعوها ، من أموال منقولة وغير منقولة ، لذا اعتبرت هذه التركات مثقلة بالديون . ودفعت نسبة معينة من الديون لاصحابها ، في هـذه الحالات ، بقدر ما سمحت به الثروة . وقد بلغت هذه النسبة ، مثلا ، في تركة صالح الدويري ، خمسين قرشا لكل مائة قرش من الديون . وفي حال عجز التركة عن مبلـغ معين ، واقتدار الورثة على دفعه ، قسط المبلغ على الورثة ، كل على قدر حصته ، لصالح ارباب الديون .

وادنى ثروة وردت في ضبوط التركات كانت لمحمد المصري ، سواق ساقيـة حمام السمرة بغزة (لعله كان يعنى بدفـع المواد المتراكمـة في ساقيتها ، وبالتالي تنظيفها) ، اذ بلغت ٥١ قرشا . وقد استهلكت بكاملها في مصاريف الوفاة ، وكان اولاد محمد المصري غائبين في مصر .

ويلاحظ في التركات ان الثروات الكبيرة جمعت عادة من التجارة والزراعـة وتوظيف المال في الديون ، وحتى من الاستدانة وتوظيف المـال المستدان في أعمـال رابحة . وسنستعرض أكبر ثلاث ثروات بين التركات . وكان أقلها ثروة درويش السيروان ، الذي تعاطى تجارة الاقمشة ، وعمل بالزراعة . وبلغ مجموع ثروتـه المنقولة ٣٦٣٥٨ قرشا ، منها ٧٢٨٦ قيمة موجودات دكانه ، و ٢٥٨٤ مجموع النقود المختلفة ، التي وجدت بالدكان ، و ٢٦٤٨٨ ثمن حبوب وحيوانات مختلفة .. وبلغت مصاريفه ٢٤٨٥١ قرشا ، منها ٢١٧٨١ قيمة ديون ترتبت عليه . وبذلك بقي مـن ثروته ١١٥٠٧ قروش . ولم يتعرض ضبط التركة الـى الممتلكات غيـر المنقولة . ومما يلفت الانتباه ان نسبة الديون الى مقدار الثروة (٢١٧٨١ الى ٣٦٣٥٨) بلغت حوالي ٦٠ بالمئة ، مما يدل على أهمية السيولة المالية وعدم اللجوء الى تخبئة المال على مقياس كبير ، وتعطيل الفعاليات الاقتصادية بالتالي . كما انه يدل على عقلية تجارية ناشطة عمدت الى الاستدانة وتوظيف المال بشكل مربح . ونستدل من ذلك ايضا أن الربح من المتاجرة فاق الربح الناتج عن فائدة الديون ، على كبر هذه الفائدة .

وفاقت ثروة درويش السيروان في الاهمية ثروة السيد عبد القادر بن صالح الشوى ، اذ بلغت ٤٨٣٥٨ قرشا ، منها ١٩٠٠٧ وجدت نقدا بصندوقه ، و ١٢٣٠٠

قيمة ديون (منها ٦٩٩٤ بذمة أهالي قرية حتا) و ٨٦٥٠ ثمن حنطة وذرة وشعير . وبلغت مصاريفه ١١٩٦٤ قرشا ، منها ٧٠٨٥ ديون عليه للافراد ، و ٢٥٣١ قرشا مطلوبة منه للميري ، بمقابل زراعته في قريتي بيت طيما وبرير . وبلغ باقي ثروته ٣٦٣٩٣ قرشا(١١) ومن جديد ، نلاحظ أن الديون كونت نسبة كبيرة من توظيف المال ، بلغت ٢٥ر٤ بالمئة من أصل الثروة . ويمكن القول أن ثروة عبد القادر الشوى بنيت بمعظمها على سيولة نقدية بلغ مجموعها ٤٠٩٢٣ قرشا ، منها ١٢٣٠٠ ديون عقدها، و ١٩٠٠٧ وجدت نقدافي صندوقه ، و ٧٠٨٥ ديون استدانها ، و ٢٥٣١بذمته للميري ، وجميع ذلك من أصل ثروته البالغة ٤٨٣٥٨ ، أي بنسبة ٦ر٨٤ بالمئة . في حين ان الواردات الزراعية بلغت، حوالي سدس ثروته فقط .

وأكبر ثروة بين التركات في سجل غزة خصت السيد حسين بن السيد حمودة الدباغة . وكان تاجر أقمشة في الاساس ، ووظف بعض أمواله في الريف . وقد بلغت ثروته ٦٥٠٨٦ قرشا ، منها ٥ر٣٦٠٨١ قيمة موجوداته (بما فيها ١٤٠٥٠ ثمن بقر في قرية دير سنيد وغيرها) ، والباقي ، وبلغ ٥ر٢٩٠٠٤ ديون بذمة الناس . وكانت مصاريفه ٢٧٨٠ قرشا ، فيكون باقي التركة ٦١٣٠٦ قروش وزعت على الورثة(١٢) .

ويلاحظ أن نسبة الديون التي كانت للسيد حسين الدباغة بذمة الآخرين بلغت ٥ر٤٤ بالمئة من ثروته . واذا ما قارنا ذلك مع نسبة الديون التي عقدها كل من درويش السيروان وعبد القادر الشوى ، وعدد كبير اخر من أصحاب التركات في غزة ، تبين لنا الطابع الرأسمالي لثروة معظم الاغنياء في غزة ، ممن ذكرت اسماؤهم في الوثائق الشرعية . ولكثرة ماشاع أمر الدين بين الناس غصت صفحات الوثائق الشرعية بتعابير « دين » و « ديون » و « ديانة » . وشاع كذلك استخدام تعبير « ان بذمته مبلغ كذا » بطريق الدين الشرعي .

ويلاحظ على الديون ، في غزة ، انها فردية ، بمعنى أن الدائن فرد ، وليس مجموعة افراد أو شركاء . ومعظم الذين استدانوا كانوا أفرادا في الغالب . واختلف أمر ذلك في الريف ، حيث اعطيت الديون ، من قبل أفراد في غزة ، الى بعض سكان قرية ما ،أو كلهم ، بصورة جماعية . وكانت مسؤولية هؤلاء في وفاء الدين جماعية أيضا ، مما يدل على حاجة سكان الريف الجماعية للاستدانة ، وعلى اعمالهم الزراعية المشتركة ، ربما لانهم عملوا في الارض ولم يملكوها ، وعلى عدم ملاءة احدهم للاستدانة بمفرده . ولم نعثر على أمثلة على استدانةالمالمنالدولة . وقد عمد بعض

الاغنياء ، كما في مثال عبد القادر الشوى ، الى تأخير دفع مال الميري للدولة ، وتوظيف ذلك في أعمالهم ،وكأنه دين ، رغما عن الدولة ، ولكن بدون فائدة . وهناك أمثلة عن ديون بذمة الافراد لجوامع غزة ، مثلا ، ورد في تركة عبد القادر الشوى دين بذمته الى مسجد السيد هاشم ، وقدره ٥ر٨٧ قرشا(١٣) . وورد في تركة حسن دلول وجود دين مقداره ٥ر٢٧٩ قرشا ، ثابت عليه لجهة جامع الخضر بشهادة محمد درويش وسلامة الهليس(١٤) . والسؤال الهام الذي يطرح هنا : هل هذا الدين استدانة من مال الوقف ولفائدته ، أم أن الدين الذي كان بذمة هؤلاء الافراد للجوامع هو لقاء مال الحكر المترتب على بعض ممتلكاتهم لفائدة هذه الجوامع .

وعمد معظم الناس الى الاستدانة والادانة في آن معا . وغالبا ماكانت الديون زهيدة جدا ، اذ بلغت قرشا في أكثر من حالة . وهذا يدل على القيمة الشرائية للقرش ، وفي الوقت نفسه على قلة الدخل ، مما يعزز أهمية المبالغ الصغيرة ، وعلى اهتمام المحكمة بالنظر في أقل الديون . ونستشف من ذلك أيضا درجة عالية من الالتزام بالحقوق المالية مهما صغرت . وكثرة المداينة دليل على حاجة الناس اليها ، وعلى أن الدين كان أمرا عاديا ولا غضاضة اجتماعية فيه ، كما انه كان وسيلة من وسائل توظيف المال والربح بأقل جهد . وتقيد الناس بوفاء الديون ، الا في الحالات التي ثبت فيها الافلاس (وفي هذه الحالات كان مجموع الثروة يقسط على الدائنين ويلتزم الورثة بوفاء الدين) ، يدل على مستوى متميز في العلاقات العامة ، وعلى احترام الالتزامات المالية ، وعلى فعالية القضاء في جعل الناس يحترمون عقود الدين، لذلك قلما لجأ أصحاب الديون الى القضاء لاستيفائهم ديونهم الا في حالات قليلة ، مثل حل تركة أو افلاس صاحبها .

ونلاحظ من ضبوط التركات ان اسماء الدائنين لم تقتصر على أفراد معينين ، أي أن الدائنين لم يكونوا قلة من المحترفين ، كما انهم لم يقتصروا على أسر معينة . وشيوع الدين دليل على أن عددا كبيرا من الناس قد تعاطوه . ولم تكن للديون حدود مذهبية ، فقد استدان المسيحيون من المسلمين ، كما استدان هؤلاء من أولئك . ولجأ المسيحيون ، في الديون التي عقدوها فيما بينهم ، الى المحكمة الشرعة للفصل في الخلافات التي وقعت بينهم . ولكن المبالغ التي التزم بها المسيحيون ، كدائنين ومدينين ، اذا ماقيست بالديون بين المسلمين ، بدليل ماورد في ضبوط التركات التي درسناها ، كانت متواضعة الى حد كبير . وربما دل ذلك على عدم ثرائهم ، أو عدم رغبتهم بالمغامرة بالمال ، واكتفائهم بما هم عليه . وحضر المسيحيون البيع العلني لتركات المسلمين ، واشتروا منها .

واشتهرت النساء كدائنات ، وقلما ذكرن كمستدينات من الرجال ، اذ كن يستدن من بعضهن . ومن دراسة ضبوط التركات نجد أن الرجل استدان ، أول الامر ، من زوجته ، أو زوجاته ، ومن بناته ، مثلما استدان من أبنائه ، كما انه استدان من نساء اخريات . وتألفت ثروة النساء ، في الغالب ، من حلي متنوعة ، بالدرجة الاولى ، ومن نقود ، على اختلاف انواعها . ومصادر ثرائهن ، في الغالب ، كان ارثا ، أو وصية ، أو مؤخر مهر . ولابد انهن عملن في بعض الاعمال ، مثل الزراعة ، وصناعة الالبان ، وقطف القطن وغزل خيوطه . ووظفت النساء المال في الديون ، وشراء العقارات ، وأحيانا شراء الماشية .

ومن دراسة ثمانية ضبوط كاملة لتركات نساء توفين في غزة ، يتبين لنا ان ثروة اغناهن ، وهي زينب الرملي ، ويبدو أنها لم تكن متزوجة ، قد بلغت ٣٣٢٦٧ قرشا ، من ذلك ٩٣٥٢ قيمة حليها وانواع النقود التي وجدت لديها ، و ١٦٠٠٠ قرش دين عقدته لشخص واحد ، و ٥٠٠٠ قيمة حصص في عقارات ، ويعادل ذلك ٣٣٥٢ قرشا . والمبلغ المتبقي من مجموع الثروة هو ثمن امتعة وممتلكات شخصية . والشخص المدين للسيدة زينب كان السيد احمد عودة ، ولا نعرف أكثر من ذلك عنه . وكان للسيدة زينب معتوقتان أوصت لهما ببعض المال ، وهما الحاجة حليمة ومحبوبة .

وتجاوز سكان غزة نطاق مدينتهم في عقد الديون ، فاستدان منهم الريفيون ، وقلما حدث العكس . ويدل هذا على تدفق رأس المال من المدينة الى الريف ، وتبعية الريف المالية للمدينة ، وعلى نمو الثروة في غزة عن طريق استثمار الريف . واعطي الدين لقرية بكاملها أو لجماعة منها . والى جانب الديون ، وظف سكان غزة جانبا من مالهم في الزراعة ، أو في تربية الحيوانات في الريف .

ووصف الدين في الوثائق الشرعية بانه دين شرعي . وتم بموجب سند . واذا ما دعت الحاجة فان صحة السند او عدمها يثبتها الشهود ، وتدعم باليمين . واقتضى الامر ، في بعض الاحيان ، ايداع رهن لقاء الدين ، كأن ترهن حلي او عقار مثلا . ولجيء احيانا الى كفالة شخص لاخر لتأمين وفاء الدين . ولم يكن الدين باستمرار نقدا ، اي مالا يقدم للغير ، بل احيانا ، ثمن محاصيل ، او حيوانات ، او غيرها ترتبت بذمة شخص ، أو مجموعة أشخاص ، وخاصة في الريف ، واعتبر هذا الثمن دينا شرعيا . وكثيرا ماذكر أن فلانا بذمته مبلغ من المال الى شخص آخر . وكلمة « بذمته » لاتشير دائما الى الدين الا اذا اقترنت بالعبارة التالية « بطريق الدين الشرعي » . وقد تعني ، بمفردها ، ان اصل مال الذمة ارث ، أو

مهر ، أوقرض . ووصف القرض ، أحيانا ، بانه قرض شرعي . ولاندري اذا كان القرض الشرعي تضمن فائدة . واستخدمت كلمة « القرض » مرادفة لكلمة « القرضة » ، كان يقال ان فلانا له بذمة فلان قرضة شرعية ، أو ان يذكر انه وجدت في دكانه دراهم قرضة .

وحدد لوفاء الدين موعداول، او مؤجل ، فيتاريخ معين ،كغرة شهر ، او يوم في شهر ، حدد على أساس رؤية هلال الشهر الذي يستحق فيه وفاء الدين . ويقتضي ذلك شهود اثبات لرؤية الهلال . وحين عجز شخص عن الوفاء بالدين ، وثبت انه معسر ، قسط المبلغ ، أو الغي جزء منه . وطبيعي انه اذا كان للمدين عقار بيع لوفاء الدين . ولجيء في وفاء الدين الى نوع من بيع العقار ، تضمن مايشبه الرهن والفائدة ، كان يعد مشتري العقار بائعه ، الذي قبض الثمن ، انه ان جاءه خلال مدة معينة بنظير الثمن رد له المبيع . واباح البائع للمشتري ، في هذه الحال ، الانتفاع بالعقار ، سكنا أو تأجيرا ، او ثمرا ، مادام الثمن باق بذمته . وطبيعي ان هذا الانتفاع هو نوع من أنواع الفائدة . وسمي هذا النوع من البيع « بيع وعد بالاباحة »(١٥) .

★ ★ ★

ومنمظاهر الحياة الاقتصادية الاوقاف ، من حيث ان مواردها استخدمت لاعاشة عدد كبير من السكان ، ارتبطوا اما بخدمتها ، او باقتسام مواردها ، حسب نوعية الوقف ، خيريا كان أم أهليا (ذريا) . كما ان الفائض من واردات الاوقاف الخيرية وظف ، عادة ، في شراء عقارات باسم الوقف . ونظرا لكثرة الجوامع ، والاماكن العامة الخيرية الاخرى ، مثل الزوايا والسبل والحمامات ، في غزة ، والعقارات التي اوقفت عليها ، والموارد التي اغدقت عليها ، فقد شغلت الاوقاف حيزا كبيرا من الثروة الاقتصادية .

واستخدمت كلمة « الحكر » للدلالة على اجرة الاراضي الموقوفة والمؤجرة ، والفعل منها « استحكر » ، أي استأجر ارض الوقف . وعرف ناظر الوقف ، الذي اجر الوقف « بالمحكر » . كما عرف مستأجر الوقف « بالمستحكر » . والشرط في الحكر « ان يكون فيه الحظ والمصلحة لجهة الوقف » ، وان يكون مساويا لحكر مثل الوقف ، أي ليس فيه غبن للوقف . واستدعي ، عادة ، الشهود لاثبات ذلك .

واشـهر وقف اهلي في غزة ، في فترة داسـتنا ، هو الوقف الرضواني ، نسبـة الى الامير رضوان بن الامير مصطفى ابي شاهين ، الذي اشـتهر في غزة في النصف الثاني من القرن السـادس عشر . وكانت لهـذا الوقف مقاطعات حتى داخل مدينـة حلـب الشهباء وفي ضواحيها . وعيـن افراد آل رضوان ، وآل وفـا العلمي ، وآل رباح الحسيني ، ابـان فترة دراسـتنا ، نظارا على وقف آل رضوان . ويلي هـذا الوقف في الاهمية وقف حسين باشا ابن مكي ، الذي كان حاكما على غزة ، ثم نقل منها واليا على دمشـق في عـام ١٧٥٧ . وعين أفـراد من أسرة مكي نظـارا على هـذا الوقف . وكثيـرا ما كان الناظر هـو نفسـه المتكلم ، او المتولي ، علـى الوقف . وذكرت الوثائـق وظيفتي مشارف اول ومشارف ثـان على الوقف ، الى جانب الناظر . وعينت المرأة ناظرة ومتولية على الوقف .

وكانت عمليات الايقاف ناشـطة في غزة ، في فترة دراستنا ، من قبـل الرجـال والنسـاء على حد سواء ، ومالت كفتها لصالـح الاوقاف الاهلية او الذرية . ولهـذا الامر دلالته لانه يضمن بقاء الثروة في عقب الواقف ، واستفادة هذا العقب منها ما دام قائما . والمعروف في العهد العثماني ، وخاصة منذ القرن الثـامن عشر ، حين كثرت مصادرة الدولة للاغنياء ، ان عمد هؤلاء الى تحويل ممتلكاتهم الى وقف اهلي ، خشية مصادرة الدولة لها . وهكذا اوقف السيد حسين بن حمودة الدباغة ، صاحب اكبر ثروة منقولة ، كما رأينا ، ما ملكه من العقارات على ذريته ، وذلك قبل شهرين مـن وفاته . وجاز ان يوقف شخص بالوكالـة عن آخر ، وبالاشتراك معه كما اوقفـت الحصص الشائعة وقفا اهليا .

والملاحظ في الاوقاف الاهلية في غزة ان النسـاء اوقفنها مثلما فعل الرجـال ، ولكن اختلفت هوية المستفيدين منها ، بالنسـبة للذكور والاناث من الذرية ، من وقف الى آخر . وقد حصرت الاستفادة ، في الوقف الاهلي ، أولا بالواقف وحده ، طيلة حياته . ثم توزع وارد الوقف بين ورثة الواقف ، بعد وفاته ، وفق ترتيب معين اختـاره الواقف واثبته في شرط الوقف . ففي احدى الحالات ، نـص الواقف ان يوقف الوقف ، بعد مماته ، على اولاده واولاد اولاده (الخ) وذريتهم ، للذكر مثـل حظ الانثيين . وفي حالات اخرى ، نص على ان يوقف الوقف ، بعد وفاة صاحبه ، على اولاده ذكورا واناثا ، بالفريضة الشرعية بينهم . وافـادت الانثى منهم ، مـدة حياتها . فاذا ماتت انتقل نصيبها لاختها الثانية ، وهكذا كـل واحدة منهن ترث الاخرى الى ان يتوفين ، ثم من بعد ذلك على اولاد اولاده الذكور دون الانـاث . وفي حالة اخرى ، اوقف الوقف على اولاد الظهور دون البطون ، واذا ماتت الانثى عـن

اولاد من ذرية احد الواقفيـن الذكور انتقل نصيبها لهم ، واذا ماتت عن أولاد من غير اولاد الواقف رجع نصيبها للوقف . ولكن ذا انقرض اولاد الظهور انتقل الوقف الى اولاد البطون . واذا انقرضت ذرية الواقف ، مـن اولاد الذكور ثم اولاد الاناث ، تحول الوقف الى الحرمين المكي والمدني . واذا تعذر ذلك تحـول للفقراء والمساكين من اهالي غزة . وفي حالات اخرى ، اعطيت الاولوية ، بعد انقراض ذرية الواقف ، الى مسجد عمرو هاشم في غزة ، أو الى فقراء غزة . ولم تتمتع ذرية الواقف ، عادة ، بكامل واردات الوقف ، لان جانبا منها رصد ، في الغالب ، على ، عمارة الوقف ، او على قراءات دينية في امكنة معينة. واشير الى حصص الورثة بالسهم وليس بالقيراط.

★ ★ ★

ويمكننا التعرف على جوانب متعددة من مستوى المعيشة في غزة ، في فترة دراستنا ، بعقد مقارنة بين وسطي اسعار العقارات ، واسعار الحاجيات ، واثمان الحبوب والحيوانات ، ومقادير الثروات ، بصورة عامة .

ولا نجـد في الوثائق معلومات كثيرة عن ايجار العقارات ، ربما لان الاتجاه الغالب كان نحو ملكية العقار من قبل شاغله ، او ان عقود الايجار لم تثر خلافات حولها استدعت عرضها على القاضي . وفي احدى الحالات اجر نصف دار ، ثمنـه ٣٦٠٠ قرش ، بستين قرشا في السنة ، اي ان نسبة الاجرة الى ثمن المأجور كانت بحدود ١ر٦٦ بالمئة . وبلغت اجرة دكان ٧٥ قرشا في السنة ، ولكن ثمن الدكان غير معروف ، ولا يمكن اجراء مقارنة بينها وبين الدار السابقة .

وقد لاحظنا سابقا ان اسعار الدور في غزة تراوحت بين ٥٥٠ و ٢٤٠٠٠ قرش. ولم ندخل هنا أعلى سعر لدار ورد ذكره في الوثائق والبالغ ٣٣٦٠٠ قرش لانه كان استثناء ، ولم ترد اسعار بينه وبين الرقم السابق . ولو اخذنا عينة من عشر دور ، ذات مواصفات مختلفة ،ولكنها تمثل نماذج شائعة ، وتقع في خطـوط ومحلات مختلفة في غزة ، لوجدنا ان وسطي ثمن الدار هو ٣١٠٠ قرش . واذا اجرينا دراسة مماثلة بالنسبة للدكاكين لوجدنا ان وسطي ثمن الدكان حوالي ٢٢٥٠ قرشا . وعلى هذا ، فان الغزي المتوسط الحال بحاجة الى ٥٣٥٠ قرشا لشراء دار ودكان . ولم تكن ادوات العمل في الدكان مرتفعة الاسعار ، مثلا ، بلغ ثمن عدة دكان ابراهيم ابو ريالة الحداد ٧٠٠ قرش ، وبلغ ثمن عدة نول للحياكة ٢٤٠ قرشا . وليتزوج الغزي متوسط الحال كان بحاجة الى مهر يبلغ وسطيه ١٤٩٠ قرشا ، وذلك بالاستناد الى عينة من عشرة عقود زواج ، خمسة منها بامراة بالغ ، وخمسة بقاصر .

واذا ما درسنا عينة من عشر تركات لغزيين توفوا ، في فترة دراستنا ، وحسبنا ما بقي من تركتهم بعد اقتطاع ما ترتب عليهم من مصاريف ، لوجدنا ان وسطي باقي التركة هو ٧٢٥٣ قرشا . ونستنتج من ذلك ان الفائض بين ما جناه الغزي المتوسط في حياته وما انفقه على المتطلبات الاساسية في حياته ، من دار ودكان وزواج ، هو ٤١٣ قرشا . ويصعب ان نستشف الربح أو الخسارة في هذا المبلغ ، اذ يجب ان نأخذ بعين الاعتبار الجهد الذي بذله اثناء حياته وطبيعة عمله ، وكذلك الاسرة التي بناها. ولو استعرضنا قائمة تركات الرجال المتوفين في غـزة ، على مـدى اربع سنوات (١٢٧٣ ـ ١٢٧٧ هـ) ، لوجدنا ان سبعة متوفين من اصل ثلاثة واربعين فاقت ديونهم ثرواتهم ، وربما امكننا الاستنتاج ان حوالي سدس السكان كانوا معسرين . لـذا ، فالغزي المتوسط الذي وفر مبلغا قدره ٤١٣ قرشا كان من ضمن خمسة الاسداس من السكان غير المعسرين .

واذا اخذنا عينة من اسعار السلع المختلفـة في غزة لامكننا التعرف على قيمة الانتاج ومعرفة تكاليف المعيشة بالنسبة لغيرها . ففي مجال المـواد الغذائية كان وسطي سعر ربع (١٦) الحنطة اربعة قروش ، وربع الشعير ثلاثة ، وربع العدس اربعة وربع الذرة اربعة ، ورطل السمنة خمسة وعشرين ، ورطل الزبيب ثمانية ، ورطل اللوز الناشف خمسة ، ورطل العسل ثلاثة وعشرين ، ورطل الفول خمسة ، ورطل الدخان عشرة . وثمن جرة البرغل عشرة ، وجرة الشعيرية ثمانية عشر ، وجرة السيرج سبعين ، وجرة الزيت خمسين . وفي مجال الادوات المنزلية والملابس ، وهي مستعملة في الغالب ، لان اسعارها مبنية على بيع التركات ، فقد بلغ متوسط سعر الفراش خمسة وستين قرشا ، واللحـاف الاطلس سـبعين والمخـدة ثمانية ، والطراحة خمسة وستين ، ومنقل الحديد ستة عشر ، والطنجرة النحاس المتوسطة اربعة وخمسين ، والصحن النحاس المتوسط خمسة عشر ، والصحن الرملي ، الذي غلب فيه الرمل على النحاس ، ثمانية ونصف ، والعباية الغزاوية ستين ، والفروة ستة عشر ، والجبة الجوخ ، وهي مستوردة المـادة وربما الصنع ، مائة وثمانين والقنباز الابيض ثلاثين ، وكمر الصوف خمسة وعشرين ، والطربوش (وهو مستورد) اربعين ، والطربوش المغربي ستين . وبالنسبة للمواد النسيجية كان سعر رطـل الغزل الابيض اثنين واربعين ، والاسود ستة وثلاثين ، والصوف سبعة ونصف ، وذراع الشيت قرشا ونصف ، وذراع الخام قرشا وربع . وبيعت جارية سمراء بـ ٢٥٠٠ قرش .

وكان متوسط ثمن عجل البقر خمسمائة قرش ، والبقرة ثلاثمائة ، والجمـل ستمائة ، والحمار مائتين ، والثور مائة وخمسين . وبلغ وسطي ثمن الفرد الطبنجة ثلاثين قرشا . والبارودة خمسين قرشا ، والسيف عشرين .

ويصعب الحكم على هذه الاسعار كما هي . ولو قارناها باسعار السلع ذاتها في فترات سابقة او لاحقة ، واخذنا بعين الاعتبار التبدلات في سعر القرش وقوته الشرائية لامكننا معرفة نسبة الغلاء او الرخص في فترة معينة . ومع ذلك يبدو ، من مقارنة اسعار هذه السلع واسعار العقارات ، ان تكاليف الحياة الاساسية ، من سكن وشراء مكان عمل ، او استئجارهما ، وكذلك الزواج ، كانت متدنية بالنسبة لاسعار السلع . فاجرة نصف الدار ، التي سبق ذكرها ، والتي بلغت ستين قرشا في السنة ، في حين كان ثمن هذا النصف ٣٦٠٠ قرش ، واجرة الدكان التي بلغت خمسة وسبعين قرشا تبدو بخسة جدا اذا ما قورنت بسعر جرة زيت بيعت بخمسين قرشا ، رغم اشتهار الزيت وكثرته في منطقة غزة . ونستدل من ذلك على أن الذين تعاطوا الزراعة ، وهم الجزء الاكبر من سكان غزة ، كانوا في وضع احسن من غيرهم ، مثل اصحاب العقارات . وارتفاع اسعار الحيوانات المستخدمة في الزراعة والنقل (مثلا ، سعر جمل فاق سعر دار صغيرة) ، دليل على اهمية هذه الحيوانات بالنسبة للعاملين في الزراعة ، سواء في المدينة ام الريف ، ومن هنا الحرص عليها ، وكذلك سرقتها باستمرار ، ورفع الدعاوى الى المحكمة للنظر في ذلك . وارتفاع سعر الجمال يفسر الحالة المادية الحسنة للبدو ، والتي تمثلت بشراء احد امرائهم لاغلى دار في غزة ودفعه اعلى مهر على الاطلاق عند زواجه .

★ ★ ★

وتميز الريف التابع لغزة بحياة اقتصادية غلبت عليها الزراعة المتنوعة تبعا لتنوع الاراضي . فهناك البساتين والحواكير ، وتقع اما في المدينة او القرية ، او بجوارها المباشر . وتكثر فيها عادة السواقي لتزويدها بالمياه . وفي حين كان البستان متنوع الاشجار المثمرة والازهار ، ضمت الحاكورة اشجارا مثمرة متنوعة ، وخص فيها الصبر ، كما في العبارة التالية : « جميع صبر واشجار الحاكورة » . وقد تكون الحاكورة مقتصرة على اشجار التين او الصبر . وكثرت الكروم خارج غزة والقرى ، وزاد عددها على عدد الحواكير ، وتداخلت معها في احيان كثيرة . واذا لم يشر صراحة الى ان الكرم هو كرم زيتون ، فانه يضم اشجارا أقل تنوعا من الحاكورة ، يغلب عليها شجر التين والكرمة والزيتون مجتمعين . واختلط بالكروم نوع آخر من الاراضي عرف بالمارس (جمعها موارس) ، وتعني الارض المعدة للحرث والزرع ، واشير اليها انها ارض كشف ، أي بدون اشجار . والمتعارف عليه ، كما ذكر لي ، ان المارس يمثل مساحة ارض مزروعة يحرثها زوج بقر في مدة تتراوح بين خمسة وعشرة ايام . واطلق ، احيانا ، تعبير « مارس » على الكرم ، كما في

العبارة التالية : « الكرم الكائن بأرض غزة المعروف بالمارس الشمالي بضريبة الرنجس .. والكرم المعروف بمارس جنيد الشمالي » .

وجزئت اراضي الريف ، على انواعها ، اصطلاحا ، الى مناطق عرفت واحدتها بالضريبة . وحددت الاراضي بالنسبة اليها ، ولا نعلم معنى الضريبة بالضبط ، ولعلها وحدة ضريبية لتسهيل جباية الضرائب عنها . وكان لكل ضريبة اسم خاص بها ، تماما كما كان للبستان او الحاكورة ، او الكرم ، او الساقية ، اسم خاص به . كما في المثال التالي : « جميع الكرم الكاين بأرض بيت لاهيا بضريبة عياضة المعروف بكرم مهابة » . وذكر كرم الدخاخين وكرم الدلقوم بارض القرية ذاتها ولكن بضريبة اخرى .

وتخللت الاراضي الزراعية ، وخاصة منها البساتين والحواكير ، داخل غزة والقرى ، وفي اطرافها ، السواقي لريها . ووصفت احدى السواقي ، الموجودة بمحلة السجاعية ، بخط بوابت ابي بكر ، المعروفة بساقية البهجة ، بانها اشتملت على « بير ماء وبركة معدة لجمع الماء ودولاب واخشاب وبايكة بثلاثة قناطر من الحجر وبيت مسقفين بالخشب وساحة سماوية ومن داخلها حوش مغروس به شجر نخل » . وخص شجر النخل بوجوده في السواقي . وبيعت الساقية كأية سلعة اخرى ، ولم تشر الوثائق فيما اذا كانت الساقية تسقي الارض القائمة عليها فقط أم تباع مياهها للاراضي الاخرى .

واحاطت بهذه الاراضي الزراعية ، وتخللتها احيانا ، اراض رملية ، اشير اليها بغليظ الرمل ، كما في المثال التالي : « الكرم بارض بيت لاهيا بضريبة الاجاير الذي حده قبلة غليظ الرمل » ، او المثال الآخر : « الكرم الكاين بارض غزة بضريبة البصاصي المعروف بكرم الخاني .. حده شرقا كرم ورثة حمد العكة وتمامه غليظ الرمل .. وغربا غليظ الرمل ». وامتدت الكروم ، في الواقع حتى ساحل البحر .

وتنوعت ملكية الاراضي وطرق التصرف بها ، فقد يباع كرم بكامله ، اي بارضه وشجره ، او قراريط منه ، او يباع شجره فقط ، كليا او جزئيا ، وينطبق ذلك على الحاكورة وغيرها من الاراضي المشجرة . وبيعت الساقية ايضا ، كليا او جزئيا . ويلاحظ ان السواقي كانت تكثر في مناطق معينة ، قرب بعضها البعض ، نظرا لتوافر الماء في تلك المنطقة ، كما في المثال التالي : « المبيع اربعة قراريط ونصف القيراط في جميع الساقية الكاينة داخل قرية دير البلح المعروفة بساقية القاعود

التي حدها قبلة الطريق السالك وفيها الباب وشرقا حاكورة ورثة المرحوم ابو سمرة وشمالا ساقية الفاخورة بيد ابو بشير وغربا ساقية خبيزة بيد ابن جمعان البدوي ومن يشركه بثمن قدره ٤٠٠ قرش » .

ويلاحظ ان معظم البساتين والحواكير والكروم والسواقي ، التي ورد ذكرها في الوثائق الشرعية ، تملكها افراد ، مسلمون ومسيحيون ، اقاموا في غزة او في القرى التابعة لها . وكان بعضها وقفا خيريا أو اهليا . ولم يرد ما يفيد بتملك الدولة لهذه الاراضي الزراعية . أي ما يثبت ان بعضها على الاقل كان ارضا اميرية (ميرية). وذكر أن مشايخ قرية سمسم الاربعة تسلم كل منهم الربع في ارض البلد وتعهد بادراتها بالحرث والزرع وبدفع ما عليها لجهة مال الميري من مال وغلال وغيره ما عدا الزيتية فانها تخرج من ريع زيتون البلد عن الجميع منهم . ويبدو ان اراضي هذه القرية كانت من املاك الدولة . وجاء في ضبط تركة عبد القادر الشوى ان بذمته الى جهة الميري على شده (ذكرتها الوثيقة « شدده ») بقرية بيت طيما وقرية برير ، بالاشتراك مع آخرين ،مبلغا قدره ٢٥٣١ قرشا ، مقدرةعلى الواردات من الحنطة والشعير والذرة . ولم تشر الوثيقة فيما اذا كانتالاراضي التي استغلوها هي أراضي الدولة ام أنه ترتب على ارداتهم منها هذا المقدار من الضرائب للدولة . والشداد ، في الشام ، هو الذي يستغل الارض ، ولا يملكها ، ويستخدم فيها اناسا بالاجرة ، كما أنه يدفع ربع الغلال للمرابعين الذين يعملون معه . وعرف الذي حرث وزرع الارض في منطقة غزة بالحراث . وفي احدى الحالات اتفق صاحب ارض مع آخر ان يرسل هذا جماله واربعة حراثين ، ويقدم صاحب الارض حراثين اثنين والبذار من الشعير ، ويكون الزرع بينهما مناصفة . وفي وقت الحصاد يأخذ صاحب الارض البذار الذي وضعه من أصل المحصول ، ثم يقسم الباقي مناصفة .

وقد استدان القرويون المال من سكان غزة لتمويل اعمالهم . كما وظف سكان غزة اموالهم في الريف ، سواء في الزراعة أم شراء الحيوانات . ونظرا لاهمية الحيوانات في الزراعة فقد كانت مثار خلافات وتقاض ، كما سبق ، وعرفتبصفات خاصة ، مثل الجمل الاشقع الاصفر ، والثور الاسود المكوي .

وتملك القرويون في مناطق غير مناطقهم بواسطة الشراء أو الارث ، واكثر ما تملكوا في غزة ، حيث عرفوا بنسبتهم القروية ، مثل الجبالي (نسبة الى جباليا) ، والحانوني (نسبة الى بيت حانون) ، والمجدلي او المجدلاوي (نسبة الى المجدل) ، والعبساني (نسبة الى عبسان) ، والسنيداوي (نسبة الى دير سنيد) . وتشير هذه النسبة الى اقامة اصحابها في غزة ، أي الى هجرة من الريف الى المدينة . وليس

من دليل - من خلال الوثائق - على حجم هذه الهجرة ، او اسبابها ، او الفترات التي نشطت فيها او تضاءلت . ورغم ان نسبة الغزاويين الذين تملكوا في الريف ، او وظفوا اموالهم فيه ، كانت كبيرة ، فلم يترتب على ذلك هجرة الغزاويين الى الريف . ووجدت في الريف اراض موقوفة على اماكن في غزة ، بنوعيها الخيري والاهلي . وقلما حدث العكس ، اي ان توقف الاراضي والعقارات في غزة على اماكن في الريف .

وقد اسهم البدو ، في ريف غزة ، بدور اقتصادي متنوع وهام . واشارت الوثائق الى نقلهم المؤن ، من شعير وحنطة ، من اشوان (جمع شونة) الميري في غزة الى بندر معان ، لتمويل قافلة الحج الشامي . وكان شيخ مشايخ عربان بلاد غزة الصف القبلي والصف الشمالي مسؤولا امام الدولة ، ممثلة بشخص ناظر اشوان الميرى بغزة ، رستم آغا ، ومن بعده محمد آغا البربار ، في فترة دراستنا ، وكذلك بشخص مأمور حملة الحج الشريف (لعله الموظف الذي يرافق المؤن ، او ربما أمير الحج الشامي الذي تسلمها) ، عن نقل المؤن الى بندر معان لاحتياجات قافلة الحج . وعهد شيخ المشايخ الى العربان التابعين له بنقل هذه المؤن ، التي بلغت كل سنة عدة آلاف من الكيلات من الشعير ، بصورة خاصة ، الذي وصف بانه نظيف وخال من التراب والحصا ، واقل من ذلك من الحنطة . وعبئت هذه الحبوب داخل خيش ذي عرى ، ونقلت على ظهور الجمال . وجرى اقرار شيخ مشايخ العربان ، أو شيخ عربان آخر من غير هؤلاء ، بتسلم ذلك في محكمة غزة الشرعية . ونقل الشعير والحنطة بكميات كبيرة من لواء غزة لسد احتياجات قافلة الحج الشامي دليل على توافر وجودة هذه الاصناف فيها .

وباستثناء ما يمكن ان يستنتج من معلومات حول الزراعة في لواء غزة ، من خلال ما زرع في البساتين والحواكير والكروم والموارس ، فلم ترد معلومات في الوثائق عن نوعية المنتجات الزراعية وكمياتها السنوية . واقتصرت المعلومات على ذكر كميات محددة منها ، وجدت في تركات المتوفين ، وعلى اسعارها .

★ ★ ★

وفيما يتعلق بالمقاييس ، والمكاييل ، والاوزان ، والنقود ، في لواء غزة ، فقد وجدت عدة انواع من كل منها . فبالنسبة للمقاييس استخدم ما سمي « ذراع البنا » (البناء) ، لقياس الاراضي داخل المدينة ، وكذلك ساحات الدور والاحواش . ويلاحظ ان المساحة الفارغة هي التي قيست ، وليس القسم المبنى . وقسم الذراع

الى اربعة وعشرين قيراطا ، وذكر من اقسامه النصف والربع ، وما عداها ذكر بالقراريط ، كما في الامثلة التالية : « قطعة ارض .. مساحتها شرقا بغرب ثلاثة اذرع وثلاثة قراريط من ذراع البنا كل ذلك فارغا بذراع البنا » (١٧) . وايضا « ساحة سماوية (في دار) بها بئر معد لخزين الاغلال التي ذرعها من الجهة القبلية شرقا بغرب اربعة اذرع وربع ومن الجهة الشرقية قبلة بشمال خمسة اذرع وعشرين قيراط من ذراع ومن الجهة الغربية قبلة بشمال خمسة اذرع كل ذلك فارغا بذارع البنا » (١٨). وذكر استخدام الذراع الاسلامبولي ، في غزة ، في الفترة نفسها ، لقياس مساحة الساحة السماوية في احدى الدور (١٩) . ولا ندري اذا كان الذراع الاسلامبولي هو نفسه ذراع البنـا . ويلاحظ في الامثلة التي استخدم فيها ذراع البنا ان اطول جهة فيها لم تتجاوز احد عشر ذراعا واجزاء الذراع ، في حين ان الذراع الاسلامبولي ، في المثال السابق ، استخدم في قياس ساحة سماوية بلغ طول جهتها الشرقيـة ، قبلة بشمال ، ستة وعشرين ذراعا ونصف ذراع وربعذراع وبلغ وسطها عشرة أذرع ، كل ذلك فارغا بالذراع الاسلامبولي . والذي يثير الاهتمام ويطرح امكانية التمييز بين الذراعين انهما استخدما في الوثائق في حوالي الوقت نفسـه ، وفي صفحتين متعاقبتين (٤٣ و ٤٤) .

ولم يرد من ذكر لذراع البنا في كتاب « المكاييل والاوزان الاسلامية » لمؤلفـه فالتر هنتس (٢٠) . وقد ذكر هنتس (ص ٨٩) ذراع المساحة ، التي كانت تساوي ٦٦ر٥ سم ، والذراع المعمارية (ص ٩٠) ، المعادلة لذراع النجار ، والتي عادلت ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في مصر ٧٥ سم . اما الذراع الاستانبولية ، فقد ذكر هنتس (ص ٨٤) ، انها استخدمت في مصر لقياس الاقمشة ، وان طولها ، في القرن التاسع عشر ، كان ٦٨ر٥٧٩ سم . ولا يمكن الاخذ بأي من هذه التفسيرات، بالنسبة لغزة ، الا بحذر شديد ، لانها تأثرت بمصر كما بالمناطق المجاورة من بلاد الشام . والجدير بالذكر ان الذراع النجاري استخدم في دمشق ، في الفترة نفسها تقريبا ، لقياس قطعة ارض خالية من البناء داخل دمشق(٢١) . وجاء في كتـاب (بيديكر) (٢٢) ان الذراع المستخدمة ، ويقصـد في سورية وفلسطين ، في حوالي ١٨٩٠ ، كان طولها ٦٧ر٧٥ سم .

واستخدمت القصبة في غزة ، في فترة دراستنا ، لقياس الاراضي ، سـواء اكانت حواكير أم أراضي زراعية . وذكرت اجزاء القصبة بأنهـا النصف والثلث والربـع ، وكان نـوع القصب المستخدم هو القصب الحاكمي . واستخـدم ، في الوثائق ، تعبير « تقصيب الارض » ، نسبة لاستخدام القصب في قياسها ، وحين

تقاس قطعة ارض ، أو ساحة دار ، أو أي عقار ، سواء بالذراع أو القصبة ، يبدأ القياس من الجهة القبلية ، مثلما يبدأ تحديد العقار من الجهة القبلية . وذلك ، كما يبدو ، للتبرك ، نظرا للاهمية الدينية للقبلة في التوجه نحو الاماكن المقدسة .

واستخدمت كلمتا « الذراع » و « القصبة » ، في غزة ، في مجالات ومعاني اخرى . فالذراع ، أو الدراع ، أو الدرع ، كما ورد احيانا ، قيس به القماش على أنواعه . والذراع المستخدمة كانت من الحديد ، ولا نعلم طولها . ووجد في تركة بائع اقمشة ذراعان من الحديد قدر ثمنهما بثلاثة قروش ، وفي مناسبة اخرى بأربعة قروش . ولا نعلم اذا كان ذراع البنا أو الذراع الاسلامبولي من الحديد أيضا . واستخدمت كلمة « قصبة » أيضا للتدليل على اداة التدخين ، كأن يقال « قصبة دخان » .

واستخدم القيراط لتقسيم الكل الى أجزاء بلغت أربعة وعشرين قيراطا . ومثلما قسم الذراع ، مثلا ، الى قراريط قسم العقار كذلك . وجزىء القيراط الى نصف وثلث وربع ، والى اجزاء اصغر من ذلك ، مثل ، الثمن والسدس والخمس ، وقسمت هذه بدورها الى اجزاء اصغر منها . واستخدم السهم للدلالة ، عادة ، على حصة في ارث اهلي ، كما في المثال التالي : « السيدة الحاجة عالمة بنت المرحوم بهرام بيك آل رضوان لها في جميع ريع الوقف الرضواني سهما كاملا من تسعة اسهم ونصف كونها من الذرية »(٢٣) . ولا نعلم بدقة مجموع الاسهم ، الذي شكل السهم جزءا منه ، وهل هو بعدد مجموع الورثة في مثال الارث .

وفي التعامل الزراعي في دمشق ، مثلا ، اعتبر السهم جزءا من مائة سهم ، وفي بعض مناطق الشام حاليا يقسم العقار الى ٢٤٠٠ سهم . ورغم ان وثائق غزةاشارت الى حدود كل عقار ، حين بيعه او وقفه ، وذكرت حصصه بالقراريط ، واحيانا قاست بعضه أو كله بالذراع ، فانها لم تذكر كلمة « فدان » في قياس الاراضي . وشاع في دمشق ، مثلا ، نوعان من الفدان : الروماني والخطاط .

وتنوعت المكاييل ، في غزة ومنطقتها ، في فترة دراستنا . فمنها الكيلة ، التي كيلت بها الحنطة والشعير . فقد نقل ، مثلا ، من شونة غزة في شوال ١٢٧٣/حزيران ١٨٥٧ ، الى بندر معان ، لتموين الحج الشامي ، ١٨٦٤٠ كيلة شعير بالكيل المجيدي . ونقل من شونة غزة ، في جمادى الاول ١٢٧٦/كانون الاول ١٨٥٩ ، ١٠٩٩١ كيلة حنطة ، و ٢٥ر٢٢٩٩٢ كيلة شعير ، الى بندر معان للغرض نفسه ، مما يدل على ان الكميات الكبيرة كانت تقاس بالكيلة . وفي وثيقة اخرى وصفت

الكيلة بانها مجيدي . ويبدو ان التسمية نسبة الى السلطان العثماني عبد المجيد (١٨٣٩ – ١٨٦١) ، وهذا يعني ان الكيلة المجيدية ، أو الكيل المجيدي ، استخدما في عهده . ولا ندري ماذا كان وزن الكيلة أو الكيل المجيدي ، فيما اذا عبئت قمحا ، أو شعيرا ، أو بمادة اخرى ، لان هذه المواد يختلف وزنها من مادة الى اخرى . وذكر هنتس (ص ٧٣) انه اصبح للكيلة في تركيا ، بعد عام ١٨٤١ ، قيمة موحدة تساوي ٢٧ر٣٥ لترا ،وهذا ما يعادل ٢٥ر٦٥٦ كغ من الحنطة . اما كيلة الشعير ، فيعتقد هنتس (ص ٧٢) انها وزنت ٢٥ر٢٢ كغ . وقد جاء في كتاب (بيديكر)(٢٤) ، في حوالي ١٨٩٠ ، ان الكيلة في سورية عادلت مدين ، اي ٣٦ لترا ، وهذا ما يعادل ١٨٧ر٢٦ كغ .

وذكرت الوثائق نصف كيلة ، ولكننا لم نجد اشارة الى ربع كيلة . وهناك اشارة الى ان الكيلة قسمت الى أربع وعشرين وحدة ، كما ورد ، مثلا ، حين تقدير ضرائب الميري في غلال الحنطة والشعير والذرة ، وقد اشارت الوثيقة الى هذه الوحدة بحرف (ط) ، وهذا الحرف يشار به ، عادة ، الى كل من القيراط والرطل . ومن جمع اعداد هذه الوحدات من الحبوب ، نلاحظ ان كل اربع وعشرين وحدة ، اي (ط) ، اعتبرت كيلة ، اضيف عددها الى عدد الكيلات بجانبها . وهكذا ، فمن الممكن ان الكيلة قسمت الى اربعة وعشرين قيراطا ، او انها قسمت الى اربعة وعشرين رطلا . ونحتاج الى امثلة اخرى لنتمكن من الاخذ بتفسير او آخر .

ان حصر الكيلة بالكيل المجيدي يعني ان هناك انواعا اخرى من الكيل ، يفترض ان تختلف احجامها ، وبالتالي اوزانها ، لذا فالكيلة حجم نسبي ، والكيل متعدد الحجوم . ووجدت اختلافات في المقادير ، وبالتالي في الوزن ، حتى ضمن الكيل من نوع معين . مثلا ، هناك كيل مجيدي مسح ، أي على مستوى الاطراف . وهناك كيل عرم من غير هز ولا لبد . ونتساءل فيما اذا كان الكيل العرم من غير هز يضم الاكبر كمية ممكنة ، والمفترض ان الكيل العرم بعد الهز يستوعب كمية اكبر .

وذكر المد كمكيال في غزة ومنطقتها ، وقدر بأنه يساوي نصف كيلة . وكان المد في غزة ، مثل الكيلة ، مجيديا ، كما ورد ذلك في المثالين التاليين : « قبض وتسلم ووصله .. من محمد آغا الحلبي مأمور حملة الحاج الشريف الشامي ثمانية وعشرون الف مد وستماية مد شعير بالمد المجيدي كيل عرم من غير هز ولا لبد عنها اربعة عشر الف كيلة شعير وثلاثماية كيلة مجيدي داخل الف ومائة وثمانية وثلاثون زوج خيش اسود ونصف زوج خيش » . و « قبض وتسلم ووصله من شونة زخاير الميري

بمدينة غزة تسعة وثلاثون الف واثنتين وسبعون مد شعير مجيدي عنها تسعة عشر الف وخمسماية وستة وثلاثون كيل شعير بالمد المجيدي » . ويلاحظ من المثال الاول ان زوج الخيش الاسود استوعب ١٢٫٥٦ كيلة مجيدية من الشعير ، أو ٢٥٫١٢ مدا مجيديا من الشعير ، وهو ما يفترض ان يكون قد حمل على ظهر جمل واحد . واذا كان المد المجيدي في غزة معادلا للمد المصري ، الذي قدر في عام ١٢٥٦/١٨٤٠ – ١٨٤١ ، بانه يعادل رطلا وسبع وثلث سبع رطل ، فان زوج الخيش الاسود استوعب ٣٩٫٤٦ رطلا من الشعير بالرطل المصري . والى جانب الخيش الاسود استخدم الخيش الاسمر . ويبدو انه كان اكثر استيعابا من الخيش الاسود . فقد وضعت ٥١٧٠ كيلة مجيدي من الشعير داخل ٣٦٩ زوج اسمر جديد بعراها وخوايطها ، اي ان الزوج من هذا الخيش استوعب ١٤٫٠١ كيلة مجيدي من الشعير . ومع ذلك ، فلم يستخدم الخيش ، سواء منه الاسود أم الاسمر ، كمكيال بحد ذاته .

وعملية الكيل لم تكن منحصرة بالكيلة ، لان أي مكيال آخر وجب كيل محتواه ، فالحنطة ، مثلا ، كيلت ، الى جانب الكيلة ، بالصاع ، او بالربع ، ولكل منهما حجم معين يكال بكيل معين ، كأن يقال « صاع بكيل قرية المغار » ، أو ربع « بكيل السوق » . وهذا يعني ان هناك صاعا يكال بغير كيل قرية المغار ، وربما يكال بغير كيل السوق ، مثلما كيلت الكيلة بغير الكيل المجيدي .

وقد استخدم الصاع في منطقة غزة كمكيال ، وكانت تكال به أنواع الحبوب ، وحتى الزيتون . وذكر هنتس (ص ٦٣) ، ان الصاع عادل ٣٫٢٤ كغ . ولكنه لم يعين المكان والزمان حيث بلغ وزنه ذلك المقدار .

وكان الربع اكثر شيوعا من الصاع في كيل الحبوب في منطقة غزة . والتسمية نسبة الى ربع المد(٢٥) ، أي ان وزن الربع ، الذي ساوى ٤٫٥ لترا ، عادل ٣٫٢٧٣ كغ ويجب ان نأخذ هذا بتحفظ بالنسبة لانواع الحبوب ، التي اختلفت احجامها ، وبالتالي أوزانها . واذا ما قارنا بين سعر ربع من الحنطة وسعر صاع منها ، في فترة واحدة ، لوجدنا ان سعر ربع الحنطة راوح بين ثلاثة وخمسة قروش ، حسب نوع الحنطة ونظافتها (مقدار الحصا والتراب فيها) ، والسعر الوسطي اربعة قروش ، في حين ان سعر صاع الحنطة كان حوالي عشرة قروش ، مما يدل على ان الصاع اكبر من الربع ، وربما بلغ ضعفه او اكثر . وطبيعي ان المقارنة بين اسعار الربع والصاع والمكاييل الاخرى ، للتوصل الى مقارنة بين احجام هذه

المكاييل ، يجب ان تتم بحذر وبدقة كبيرة ، نظرا لاختلاف نوعية كل سلعة ، ونظافتها ، ومواصفاتها الاخرى ، كأن يكون العدس ، مثلا ، صحيحا أو مجروشا ، وان تكون الحنطة معروقه او عادية . وكذلك يجب الاخذ بعين الاعتبار ان تكون المقارنة في الاسعار في موسم واحد يتساوى فيه العرض والطلب ، بالنسبة لمختلف انواع الحبوب المراد مقارنة اسعارها .

وكان هناك كيالة محترفون يتقاضون اجورا على كيل الحبوب . وتقاضى كيال الشعير ، مثلا ، خمسة وعشرين قرشا على كيل الف ربع من الشعير ، علما بأن وسطي ثمن ربع الشعير كان ثلاثة قروش . ولا نعلم ان كان هناك كيالون لكل مادة ، كما قد توحي بهعبارة « كيال الشعير » .

ومن المكاييل الاخرى « الحمل » ، وهو ما يحمل على ظهر حيوان النقل . ولم ترد معلومات كثيرة حول الحيوان ، الذي حملت عليه الاحمال عادة . فقد عهد الى مشايخ البدو بنقل كميات كبيرة من كيلات الشعير والحنطة من شونة غزة الى بندر معان ، والمفهوم انها نقلت على الجمال ، وان الخيش الاسود او الاسمر استخدم لنقلها . وكانت الاشارة الى « زوج الخيش » ، مما يعني ان كل زوج وضع على ظهر جمل ، ولكن « الحمل » كمكيال أمر آخر . فقد اشارت الوثائق ، مثلا ، الى حملين من الحنطة ، يضمان اربعة وستين ربعا ، سعرهما ٣٢٠ قرشا ، بذمة مصطفى سلمان للمتوفى عبد القادر بن صالح الشوى(٢٦) . وهذا يعني ان حمل الحنطة تألف من اثنين وثلاثين ربعا ، وان سعر الربع خمسة قروش . واشير في تركة اخرى ، بعد عام من تركة الشوى ، الى حملين من الحنطة ضما اربعة وستين ربعا ، بسعر ستة قروش للربع . واذا اعتبرنا ان الربع وزن ٣٫٢٧٣ كغ ، فان وزن حمل الحنطة عادل ١٠٤٫٧٣٦ كغ . ونظرا لان حمل الجمل قد قدره (هنتس ، ص ٢٧) ب ٢٥٠ كغ ، فان هذا الحمل الذي عادل ٣٢ ربعا ، يبدو انه حمل على حيوان اضعف من الجمل ، مثل البغل أو الحمار .

واستخدم الحمل كمكيال بالنسبة لغير الحبوب ، مثلا ، جاء ذكر حمل ملح بيع بخمسين قرشا ، واحمال صوف استوردت من جدة ، بطريق السويس ، الى غزة . وبلغ عدد هذه الاحمال ٢٢ حملا ، وزنها ٢٢٧ رطلا ، اي ما يعادل ١٠٫٣١٨ رطلا للحمل الواحد ، وبيع الرطل منها في غزة بسعر ٧٫٥ قرشا . وذكر الكيس كمكيال ، بمناسبة استيراد عدد من أكياس الذرة من الاسكندرية الى غزة ، وداخل كل كيس ١٣ ربعا من الذرة ، أي ما يعادل ٤٢٫٥٤٩ كغ .

وذكرت الطبة كمكيال ، بالنسبة للحبوب ، واختلف مقدارها حسب الكيل الذي كيلت به ، مثلا ، تواسط الحاضرون الصلح على أن يدفع المدعى عليه محمد ابن الحاج عودة الله ، من اهل قرية تل الترمس ، الى المدعي خليل بن علي القاطوع ، من أهالي قرية الشيخ مونس ، ثماني طبات ذرة بكيل قرية تل الترمس . ومعنى ذلك ان الطبة يمكن ان تقاس بكيل آخر . ولم نجد ما يساعد على التعريف بالطبة ونسبتها الى الكيلة ، أو الصاع ، أو الربع . ولكنها تدل ، من معناها ، على ان الكيل الذي كيلت به كان يفرغ على الارض ، أي « يطب » على وجهه ، لافراغ محتوياته ، والكمية تكون « طبة » . وتصف الطبة الى جانب اختها ، ثم تعد فرادى ، ويكون مجموعها ، مثلا ، ثماني طبات .

واستخدمت الجرة كمكيال ، بالنسبة لعدد من الحبوب والسوائل . وكان سعر جرة الشعيرية ، مثلا ، في حوالي رجب ١٢٧٥/شباط ١٨٥٩ ، ١٧ر٥ قرشا ، وجرة البرغل ١٠ ، وجرة المفتول (برغل مفتول مع طحين) ٢٥ر١٦ . وكانت قيمة جرة السيرج ، في غرة جمادى الثانية ١٢٧٦/٢٦ كانون الاول ١٨٥٩ ، ٧٠ قرشا . وبلغت قيمة جرة الزيت ، في التاريخ السابق ، ٦٣ قرشا ، وبيعت جرة زيت ونصف رطل زيت ، في التاريخ نفسه (وفي التركة نفسها) بسعر ٦٦ر٥ قرشا ، مما يعني ان سعر رطل الزيت بلغ سبعة قروش ، وان جرة الزيت وسعت تسعة ارطال .

وذكرت الوثائق عددا من الاوزان استخدمت في غزة ومنطقتها ، وكان ابرزها ، واكثرها استخداما ، الرطل . وورد ذكر نصف الرطل ، وتلته الاوقية (جمعت أواق) ، ثم الدرهم . وذكرت احدى الوثائق « درهمين حرير » ، في تركة احد المتوفين ، مما يدل على أهمية هذه الكمية الصغيرة . ووجد ميزان خاص لوزن الحرير ، عرف بميزان الحرير . ولم يرد في الوثائق ما يفيد عدد الاواق في الرطل ، أو عدد الدراهم في الاوقية . والمعروف آنذاك في مصر(٢٧) ان كل ١٢ اوقية عادلت رطلا ، وان الاوقية تألفت من ١٢ درهما . ونظرا لاختلاف هذه القيم ، في الزمان والمكان ، يصعب علينا معرفة ماذا كانت تعادل في غزة في فترة دراستنا .

واستخدم المثقال ، عادة ، لوزن الذهب واللؤلؤ . وبلغ وزنه في مصر ، في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، درهما ونصف . وفي عام ١٢٥٦/١٨٤٠ — ١٨٤١ قدر بدرهم وثلاثة اسباع الدرهم ، وبذلك يساوي الدرهم سبعة اعشار المثقال ، أي ان كل عشرة دراهم تساوي سبعة مثاقيل . وقسم المثقال ، في مصر ،

الى عدد من الحبات بلغ عددها ستة آلاف حبة . واستخدم الدرهم ، عادة ، لوزن الفضة .

وذكرت الوثائق انواعا كثيرة من النقود الفضية والذهبية ، وغيرها ، المتداولة في غزة ، واسعارها ، في فترة دراستنا . واستخدم تعبير « دراهم » للدلالة على النقود بصورة عامة ، كمانقول « بها امتعته ودراهمه » . وقصد بالدراهم ، احيانا ، القروش ، كما في التعبير التالي ، الذي ورد في ضبط احدى التركات : « دراهم نقدي بيد السيد محمد عابدين ، ٩٫٥ قرشا » .

وكانت الوحدة النقدية الاكثر تداولا هي القرش (كتب أحيانا الغرش) الفضة الاسدي . أما انواع العملات الاخرى ، من محلية واجنبية ، فضية وذهبية ، قديمة وحديثة ، فكانت موجودة بوفرة ، ولكنها كانت أقل تداولا ، وعمد الى تخزينها ، واكثر ما ورد ذكرها في التركات . وتسمية القرش بالاسدي مشتقة من اصل هولاندي ، حيث ظهرت صورة الاسد على العملة الهولاندية(٣٠) وقد استخدم نوعان من القرش في غزة ومنطقتها : قرش اسدي صاغ وقرش جرك ، وكلاهما من الفضة . وجاء في كتاب (بيديكر)(٣١) ان القرش الصاغ تعاملت به خزينة الدولة ، في حين استخدم القرش الجرك في التجارة والشؤون العامة ، وان الفرق بينهما بنسبة ٢٠ الى ١٨ . وقد اشارت وثائق دمشق الشرعية ، في فترة دراستنا ، وفي معاملات البيع والشراء بين الافراد ، الى « قرش فضة صاغ ميرية » ، مما يدل على القيمة الرسمية لهذا القرش . وبالنسبة للوثائق الشرعية في غزة فالتعبير الذي شاع استخدامه فيها ، في قضايا البيع والشراء ، هو قرش اسدي ، أو قرش . ولا ندري هل الاشارة هنا الى القرش الصاغ الرسمي (الميري) أو الى القرش الشائعالجرك . ومما يجعلنا نميل الى الاخذ بالمعنى الثاني ما ورد في احدى القضايا ، في سجلمحكمة غزة ، من ان امراة قبضت، من زوجها مبلغا قدره من المعاملة الجرك أو الجارية تسعة آلاف قرش وستماية قرش يعدل كل قرش اربعين فضة مصرية . وجاء في وثيقة اخرى ان الثمن بلغ ١٥٠٠ غرش اسدي عملة جرك ، وفي مناسبة ثانية ان الثمن بلغ ٨٥٠ غرش جرك مقبوضة بالحضرة . ونستشف من هذا ان القرش الجرك كان شائع الاستخدام في غزة .

وتقسيم القرش الى اربعين (قطعة) فضية مصرية (اختصرت احيانا الى فضة أو مصرية) سهل امور التعامل النقدي كثيرا . واشير الى قطعة الفضة ، فيغيرغزة، باسم « بارة » احيانا . ففي قضايا الطلاق ونفقة العدة ، والحضانة ، وفرض رسوم

الطعام والشراب للمطلقة ، أو للقاصرين ، استخدمت قطع الفضة المصرية لتحديد المبلغ الذي تراوح بين ٣٠ و ٨٠ قطعة فضة مصرية يوميا . ولم تكن هذه القطع من الفضة الصرف اذ خلطت بالنحاس . واطلق على قطعة الفضة المصرية ، في الاصل ، اصطلاح « نصف فضة » . ونظرا لتدني قيمتها وجد منها قطع بخمسة ، وعشرة ، وعشرين فضة . واشير ، في كتابة الارقام ، الى اجزاء القرش باشارات متعارف عليها ، فالنصف علامته (ـ) ، والثلث (ر) ، والربع (/) ، والنصف والربع معا (ـ) . واشير الى عدد قطع الفضة المصرية ، خارج هذه النسب ، كما يلي : (٥) ، أي خمس قطع فضة مصرية . مثلا ، عشرة قروش ، ونصف قرش ، وخمس قطع فضة مصرية (مصاري) ، تكتب كالتالي (٥ ـ ١٠) .

ومن قطع النقود الفضية التي ورد ذكرها في وثائق غزة الشرعية الريال المجيدي . الذي اختصر احيانا الى المجيدي ، والتسمية نسبة الى السلطان العثماني عبد المجيد . ومن اقسام الريال المجيدي نصف المجيدي وربع المجيدي وكلمة « ريال » مشتقة ، في الاساس ، من الريال الاسباني . وقدر الكرملي(٣٢) الريال المجيدي على انه يساوي ٨٠٠ بارة ، أو عشرين غرشا تركيا صاغا ، او ثلاثة وعشرين غرشا تركيا شركا (أي جرك) . رذكر ايضا ان وزن الريال المجيدي ١٢٥ قيراطا (٥) . و كان سعره في دمشق ، في فترة دراستنا ، ٥ر٢٢ قرشا (٦) .

واشارت وثائق غزة الى نقد عرف بالفرنك ، وجاء في كتاب (بيديكر) انه من الفضة ، وكان سعره في دمشق ، في فترة دراستنا ، اربعة قروش وخمسة مصاري . واستخدمت العملة المصرية الفضية من القروش في غزة في فترة دراستنا . فقد شريت دار في غزة بهذا النوع من القروش المصرية . وذكر الكرملي ان القرش المصري عملة فضية ، وان وزنه هو ٥ر٧ من القراريط .

وشاع في غزة استخدام ريال فرانسة عامود . وكان سعره ٣٢ قرشا . واذا كان مخزوقا فسعره ٥ر٣١ قرشا . وهذا الريال هو ، في الاساس ، ريال ماريا تيريز . واشير اليه بلقب ابو مدفع ، في غير غزة . اما في دمشق فأشير اليه بعامود ، وكان سعره فيها ، في فترة دراستنا ، ٧٥ر٢٧ قرشا . ووجد ريال فرانسة شوشه . واشارت وثائق دمشق المعاصرة اليه باسم ريال شوشه او شوشه ، واختلف سعره ، في دمشق ، بين عامي ١٢٧٤ و ١٢٧٦ هجرية ، اذ هبط من ٥ر٢٦ قرشا الى ٧٥ر٢٥ قرشا .

واستخدم في غزة ريال سينكو (وذكر ايضا باسم سينكوا ، وسنكو ، وشنكو) ، والكلمة مشتقة من الكلمة الايطالية خمسة . وكان سعره في غزة ٢٦ قرشا . وسعره في دمشق في ١٢٧٤ هـ ٢٥ر٢٤ قرشا ، وفي ١٢٧٦ هـ ٥٠ر٢٤ قرشا . وفي غزة ايضا ريال منون ، وسعره ٢١ قرشا ، ومنه نصف منون ، وسعره ٥ر١٠ قرشا . ولا نعلم وجه التسمية . وفيها كذلك نقد من نوع ناقشلي ، والتسمية لنقش عليه وربما هو نفسه منقشلي ، الذي كان سعره ٤ قروش . ووجد نقد مفرد ، وسعره ٥ر٣ قروش ، ونقد بوزلي ، اشار اليه الكرملي باسم بوزلك . ووجد نقد من نوع نصف وزري ، وسعره ٣ قروش ، ونقد نافلي ، وسعره ٧٥ر٤ قروش ، وربع زريفة ، استخدمت لتحميل الحلق بها ، ولعلها من الذهب (٣٣) ، ونقد حميدي ، وغازي قديم ، وسعره ٥ر٤ قروش . ويبدو ان هذا الغازي كان من الفضة لان الغازي القديم الوازن من الذهب كان سعره في دمشق ، آنذاك ، ٣٧ قرشا .

ووجد في غزة ، في فترة دراستنا ، نقد نحاسي عرف بالفنس ، وقد ذكره (بيديكر) (٣٤) في كتابه . وعرف هذا النقد في دمشق وكان سعره فيها ، في عامي ١٢٧٤ ، و ١٢٧٦ هـ ، ٥ر١٩ قرشا . ووجد نقد نحاسي آخر في غزة ، اعتبر قديما ، في الوثائق ، وهو الزلطة . والتسمية من السلافية Zoloto, Zolata وكانت تساوي ثلاثين بارة ، أو ثلاثة ارباع القرش .

وكثرت انواع النقود الذهبية ، العثمانية والاوربية ، في غزة في فترة دراستنا ، ومن هذه النقود العثمانية الجهادي ، ومن انواعه جهادي قديم ، وسعره ١٠٥ قروش ، وجهادي به نقص ، وسعره حوالي ١٠٩ قروش . ولا ندري ماذا كان الجهادي ، الذي به نقص ، نوعا من العملة ، أم ان الجهادي ، في هذا المثال بالذات ، كان ناقصا قليلا . ووجد جهادي يابس ، وكذلك نصف جهادي جديد ، سعره ٤٠ قرشا . وقد ذكر الكرملي (٣٥) ان تسمية هذا النقد بالجهادي ، نسبة الى الجهاد ، واشار الى وجود جهادي من الفضة ، وكان سعر الجهادي الصحيح الوازن في دمشق ، في عام ١٢٧٦ هـ ، ١١٢ قرشا ، ونصف جهادي طري ٥٠ قرشا ، ونصف جهادي يابس ٣٩ قرشا . واختلفت تسميات الجهادي هذه في دمشق ، في فترة دراستنا ، عن تسمياته واسعاره فيها في عام ١٨٣٩ ، وما حول ذلك ، حين اشير فيها الى جهادي قديم وجهادي جديد .

ومن النقود الذهبية في غزة المحبوب ، ولعله مختصر من زر محبوب ، والتسمية مشتقة من كلمة « زر » الفارسية ، وتعني الذهب ، وكلمة « محبوب » العربية . واشارت وثائق غزة الى تداول محبوب اسلامبولي فيها . ووجدت ، في غزة ،

قطعة نصف محبوب ، وسعرها ٢٠ قرشا . ووجد نقد ذهبي باسم خيري ، وسعره ٣٠ قرشا . ووجدت خيريات نواقص ، سعر واحدتها ٤ر٢٩ قرشا . وكان في التداول قطعة ربع خيري ، وسعرها حوالي ٧ قروش . واشارت وثائق غزة الى نقد خيري قديم . ولم يرد ذكر الخيري بين فئات العاملة في دمشق في قائمتين من عامي ١٢٧٤ و ١٢٧٦ هـ . ووجدت في مصر ، حوالي فترة دراستنا ، خيرية مصرية .

واشارت وثائق غزة الى نقد ذهبي من نوع ربع عدلي ، وسعره ٦ قروش . وقد وجد نقد عادلي في دمشق في حوالي ١٨٣٩ ، ولم يرد له ذكر فيها ، في عامي ١٢٧٤ و ١٢٧٦ هـ . ووجد في غزة ايضا نقد فندقلي ذهبي . ويقول الكرملي (٣٦) . ان هذا النقد هو نفسه البندقلي ، نسبة الى البندقية . وكان سعر قطعة فندقلي صحيح في غزة ٦٠ قرشا . ووجد منه نصف فندقلي وربع فندقلي . وهذه الاخيرة كانت اكثر شيوعا ، وسعرها ١٥ قرشا . ووجد ربع فندقلي سادة ، سعره ١١ قرشا . ولم يرد ذكر الفندقلي في دمشق في قائمتين من عامي ١٢٧٤ و ١٢٧٦ هـ . ووجد في غزة ما عرف بنصف جنزيرة ، ولعلها من الذهب ، وسعرها ٢٠ قرشا .

واستخدمت في غزة ، في فترة دراستنا ، عدة ليرات ذهبية ، منها الليرة المجيدية ، نسبة الى السلطان عبد المجيد ، وسعرها ١٢٠ قرشا . وكان سعرها في دمشق في ١٢٧٤ هـ ١١١ قرشا ، وفي ١٢٧٦ هـ ٥ر١١١ قرشا . ووجدت الليرة المسكوبية ، وسعرها ١٣٠ قرشا ، في حين كان سعرها في دمشق في ١٢٧٤ هـ ٥ر٩٧ قرشا ، وفي ١٢٧٦ هـ ١٠٠ قرش . ووجد كذلك ليرة بنيتوا أو بنيته ، وسعرها ١٠٥ قروش ، ونقد ذهبي عرفت وحدته باسم مجر (جمعها مجرات) ، وسعرها ١٢٠ قرشا ، ولعله ليرة ، لانه ذكر بين الليرات الاخرى . وورد ذكر مجر شباك ، وسعره ٦٠ قرشا . ووجد المجر في دمشق في عام ١٢٧٦ هـ وسعره ٥ر٥٦ قرشا . والملاحظ ان وثائق دمشق ، المعاصرة لفترة دراستنا ، اشارت الى ليرات ذهبية اخرى لم يرد ذكرها في سجل غزة ، مثل الفرنساوية (سعرها ٥ر٩٥ قرشا في ١٢٧٤ و ٥ر٩٨ في ١٢٧٦ هـ) ، والانكليزية (سعرها ١٢٠ في ١٢٧٤ هـ و ١٢٤ في ١٢٧٦ هـ) والمصرية (سعرها ١٢٥ في ١٢٧٤ هـ و ١٢٦ في١٢٧٦ هـ) ، وليرة ممدوحي (سعرها ٨٠ في ١٢٧٧ هـ) ، ودبلون (سعرها ٤٠٠ قرش في ١٢٧٦ هـ) ، وقرانيصة (سعرها واحد في ١٢٧٤ هـ و ١٢٧٦ هـ ، ومقداره ٥ر٥٧) ، وقرانيصة مربع (سعرها ٢٥٠ قرشا في ١٢٧٦ هـ) .

الحواشي :

(١) و (٢) Gatt, P. 153

(٣) سجل غزة ، ص ٤٣٤ ، ١٢ جا ٧٧/ (٢٦ تشرين الثاني ٦٠) .

(٤) سجل غزة ، ص ١٧ ، ختام ج ٧٣/ (٢٤ شباط ٥٧) .

(٥) سجل غزة ، ص ١٤٦ ، ٢٦ ذ ٧٤/(٧ اب ٥٨) .

(٦) سجل غزة ، ص ٢٤٦ ، ٤ ص ٧٦/ (٢ ايلول ٥٩) .

(٧) سجل غزة ، ص ٤٢٨ ، ٢٩ ر ٧٧/ (١٤ تشرين الثاني ٦٠) .

(٨) سجل غزة ، ص ٣٠٧ ، ٣ ب ٧٦ / (٢٦ كانون الثاني ٦) .

(٩) سجل غزة ، ص ٤٤١ ، ٤ ج ٧٧/ (١٨ كانون الاول ٦٠) .

(١٠) سجل غزة ، ص ٣١٧ ، ٣ ش ٧٦/ (٢٥ شباط ٦٠) .

(١١) سجل غزة ، ص ٩٧ ، ٥ جا ٧٤/ (٢٢ كانون الاول ٥٧) . (اختلاف الجمع بقرش يفسر بحذف الكسور) .

(١٢) سجل غزة ، ص ٦٢ ، ٥را ٧٤/ (٢٤ تشرين الاول ٥٧) .

(١٣) سجل غزة ، ص ٩٨ ، ٥ جا ٧٤ / (٢٢ كانون الاول ٥٧) .

(١٤) سجل غزة ، ص ١٠١ ، غرة ج ٧٤ / (١٧ كانون الثاني ٥٨) .

(١٥) سجل غزة ، ص ٣٣٦ ، ٤ ل ٧٦ / (٢٥ نيسان ٦٠) . وانظر فيما سبق القسم الاول من البحث في (دراسات تاريخية) ، العدد الثامن ، ص ٢٥ .

(١٦) انظر حول الربع فيما يلي ، ص ٣١ .

(١٧) سجل غزة ، ص ٢٦٢ ، ٧ را ٧٦/ (٤ تشرين الاول ٥٩) .

(١٨) سجل غزة ، ص ٣١ ، ٣ ن ٧٣ / (٢٧ نيسان ٥٧) ، وانظر ايضا : سجل غزة ، ص ٤٤ ، ١٤ ذ ٧٣/ (٥ اب ٥٧) ، ص ٩٢ ، ١٧ ر ٧٤ (٥ كانون الاول ٥٨) ، ص ٤٣٢ ، ١٠ جا ٧٧/ (٢٤ تشرين الثاني ٦٠) .

(١٩) سجل غزة ، ص ٤٣ ، ١٣ ذ ٧٣ / (٤ اب ٥٧) .

(٢٠) ترجمه عن الالمانية الدكتور كامل العسلي ، وهو من منشورات الجامعة الاردنية ، بدون تاريخ.

(٢١) سجلات محاكم دمشق الشرعية ، سجل رقم ٤٧٥ ، ص ١٠٧ ، ٢٢ ربيع الاول ١٢٧١/ (١٣ كانون الاول ١٨٥٤) .

(٢٢) Baedeker, p. XXX

(٢٣) سجل غزة ، ص ٤٤٧ ، ٢١ م ٧٧/ (٩ اب ٦٠) .

(٢٤) Baedeker, P. XXX

(٢٥) Baedeker, P. XXX

(٢٦) سجل غزة ، ص ٩٧ ، ٥ جا ٧٤/ (٢٢ كانون الاول ٥٧) .

(٢٧) انظر : هنتس ، ص ١٩ ـ ٢٠ ، ٣٠ ـ ٣٧ ، وانظر :
E. W. Lane, **An Account of the manners and customs of the modern Egyjptians,** 5th ed., London, 1860, p. 572.

(٢٨) انظر Lane, P. 572

(٢٩) الذهبي ، نشر الكرملي ، ص ٧٦ .

(٣٠) Raymond, 1, 20; H. Bowen and H. A. R. Gibb, **Islamic Society and the West,** Vol. 1, in 2 parts, **1951, 1957,** ii, 50.

(٣١) Baedeker, p. XVIII-XIX.

(٣٢) انظر : الكرملي ، ص ١٧٤

(٣٣) سجل غزة ، ص ٤٢٧ ، ٢٨ د ٢٨ ٧٧/ (١٣ ١٣ تشرين الثاني ٦٠) ، ص ٣٤٨ ، ١٣ ذا ٧٦/ (٢ حزيران ٦٠) ، وقد اشير اليها انها من الذهب وعرفت في دمشق في حوالي عام ١٨٣٩ ، انظر :
Jean-Paul Pascual, « Une neige à Damas au XIXe Siècle », **Bulletin d'Etudes Orientales** , t. XXVIII (1975), pp. 57-81, voir p. 60.

(٣٤) Baedeker, P. XXIX

(٣٥) ص١٧٢ .

(٣٦) ص ٢٣.

روسية القيصرية والمشرق العربي

د . خيرية قاسمية

جامعة دمشق ـ قسم التاريخ

يشغل الوطن العربي مكانة هامة على الخريطة العالمية ، استراتيجيا واقتصاديا، وهذا ما جعله منذ القديم ميدان معارك وصراع دبلوماسي بين القوى الكبرى ، وخاصة في أحوال الضعف والتفكك . وفي العصر الحديث ، ومنذ ضعف الدولة المسيطرة على الوطن العربي سياسيا ، اي الدولة العثمانية ، تأثر هذا الوطن من مداخلات ومساومات الدول الاوربية الكبرى التي اشتد الصراع فيما بينها لتأمين مصالحها في الدولة العثمانية ، ولتقسيم ممتلكاتها ، منذ نهاية القرن الثامن عشر ، واصبحت الاجزاء الافريقية والاسيوية من الوطن العربي موضع التنافس بين تلك الدول للحصول على النفوذ وخلق مواقع للسيطرة عن طريق التساوم والتعويض المتقابل . وتم التفاهم على اقتسام الاجزاء العربية في افريقية واحتلالها قبل الاسيوية ، وجرى ذلك تحت ظروف اقل تعقيدا .

وقد كان لمعظم الدول الغربية الكبرى في المشرق العربي العثماني مطالب متداخلة ومصالح معقدة ، واتبعت اساليب مختلفة للتدخل ، ساهمت فيها الهيئات الدبلوماسية واصحاب المصالح الاقتصادية والارساليات التبشيرية ، والبعثات العسكرية والثقافية ، لتوسيع نفوذ الدول الكبرى وتقويته ماديا ومعنويا ، ولتمهيد السبيل للاحتلال السياسي والعسكري ، وتفوقت مصالح بريطانية بسبب اعتمادها على قوتها البحرية واهتمامها بالمرور الى الهند ، وتمسكت فرنسة بادعاءاتها التقليدية في سورية ، وابدت الولايات المتحدة قدرا ملحوظا من الاهتمام الدبلوماسي والثقافي والتجاري في سواحل البحر المتوسط العربية . واخذت المانيا ، بعد ظهورها كقوة كبرى في اوربة ، باتباع « سياسة الزحف نحو المشرق » ، لتلعب دورا هاما في المنطقة عن طريق مكانتها في الدولة العثمانية . ان هذه العوامل ، التي جذبت القوى الكبرى نحو المشرق العربي العثماني وحوض البحر المتوسط ، هي

نفسها التي دفعت روسية القيصرية الى التطلع للمناطق الواقعة في جنوبها واعتبارها مجال اطماعها التوسعية . ومنذ أن حصلت روسية على منفذ الى البحر الاسود ، في الربع الاخير من القرن الثامن عشر ، دخلت موجة الصراع المتداخل للوصول الى البحار الدافئة عن طريق السيطرة على شرقي المتوسط . وشكلت السياسة الدينية جزءا من دبلوماسية روسية القيصرية الخارجية ، وقدمت الولايات العربية في شرقي المتوسط (سورية وفلسطين) فرصة ممتازة لاستخدام هذه السياسة ، واصطدمت بالتالي بمقاومة الدول الكبيرة الاخرى .

وحافظت الدولة العثمانية على ممتلكاتها العربية في المشرق ، لا بفضل قوتها بل بفضل تضارب مصالح الدول الكبرى وتناقض مواقفها ، الى أن جاءت الحرب العالمية الاولى لتغير موازين القوى في المنطقة ولتؤدي بالتالي الى تقهقر الوطن العربي امام التحديات الغربية العسكرية والاقتصادية والتكنولوجية .

صراع القوى بين الدولتين ، العثمانية والروسية :

توافقت القرون الاربعة ، منذ ان اصبحت روسية دولة قوية في شرقي اوروبة، مع اربعة قرون من الحكم العثماني للمشرق العربي . لذا لا يمكن فهم علاقة روسية القيصرية بالمنطقة العربية الا من خلال دراسة تطور العلاقة بين الدولتين الكبيرتين ، وهي علاقة كان يحكمها اعتباران هامان :

الاعتبار الاول **سياسي استراتيجي** ، فبحكم التجاور كان الصدام محتما بين الدولتين ولم يتجاهل السلاطين العثمانيون ، حتى في اوج قوتهم ، ظهور روسية كقوة منافسة ، وراقبوا ببعض القلق التهديد المحتمل للمطامح الروسية . ووجدت بين الطرفين مشاكل اقليمية واقتصادية وعنصرية ودينية حددت علاقاتهما السياسية منذ البداية(١) . وفي عام ١٥٧٠ بدأت المواجهة الاولى بين جيشي الدولتين وكانت سابقة لصدامات تالية . وتكررت حالات الحرب بين الدولتين في عهد اسرة رومانوف (١٦١٣ ـ ١٩١٧) بحيث بدت وكأنها تسيطر على مجمل العلاقات بينهما . وكانت حرب القرم (١٨٥٣ ـ ١٨٥٦) مثلا كلاسيكيا على ذلك ، رغم ان روسية اتبعت في بعض الاحيان سبيلا اخر ، هو دعم الدولة العثمانية (كما حدث في عامي ١٧٩٨ و ١٨٣٣) ، بأمل الحصول على نفوذ غير مباشر في الدولة العثمانية ، من خلال التحالف ، وليس العداء .

ويعود جوهر الصراع بين الدولتين الى محاولات روسية منذ القرن السابع عشر دفع حدودها باتجاه الشرق والجنوب للخروج من وضع الدولة القارية البرية،

اي الوضع الذي أملته الشروط الطبيعية . وقد ركز قياصرة روسية ، بعد بطرس الاكبر (١٦٨٢ ــ ١٧٢٥) ، جهودهم على الطريق البحري الجنوبي (أزوف ــ البحر الاسود ــ المتوسط) ، الذي يؤمن مياها دافئة مفتوحة طوال العام . ونظرا لان الدولة العثمانية كانت تسيطر استراتيجيا على منفذ روسية الوحيد نحو البحر المتوسط عبر المضائق ، التي وصفها نقولا الاول (١٨٢٥ ــ ١٨٥٥) بانها « بوابات بيتنا » ، اصبح الشغل الشاغل لسياسة روسية الخارجية تأمين المرور الحر غير المعوق عبر البوسفور والدردنيل(٢) . وهيأت روسية بذلك المسرح « للمسألة الشرقية » ولدور الدولة العثمانية كرجل اوروبة المريض في القرن التاسععشر(٣) .

كان يمكن في كثير الاحيان حسم الصراع ، لو انه اقتصر على الدولتين ذاتي العلاقة . الا انه بعد توسع روسية ، منذ نهاية القرن الثامن عشر ، اخذ هذا الصراع يشكل خطرا على مصالح الدول الاوربية الكبرى ، التي راقبت ، باهتمام شديد ، كل سعي توسعي من جانب روسية لمواجهته عند الضرورة(٤) . وتدخلت انجلترة في كثير من الاحيان بالنيابة عن اوربة لحفظ توازن القوى في المشرق العثماني ، الذي يعني دعم وجود الدولة العثمانية والدفاع عن سلامة اراضيها وعن اشرافها الفعال على المضائق . ونجحت انجلترة بسبب تفوقها البحري في شرقي المتوسط ، في حصر روسية داخل البحر الاسود وفي اغلاق المضائق في وجهها ، كما ارغمتها على التخلي عن مكتسباتها الاقليمية . وعن دعاويها « بتحرير القسطنطينية » . ولقد فكر موجهو الاستراتيجية الروسية في بعض الاحيان ، بالتخلي عن هدف المضائق والتوجه جنوبا عبر القفقاس نحو المواني الدافئة على الخليج العربي ، فسعوا الى قهر الامبراطورية الايرانية ليتمكنوا من الاشراف المباشر على الخليج ، وهو امر لم تكن انجلترة لتسمح به لانه يتحدى مركزها في الهند(٥) . واصبح الخيار الوحيد امام روسية للتوسع الاقليمي هو التطلع نحو اوربا الوسطى والبلقان او نحو الصين واليابان . وخلال سنوات الصراع بين روسية والدولة العثمانية لم يكن المشرق العربي هدفا بحد ذاته بل كان يدخل في اطار استراتيجيتها كدولة كبرى .

الاعتبار الثاني ديني ، فالسيطرة على المضائق كانت تحمل معنى اخر اكثر من الاهمية الاستراتيجية ، هو زعامة روسية لقضية الكنيسة الارثوذكسية(٦) . فقد كان من العوامل الهامة التي دفعت روسية الى التطلع نحو الدولة العثمانية كون الاخيرة دولة اسلامية تحكم شعوبا مسيحية(٧) ، توضعت في رقعة جغرافية هي مركز الكنيسة الارثوذكسية البيزنطية ، التي تعتبر روسية نفسها وريثة لها . وبذلك لعب الشعور الديني ، بالاضافة الى العامل الاستراتيجي ، دورا رئيسيا في صياغة العمل والفكر السياسيين لدولة روسية القيصرية تجاه الدولةالعثمانية(٨)

وكانت الكنيسة الارثوذكسية الروسية قد نشأت في ظل امبراطورية بيزنطة ، وخضعت منذ القرن العاشر الميلادي ، أي منذ ان عمد امير موسكو في القسطنطينية ، لسلطة البطريرك « المسكوني » في عاصمة بيزنطة . وكان معظم رجال الدين في الكنيسة الروسية من اليونانيين المعجبين ببيزنطة ، وبعد سقوط الامبراطورية البيزنطية استقلت الكنيسة الروسية عمليا ، ووجد رجال الدين اليونانيون داخل الكنيسة الروسية في امراء روسية الاقوياء حماة للعقيدة الارثوذكسية وورثة للامبراطورية البيزنطية . واعتبرت موسكو بعد انشاء بطريركيتها ١٥٨٩ « روما ثالثة »(٨) ، وورثت الكنيسة الروسية مظاهر الطقوس البيزنطية ، تماما كما ورث البلاط الروسي مظاهر البلاط البيزنطي ، واصبح « ارث بيزنطة » بذلك مسألة اساسية بالنسبة لتطور الدولة الروسية(٩) .

وبالرغم من المكانة التي احتلها القيصر في العالم الارثوذكسي ، حافظ البطريرك المسكوني في الاستانة — وهو يوناني — على زعامته للكنيسة الارثوذكسية (١٠) . وقد اقتنع الروس في بادىء الامر بهذا الوضع على امل الافادة من مكانة البطريرك المسكوني الخاصة لدى الدوائر الحاكمة العثمانية(١١) ، ولكن مع تردي العلاقات الروسية — العثمانية ، اخذت الشكوك تساور الروس من سيطرة رجال الدين على « الحضرة » البطريركية في الاستانة (القسطنطينية) بالاضافة الى كل توابعها . واصبح الاستيلاء على البطريركية « المسكونية » بالنسبة لروسية مطمحا هاما ، لان ذلك يخدم سياستها بشأن الجامعة السلافية والجامعة الارثوذكسية ويمنحها السلطة الدينية على الكنائس المستقلة ذاتيا وتستطيع بفضل قوتها ان تحول تلك السلطة الى سلطة مادية تخولها التدخل في الشؤون الداخلية للدول الارثوذكسية »(١٢) . ولذا عمل رجال الدين اليونانيون في ابرشيات الاستانة على مقاومة مطامع روسية ، واصبح هناك نوع من التحالف الخفي بين الاتراك العثمانيين ورجال الدين اليونانيين ، وتمسكت السلطات العثمانية برجال الدين هؤلاء لمواجهة ادعاءات روسية بحلول الاكليركية الروسية محل اليونانية بحيث تصبح السيدة العليا للارثوذكسية ،وتشكل بالتالي دولة داخل دولة ، في حين كان رجال الدين اليونانيون يصبحون رعايا عثمانيين مجرد دخولهم في خدمة الابرشيات العثمانية(١٣) .

الا ان الاراضي المقدسة ، التي ترتبط مواقعها بالكتاب المقدس ، ظلت هي الاقرب الى قلب الشعب الروسي المؤمن من « البطريركية المسكونية » ، نظرا لتعلق الروس العاطفي بالاراضي المقدسة . وقد تدفق آلاف الحجاج من الفلاحين الروس البسطاء نحو الاراضي المقدسة ، كغيرهم من حجاج اوروبة ، حتى قبل تأسيس الدولة الروسية الحديثة(١٤) . وحتى نهاية القرن الثامن عشر لم يرافق

ذلك اهتمام روسي رسمي واضح في المشرق العربي ، او حتى في فاسطين كأرض مقدسة . وكان الدعم المادي الروسي المحدود للكنائس الارثوذكسية في بطريركيات الشرق هو التعبير الوحيد الذي تمارسه روسية في تعاطفها مع مسيحيي الشرق الارثوذكسي . ومنذ مطلع القرن التاسع عشر سعت الدبلوماسية الروسية لاستخدام السياسة الكنسية في سورية — وفلسطين بشكل خاص — لارساء نوع من الوجود الروسي الارثوذكسي ، ولدعم مصالح روسية كدولة كبرى في شرقي المتوسط(١٥) .

٢ — الشواغل الروسية المبكرة بالمشرق العربي حتى نهاية القرن الثامن عشر :

حين تصادمت مصالح الدولتين العثمانية والروسية منذ نهاية القرن السادس عشر ، لم يدخل المشرق العربي في اطار موجة التوسع الروسي . هذا مع ان الاراضي المقدسة كانت تحتل مكانا متميزا في التفكير الروسي الديني ، كما ان بطاركة المشرق الارثوذكسي بدأوا يتجهون بانظارهم نحو موسكو منذ ان اخذت تظهر بمظهر الدولة الكبيرة ، وبخاصة لطلب المعونة المادية(١٦) ، وكان يقابل ذلك زيارة عدد من الروس للبلاد المقدسة . والاقامة مدة في سورية لدراسة الطقوس الشرقية الارثوذكسية والمقابلة بينها وبين الطقوس « المسكوبية » . وقد قام بطريركا القدس وانطاكية (اليونانيان) بدور هام في تطور الكنيسة الروسية في القرنين السادس عشر والسابع عشر . وكانت الهبات الروسية هي المصدر الرئيسي لدخل البطريركيتين دون ان تحاول روسية ممارسة اي نوع من النفوذ والتأثير على اعمالهما . ويمكن اعتبار معاهدة (كارلوتز Carlovitz ١٦٩٩) بداية تحول في سياسة الحكومة الروسية تجاه الشرق الارثوذكسي ، فقد اصر بطرس الاكبر على اضافة القضايا الدينية الى جدول اعمال مؤتمر الصلح ، ومنح السلطان العثماني ضمانات محددة للحجاج الروس المتوجهين الى الاراضي المقدسة(١٧) .

وقد أدى تصاعد العداء بين روسية والدولة العثمانية في القرن الثامن عشر الى تردد السلطة الاكليركية اليونانية ، التي بلغت مركزا متميزا في الاستانة ، في ابقاء الصلة الوثيقة مع القيصر خشية اثارة استياء السلطان(١٨) . ومع ذلك استمر الحجاج الروس بزيارة الاراضي المقدسة ، واستمر الدعم الروسي المادي للكنائس الارثوذكسية في بطريركيتي القدس وانطاكية ، ولكن هذا الدعم لم يسنده او يرافقه ، اهتمام بالعقيدة الارثوذكسية بين العرب المسيحيين ، او مواجهة النشاطات الارسالية الاجنبية ، أو الاشراف على طرق استخدام المعونات الروسية ، وظلت بيد الاكليركية اليونانية التي اثبتت عدم كفاءتها وفسادها ، واستئثارها وطمعها

وعدم اهتمامها بمصالح العرب الارثوذكس ، كفتح المدارس وبناء الكنائس(١٨) : ولم يمنع هذا الوضع المبعوث الروسي لدى الباب العالي من تقديم الاحتجاج مراراً بسبب الانتهاكات الكاثوليكية لحقوق الارثوذكس ، وكررت روسية تحذيراتها من المصاعب التي يلاقيها حجاجها في الاراضي المقدسة ، لعدم وجود حماية لهم فيها(١٩)

وقد أصبح الساحل السوري حقل صراع بين روسية والدولة العثمانية في سبعينات القرن الثامن عشر . ولم يكن ذلك لاسباب دينية ، بل لان شرقي المتوسط غدا منطقة مجابهة بحرية خلال مرحلة هامة من الحرب الروسية العثمانية، ففي حزيران ١٧٧٢ تقدمت بعض القطع البحرية الروسية ، بعد ضرب القوات العثمانية في معركة تشسينا ، لدعم علي بك المملوكي الذي انفصل عن الدولة العثمانية واستقل بمصر وضاهر العمر الذي بسط سيطرته على معظم فلسطين في ثورتهما ضد السلطان ، وتمكنت من محاصرة ميناء صيدا وطرد الاسطول العثماني منه ، ثم تقدمت على طول الساحل وبلغت ميناء بيروت وحطمت السفن العثمانية الراسية فيه(٢٠) . وعادت القطع البحرية الروسية ، من قاعدتها في جزيرة باروس ، الى بيروت في اذار ١٧٧٣ وذلك لمساعدة الامير يوسف الشهابي ، احد زعماء جبل لبنان المتنفذين ، بعد خلافه مع احمد الجزار ، الذي كان يتولى حماية بيروت على رأس مجموعة من الجند العثماني ، وضربت السفن الروسية المدينة وصدعت أسوارها ، وظلت بيروت تحت السيطرة الروسية من تشرين اول ١٧٧٣ حتى شباط ١٧٧٤(٢١) . وقد سمحت معاهدة كوتشوك كينارجه Kucuk Kaynarja ١٧٧٤ بانشاء كنيسة ارثوذكسية جديدة في الاستانة ، يتولى تمثيلها دبلوماسيا المبعوث الروسي لدى الباب العالي ، وعلى أساس هذا الشرط المحدد حاولت الدبلوماسية الروسية فيما بعد الادعاء بالحماية الفعلية على الكنيسة الارثوذكسية بكاملها في الدولة العثمانية(٢٢) . والملاحظ ان الحكومة الروسية لم تتمسك في مطالبها الاقليمية ، بالساحل السوري ، رغم ان دعم الثورة المحلية فيه ، واحتلال بيروت قد ساهما الى حد ما في هزيمة الدولة العثمانية ، فقد كان هدف كاترين موجها نحو الاستانة والمضائق ، ولم يبرز الاهتمام بالمشرق العربي الا في القرن التالي.

٣ ـ تزايد الاهتمام الروسي بالمشرق العربي في النصف الاول من القرن التاسع عشر :

تضافرت عدة عوامل منذ اوائل القرن التاسع عشر لازدياد التأثير الروسي في الدولة العثمانية وبالتالي لتمهيد الطريق للتغلغل الروسي في سورية ـ فلسطين . هذه العوامل هي : الثورة اليونانية ضد الحكم العثماني ١٨٢١ ـ ١٨٢٥ ودعم روسية

للثوار بحجة حماية المسيحية الارثوذكسية ، والحرب الروسية التركية ١٨٢٨ — ١٨٢٩ ، وهي التي انتهت بارغام الدولة العثمانية في معاهدة ادرنه على قبول المطلب الروسي بحماية المسيحيين الارثوذكس في الولايات العثمانية واقرار الدولة العثمانية بفتح المضائق للشعوب الصديقة ، وتقدم جيش محمد علي في سورية وما اعقبه من عقد تحالف دفاعي بين الدولتين في تموز ١٨٣٣ ،(معاهدة هنكار اسكله سي Hunkar Iskelesi ، التي خولت روسية وضعا متميزا في تقرير سياسة الدولة العثمانية الخارجية لانها منحتها الحق بافضلية التدخل في المضائق (٢٣) ، وهو الامر الذي اثار قلق الدبلوماسية الاوربية الحريصة على التوازن في المنطقة ، فسعت الى سلب روسية ثمار انتصارها .

وقد شهدت فترة حكم ابراهيم باشا في سورية — فاسطين تدفقا هائلا للارساليات الكاثوليكية والبروتستنتيه التي تسابقت في مجالات النشاط الديني والثقافي (فتح المدارس ، انشاء المطابع ، نشر الكتب وخاصة الكتب المقدسة)(٢٤) . وظهرت انجلترة وبروسية على مسرح المشرق العربي لاول مرة لتمثيل المصالح البروتستنتية ، تماما كما كانت فرنسة تمثل المصالح الكاثوليكية ، وانضمت الولايات المتحدة اليهما في لعبة « الاستعمار الانجيلي » وكان الاهتمام الديني احد جوانب المطامح الاوربية التجارية والسياسية في شرقي المتوسط والمتركز على سورية — فلسطين(٢٥) . ونشط الدبلوماسيون الاوربيون في المشرق العربي لتعزيز نفوذ الدول الاوربية ، واصبحت فلسطين في تلك الفترة مقرا لعدد كبير من ممثلي الدول الكبرى من رجال الدين او الدبلوماسيين(٢٦) . وكانت النتيجة الطبيعية هي الصراع من اجل السيطرة والنفوذ ، وبدأت حجة حماية الاماكن المقدسة والحجاج اكبر ضمان لتحقيق الفوز .

اخذت روسية ترقب بحذر اعمال الدبلوماسيين الاوربيين في المشرق العربي وسعت لتعزيز مواقعها لمواجهة نفوذ الدول الاوربية في المنطقة فارتأت ، اولا ، ضرورة تقوية التمثيل الدبلوماسي في سورية وفلسطين ، وكانت الخدمات القنصلية الروسية قد بدأت منذ عام ١٨٢٠ في يافا (اهم ميناء لاستقبال الحجاج الروس) ثم في حلب ، واللاذقية وبيروت ، وصيدا ، (وجميعها كانت تتبع لقنصلية الاسكندرية) . وفي عام ١٨٣٩ نقلت قنصلية يافا الى بيروت واصبحت بذلك القنصلية الروسية الاولى في سورية ، وتشمل صلاحياتها فلسطين بكاملها . وشغل منصب القنصلية (بازيلي) ، وهو روسي من عائلة يونانية في الاستانة وعلى معرفة واسعة بالاوضاع المحلية ، وعين وكيل قنصل له في القدس(٢٧).

سعت الدبلوماسية الروسية ، ثانيا ، الى تعزيز توجهاتها من خلال الدين(٢٨)، واعتمد المخططون والمنفذون لسياسة روسية الخارجية في المشرق العربي على الشعور الديني التقليدي لدى الشعب الروسي ، الذي كان يمجد رسالة روسية المسيحية في العالم المسيحي بوجه عام . ولم يكن صدفة ازدياد عدد الحجاج الروس الى الاراضي المقدسة منذ ثلاثينات القرن الماضي ، كذلك ازدياد الهبات المالية والتزيينات المرسلة الى الكنائس الارثوذكسية في الشرق . وكانت تلك الكنائس قد عانت خسارة فائقة في دخلها بعد الثورة اليونانية .ووجدت الدولة الارثوذكسية الكبرى في هذا الوضع فرصة لاظهار كرمها وزيادة دعمها المادي(٢٩) .

وخلال بروز مسألة التدخل الاوروبي بكل دوافعها الخفية في سورية عام ١٨٣٨ وزيادة النشاط الكاثوليكي والبروتستنتي في المنطقة ، وجدت الحكومة الروسية الارثوذكسية ، واثر تراجع مركز روسية الدبلوماسي ، وجدت الحكومة الروسية والمجمع المقدس الروسي Synod ضرورة تبني سياسة مشابهة لسياسة منافسيهم الغربيين (٣٠) . وفي عام ١٨٣٨ قدم فلسطين (مورافييف Muraviev) احد اعضاء المجلس الاستشاري في المجمع المقدس ، وكان يعمل من موقعه على الدعوة الى الاهتمام بالاراضي المقدسة وشؤون الحجاج الروس . واقترح (مورافييف) في كتاب مفصل قدمه الى القيصر ، ان يمارس القيصر حماية خاصة على الاماكن المقدسة الارثوذكسية (ولكن ليس على السكان الارثوذكس) ، وان تنشأ ارسالية في القدس تكون مركز نشاط ديني ودبلوماسي تدعمها ماديا معونات روسية . ولم تقم وزارة الخارجية الروسية بانشاء الارسالية ، الا انها تدخلت لدى السلطات العثمانية لوضع حد للنزاع حول الاماكن المقدسة وحماية الحجاج ، واصدرت تعليماتها الى (بازيلي) ،القنصل العام في بيروت ، والخبير بالقضايا المحلية ، بتوطيد صلاته مع السلطات الكنسية في سورية وفلسطين ، والاهتمام بمصالح الكنيسة الشرقية ، وأوكلت اليه مهمة اعادة تجديد ديرين يونانيين (سان كاترين في سيناء وسان تيودور في القدس) ، لاستخدامهما كداري ضيافة للحجاج الروس تحت رعاية الاكليركية اليونانية(٣١) .

واثارت نشاطات القنصل الروسي العام مخاوف القنصل البريطاني في القدس وشغلت حيزا كبيرا من مراسلاته ، ومن مراسلات السفير البريطاني ، في الاستانة . ولخصت هذه المراسلات هدف روسية بانه اخضاع الكنائس الشرقية ووضع المسيحيين الشرقيين تحت حمايتها ، ومناهضة عمل الارساليات الاجنبية ، هذا مع أن الكنيسة الروسية لم يكن باستطاعتها ممارسة اي نفوذ على الاكليركية اليونانية .

ويمكن القول انه في مطلع الاربعينات اخذت العناصر القوية في دوائرالخارجية، او المجمع المقدس في روسية ، تبدي اهتماما بالاراضي المقدسة ، ولم تعد افواج الحجاج تشمل الفلاحين البسطاء وحدهم بل اصبح من بينهم عدد من النبلاء والجنود والبحارة ورجال الدين والادباء (٣٣) ، واصبحت الدوائر الحكوميةوالكنسية اكثر استجابة لتوصيات ومقترحات الحجاج المتنورين وغيرهم ،الذين رغبوا باحياء العقيدة الارثوذكسية في الاراضي المقدسة وبالاشراف الروسي على انفاق الاموال الروسية ، لوضع حد لفساد الاكليركية اليونانية وعدم كفاءتها في هـذا المجال ، كما طالبوا بالوقوف في وجه مساعي الدول الاخرى لكسب التفوق ، مع ذلك لـم تكن هناك سياسة ثابتة ، ولم تكن وزارة الخارجية سوى قناة لايصال الهبـات الماديـة الى فلسطيـن .

ولم يقتصر الاهتمام الروسي على الاراضي المقدسة ، بل اصبح هناك اهتمام بالعرب وحضارتهم بشكل عام ، ونشطت حركة الاستشراق(٣٤) في الاوسـاط العلمية ، وعمل الرحالة العلماء الذين زاروا الشرق على تعزيز علاقة روسيةبالمنطقة العربية وزيادة التعرف عليها ، ومن هؤلاء (كافالفسكي) مهندس المناجم الـذي وضع كتابا عن مصر والسودان ، وكان محمد علي قد استدعاه على رأس بعثة استكشاف الى شرقي السودان فعثر على مناجم الذهب وكشف عن بعض منابـع النيـل(٣٥) .

وبعد ابرام معاهدة لندن ١٨٤٠ ، وانفتاح باب واسع لنفوذ الدول الكبرى ونشاطات ارسالياتها في سورية وفلسطين(٣٦) ، وقع حادثان لفتا انظار الحكومة الروسية الى ضرورة مواجهة نشاط البروتستنتية والكاثوليكية من اجل تعزيز مكانة روسية في المنطقة ، الاول ، هو انشاء الاسقفية البروتستنتية في القدس ١٨٤١(٣٧) ، بمبادرة بروسية وانجليزية ، والتي عززت النشاط البروتستنتي في المشرق كله ودعمت النفوذين الانجليزي والبروسي ، والثاني ، هو اصدار البابـا بيوس التاسع اذنا باعادة انشاء البطريركية اللاتينية في القدس ١٨٤٧ في محاولة من الكنيسة الكاثوليكية لاسترجاع مكانتها في الاراضي المقدسة(٣٨) .

وقد اصبح (نسلرود) ، وزير الخارجية الروسي ، اكثر اقتناعا بضرورة استخدام الكنيسة الارثوذكسية لاغراض سياسية بحته(٣٩) ، وكان قد تقدم منذ ١٨٤١ بمذكرة الى المجمع المقدس وضع فيها اسس سياسة ارثوذكسية اكثر فعالية اكد فيها على اهمية انتقال بطريرك القدس اليوناني من الاستانة الى القدس للعناية برعاياه(٤٠) ، وبين الحاجة الى وجود ارسالية روسية في الاراضي المقدسـة ،

تتبع رجال الدين اليونان ويساعدهم رجال الدين الروس . ومهام الارسالية ، بنظره تتيح لها التدخل في قضايا الكنيسة « اليونانية » نظرا لطبيعتها الدينية ، والاشراف على المعونات التي تأتي من روسية .

قررت وزارة الخارجية ، قبل تنفيذ توصيات (نسلرود) ، القيام بتفحص شؤون الشرق « المسيحي » عن قرب ، ولم يعهد بالمهمة الى دبلوماسي بل الى أحد رجال الدين المثقفين العارفين بالمنطقة ، ووقع الاختيار على ارشمندريت هو (بورفيري او سبنسكي Porfiri Uspinski (٤١) ، وكان مسؤولا امام وزارة الخارجية وهي التي صاغت له مهمته ، وتتلخص في التعرف على اوضاع الكنيسة الارثوذكسية في الشرق وكسب ود المواطنين الارثوذكس والتحقق من حاجات الطائفة الارثوذكسية(٤٢) . وكانت اهم النتائج التي توصل اليها (اوسبنسكي) في جولته (١٨٤٣ ـ ١٨٤٤) هو تدني مستوى الاكليركية اليونانية من جهة ، والتعاطف مع الاغلبية المحلية من رجال الدين والعامة الارثوذكس(٤٣) .

وقد أثار (اوسبنسكي) في جولته شكوك رجال الدين اليونان لانه تدخل في عملية انتخاب بطريرك القدس الجديد ، وكان العرف يخول بطريرك القدس المقيم في الاستانة تحت حماية البطريرك المسكوني حق تعيين خلف له ، الا انه تقرر عندئذ بتأثير النفوذ الروسي ان يجري الانتخاب في القدس من قبل « اخوة القبر المقدس » ومع ان البطريرك الجديد (كيرلس) كان يونانيا ، ولم يعقب انتخابه اي تفوق روسي الا ان عام ١٨٤٤ كان يمثل بداية النزاع بين العرب واليونان من اجل الحصول على مشاركة اوسع في شؤون البطريركية ووضع حد لتفوق الاكليركية اليونانية ، هذا النزاع الذي سيزداد حدة ووضوحا مع نمو الشعور القومي وازدياد التباعد عن الطبقة الدينية اليونانية(٤٤) ، وسيصبح قضية عامة تصدق على معظم الشرق العربي وليس فلسطين وحدها .

وقدم (اوسبنسكي) في المذكرة التي رفعها الى السفير الروسي في الاستانة ، مقترحات عملية من اجل التدخل الروسي الفعال في كنيسة القدس الارثوذكسية اهمها : ارسال مجموعة من رجال الدين الروس المثقفين برئاسة اسقف ، واقامة مدرسة روسية لتعليم ابناء البلاد ، ولتعليم رجال الدين الروس اللغة العربية لترجمة الكتب الروسية وتوزيعها على المواطنين الارثوذكس في سورية وفلسطين ومصر ، وانشاء مراكز روسية خيرية تتيح لرجال الدين الروس كسب السكان المحليين(٤٦) وطبقا لمذكرة (اوسبنسكي) فان هذه المهام هي نواة الارسالية الروسية التي سيتركز نشاطها في القدس ، نظرا لاهميتها الحساسة ، وليس في الاستانة اوبيروت

وبمعنى آخر فان هذه المقترحات تبدو وكأنها رسمت لايجاد نظائر ارثوذكسية روسية للمؤسسات البروتستنتية والكاثوليكية العاملة في الشرق ، او على الاقل لكبح نموها . وكان على روسية ان تقدم على مباراة الدول الاوربية(٤٧) لتأييد مركزها في الشرق .

وقد اخذت وزارة الخارجية الروسية مذكرة (اوسبنسكي) بعين الاعتبار على ضوء التقارير الدبلوماسية التي اكدت ، من جهة ، فقدان الاكليركية اليونانية تأثيرها على المواطنين العرب لجهلها وعدم اهتمامها ، وكشفت ، من جهة اخرى ، عن استخدام الارساليات الاجنبية ، البروتستنتية والكاثوليكية على السواء ، كل اساليب الاغراء لتحويل المواطنين الارثوذكس عن العقيدة الارثوذكسية(٤٨) ، وهو الامر الذي اثار مرارا احتجاج وكلاء روسية الدبلوماسيين(٤٩) ، كما دفع بطريركية انطاكية الى ارسال وفد الى روسية لطلب الدعم المادي والمعنوي من اجل مواجهة اخطار الارساليات الكاثوليكية والبروتستنتية(٥٠) وهكذا اصبح مستقبل تأسيس ارسالية دينية بيد الدبلوماسية الروسية ولم يكن (نسلرود) ارساليا ، بل كانت أهدافه الاوسع سياسية ، أي تعزيز النفوذ الروسي وكسب تعاطف الارثوذكس المواطنين ومنافسة او احباط الخطط الفرنسية والبريطانية ، وفي عام ١٨٤٧ اتخذت وزارة الخارجية الروسية قرارها بايفاد ارسالية دينية الى الاراضي المقدسة ، رسمت سياسة روسية الجديدة تجاه « الشرق الارثوذكسي » .

وقد عهدت السلطات الحكومية الروسية الى (اوسبنسكي) ، نظرا لتجربته ومعرفته الواسعتين ، مهمة رئاسة الارسالية الدينية التي وصلت القدس في ١٨ شباط ١٨٤٨ واعتبر اوسبنسكي نفسه وكيلا دبلوماسيا للامبراطورية الروسية ، ووضع في خططه العملية ، التي لم تتحقق جميعا ، الاساس لسياسة المستقبل(٥١) وتجاوز القيود التي فرضتها وزارة الخارجية ، وتنقل بين الاديرة المجاورة واجرى بحوثا في المكتبات ، وعمل في الوثائق والمخطوطات واودع بعضها في سان بطرسبرغ . وباموال روسية اشترت بطريركية القدس عدة مواقع في القدس وما جاورها (كثير من هذه المواقع اختارها اوسبنسكي لعلاقتها بالكتاب المقدس) ، وقد تم الشراء باسم رعايا عثمانيين(٥٢) . واستطاعت الارسالية الروسية ، رغم قصر فترة نشاطها (١٨٤٨ — ١٨٥٤) ، من وضع سابقة للنشاطات الروسية المقبلة الاكثر فعالية بعد حرب القرم وخاصة في مجال العمل الثقافي الروسي في فلسطين وفي الشرق الارثوذكسي الذي ازدهر في نهاية القرن(٥٣) . ولكنها فشلت في المهمة التي حددتها وزارة الخارجية باعلاء هيبة كنيسة القدس واصلاح احوال رجال الدين الذين يتولون الاشراف على المسيحيين الارثوذكس في الشرق ، وتعزيز مكانة الكنيسة الروسية والحكومة الروسية في نظر المسيحيين الشرقيين . كذلك لم يتوصل (اوسبنسكي)

الى حل مسألة الاشراف على رعاية الحجاج الروس وانفاق الهبات الروسية التي ظلت بيد الاكليركية اليونانية رغم الشكاوي المتكررة(٥٤) . وقد استطاع اوسبنسكي منذ زيارته الاستطلاعية قبل اربع سنوات ، كشف خفايا البطريركية في القدس ، وخاصة ظاهرة تغلب العنصر اليوناني على طبقة رجال الدين وعلى اخوة القبرالمقدس مع ان غالبية سكان الابرشيات هم من العرب الارثوذكس (٥٥) . وشعر (اوسبنسكي) بتعاطف خاص نحوهم ، وساءه اهمال تعلمهم وعمل جهودا خاصة بالتعاون مع بطريرك القدس كيرلس الثاني ، لاصلاح مدرسة البطريركية وانشاء معهد لاهوتي لتدريب رجال الدين ، وتأسيس دار طباعة صغيرة اخرجت بعض الكتب الدينية بالعربية لتوزيعها على الكنائس والمدارس . وقدم المعونة المادية لرجال الدين العرب من أموال الارسالية ، وعين بعضهم في مناصب دينية في المناطق النائية(٥٦) . وساعد (اوسبنسكي) بذلك على تغذية الشعور العربي المتميز لدى الارثوذكس العرب ، والذي بلغ في النهاية مرحلة التباعد النهائي عن الاكليركية اليونانية . وربما كان هذا اعظم ما حققته الارسالية الروسية الاولى في القدس .

٤ ـ روسية القيصرية تعيد النظر في سياستها في الشرق الارثوذكسي بعد هزيمة القرم :

أدى تنافس الدول الكبرى ، واختلاف مواقفهم من الدولة العثمانية الى تفجر حرب القرم ١٨٥٣ ـ ١٨٥٦ ، ولم يكن النزاع بين رجال الدين الارثوذكس والكاثوليك حول الاماكن المقدسة في فلسطين ، سوى المبرر العلني لكشف هذا التنافس ، وهو الامر الذي زاد مرارة المواجهة السياسية بين الدولتين الحاميتين لكل من الكنيسة الارثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية . وربما كان التزعم الروسي لقضية الكنيسة الارثوذكسية هو الذي دفع دولتي الغرب الاوربي ، فرنسة وانجلترة للوقوف مع الدولة العثمانية . ووفقا لمعاهدة باريس ١٨٥٦ اغلق الطريق في وجه روسية الى الاستانة عبر اوروبة ، كما حرمت من دعواها كحامية للمسيحيين في الدولة العثمانية (٥٧) .

وقد اساءت الهزيمة العسكرية الى هيبة روسية كقوة حربية ، والى دورها في العلاقات الدولية ،كما وجهت ضربة قوية لمكانتها في « الشرق الارثوذكسي » ، وطرحت عدة اقتراحات لاستعادة مركز روسية المتفوق في الدولة العثمانية ، منها تأسيس جمعية فلسطينية ، واكاديمية شرقية في اوديسا لتدريب الطلاب للعمل في الشرق ، وارساليات في اثينا والاستانة ومصر . ولاقى اقتراح تجديد ارسالية

القدس تأييدا كبيرا بعد ان وضعت حرب القرم نهاية لارسالية اوسبنسكي واوصى « المجمع المقدس » تعيين الاسقف سيريل نوموف Naumov لهذه المهمة ، وهو أول مبعوث روسي للشرق العربي الارثوذكسي . وحدد وزير الخارجية غورتشاكوف Gorchakov في تقريره الى القيصر (٥٨) ، مهمة الارسالية بأنه ترسيخ النفوذ الروسي في الشرق من خلال الكنيسة ، حتى لاتتراجع مكانة روسية بنظر الارثوذكس الذين لازالوا يتطلعون الى روسية . وأكد التقرير على الدعم الذي يجب ان يقدم للعرب الارثوذكس ، وهذا يمثل تغيرا في تفكير روسية الدبلوماسي ، فقد نقلت الاهتمام من رجال الدين اليونان الى العرب الارثوذكس لتعلي هيبتها في نظرهم ولتمنع تحولهم عن العقيدة الارثوذكسية ، وكان غورتشاكوف اكثر تصميما مـن سلفه لتأكيد الوجود الروسي في القدس واقل حرصا على مراعاة الاكليركية اليونانية (٥٩) وتبنى بذلك مبدأ اوسبنسكي بجعل الافضلية في المساعدة الروسية للارثوذكس العـرب . وركزت تعليمات القيصر الى الاسقف نوموف على ضرورة الاهتمام « برجال الدين البائسين » لاستمالتهم ، ومنحهم فرصة تلقي العلم في روسية . وعهد اليـه بتوسيع نفوذه الى بطريركتي الاسكندرية وانطاكية ، وكلف بتجديد المدارس في الثانية ، واكمال بناء المدارس اليونانية والعربيـة في بطريركية القدس ، وتوزيع الكتب والهبات وانشاء مطبعـة عربية لنشر الكتب العربية ، هذا بالاضافة الى رعاية شؤون الحجاج الروس ، واقامة شعائر دينية مهيبة في الاماكن المقدسة (٦٠) وفي عام ١٨٥٨ صدر مرسوم القيصر بانشاء الارسالية ، وكانت بصورتها الثانية مظهرا جديدا في تاريخ العلاقات الروسية مع الكنيسـة الارثوذكسية الشرقية .

وكان في روسية من يعتقد بأن اعادة مكانة روسية في الشرق الارثوذكسي وتعزيزها أمر لايمكن تحقيقه بوسائل الارسالية المتواضعة ، ذلك ان هزيمة القرم لم تحبط فقط الاهداف الروسية ، بل هددت نشاط روسية في البحر الاسود ، ولتعويض هذه الخسارة عمل الدوق الاكبر كونستانتين على توسيع البحرية الروسية التجارية بانشاء « الشركة الروسية للملاحة البخارية والتجارة » . Russian Company of steam navigation and trade التي تتمتع برعاية امبراطورية وتدعمها الحكومة ماديا ، وانشئت لغرض سياسي اكثر من الربح التجاري ، ووضعت خطة لافتتاح خط ملاحي بين اوديسا والموانى السورية هدفه الرئيسي نقل الحجاج(٦١) وقبل ان تصل الارسالية الروسية الدينية الثانية الى فلسطين بعـث الدوق كونستانتين في عام ١٨٥٧ بوريس منصوروف Boris Mansurov كممثل للشركة لتقصي الاوضاع في الشرق ودراسة امكانيات العمل . وطبع منصوروف تقريره في كتاب عنوانه « الحجاج الارثوذكس الى فلسطين » ، اصبح دليلا للاراضي المقدسة

واكد تقرير منصوروف تقارير القناصل الدبلوماسيين ونتائج اوسبنسكي ، حول الحاجة الى عمل روسي اكثر فعالية ، بعد ان اصحبت سورية ـ فلسطين ارض صراع للمطامح الاوربية ، غابت عنها روسية تماما ، حيث تعمل البعثات الدبلوماسية الغربية على تقديم المساعدة المادية والحماية السياسية لمسيحي الشرق مما يدفع الارثوذكس الى التحول للكاثوليكية والبروتستانتية من اجل الحصول على المساعدات المادية والتعليم والحماية ، ويلحظ التقرير ان فلسطين تزخر بالاديرة والمستشفيات والمدارس ودور الضيافة والارساليات الكاثوليكية في حين تفتقر روسية الى مثيلاتها ، ويرى ان تعمل روسيه في المجالات التي تجني منها الدول الكبرى كثيرا من الفوائد وهي مجالات يتجلى فيها السلطة والمال والورع الديني . وعرضت شركة الملاحة تولي مهمة تقديم عدد من المتطوعين لترسيخ نفوذ روسية في الشرق بأسلوب غير سياسي وبدعم خفي من الحكومة لان التدخل الروسي المباشر في الشرق يبدو ، في نظر الشركة ، متعذرا في الوقت الراهن .

وهكذا تداخلت الدوافع السياسية والدينية والتجارية ، وتحقق لكل المهتمين بقضايا الشرق ان العمل الروسي لايزال دون المستوى المطلوب ، وان على روسيه ان تعمل على تحسين صورتها واعادة تأكيد وجودها في المشرق الارثوذكسي دون الخضوع للاكليركية اليونانية ، وان تقوم بانشاء الكنائس وارسال الاطباء وتقديم العون المادي لرجال الدين العرب .

وعادت روسية الى مسرح الاحداث في المشرق العربي منذ أواخر الخمسينات بعد ان ازداد نفوذ الدول الاوربية على حساب تراجع النفوذ الروسي ، وخلال احداث ١٨٦٠ في لبنان رست في ميناء بيروت عدة سفن روسية وجرت مراسيم دينية على ظهر احدى السفن حضرها القنصل الروسي العام في بيروت ، كما تلقت بطريركية انطاكية عقب احداث ١٨٦٠ في دمشق تعويضات مالية من السلطات العثمانية ساهم فيها بعض الافراد الروس بمن فيهم القيصرة(٦٣) ، كذلك شاركت روسية في اللجنة الدولية التي جاءت للتحقيق في احداث ١٨٦٠ وللبحث في تنظيم الاوضاع في لبنان . وقد اقترح المبعوث الروسي في اللجنة تعيين قائمقام ارثوذكسي بالاضافة الى القائمقامين الماروني والدرزي ، ومع انه لم يؤخذ بالاقتراح الروسي ، الا انه حين اقر نظام جبل لبنان المستقل ذاتيا اخذ ببعض المقترحات الروسية بشأن تمثيل الطائفة الارثوذكسية(٦٤) .

ولم يعد القناصل ووكلاء القناصل الروس منذ مطلع الستينات يمثلون وحدهم المصالح الروسية في سورية وفلسطين ، بل اصبح يمثلها ايضا ارسالية دينية رسمية ،

« ولجنة فلسطين » شبه الرسمية التي اسستها شركة كونستانتين . وقام منصوروف بوصفه مديرا اداريا لهذه اللجنة بوضع خطة لعملها المستقبلي تقضي بانشاء مراكز في القدس واماكن اخرى من الاراضي المقدسة ، ترتدي طابع العمل الخيري او مهمة رعاية الحجاج ولكنها تعمل في الوقت نفسه كمؤسسات تجارية . أو قنصلية ، ونظمت حملة لجمع الهبات التطوعيةفي روسية قوبلت بنجاح مشجع(٦٥) وقد زار الدوق كونستانتين الاراضي المقدسة في عام ١٨٦٤ ، واعقب ذلك تعيين وكيل قنصلي للجنة فلسطين في القدس ، ومن خلاله ازدادت السيطرة الروسية على رعاية الحجاج ، كما تم شراء قطعة ارض باسم رعايا عثمانيين ، خارج اسوار القدس باتجاه مدينة يافا خصصت لاقامة مجمع روسي مساحته ٣٠ هكتاراً (احتوى المجمع فيما بعد عددا من المنشات الروسية : كاتدرائية ومقرا للارسالية واخر للقنصلية بالاضافة الى مستشفى وداري ضيافة للحجاج ، وخانات وصهاريج لجمع المياه) (٦٦)

وكان نوموف ، الاسقف الروسي ، قد تابع خلال اقامته في القدس عمل الارسالية الدينية الاولى ، التعليمية والخيرية ، فانشأ مستشفى ومنح المدارس الخاصة الموجودة في بطريركيتي القدس وانطاكية بعض المعونة ، ولكنه احجم عن فتح مدارس جديدة ، مع انه اشترى ارضا قرب بيروت بهدف انشاء مدرسة عربية ـ روسية ، وارسل الهبات للاديرة والكنائس ، وتوصل الى اتفاق مع فرنسة لاصلاح قبة كنيسة القيامة ، وكان ذلك خطوة هامة نحو تهدئة انقسامات حرب القرم (٦٧) . وقد أدى هذا النشاط الى تزايد شكوك الاكليريكية اليونانية بعد أن اخذت اموال الكنائس الروسية تتجه الى ارسالية القدس (الروسية) بدلا من بطريركية القدس (اليونانية) .

وقد ظل نشاط الارسالية الدينية محدودا لعدم وجود تنسيق بينها وبين لجنة فلسطين ، الى ان عين ارشمندرت انتونين كابوشتين Antonin Kapustin رئيسا للارسالية في عام ١٨٦٩ ، ورغم انتقاص صلاحيات ونفوذ الارسالية بعد الحاقها عمليا بلجنة فلسطين التي اصبحت احدى دوائر وزارة الخارجية برئاسة منصوروف(٦٨) ، ورغم استمرار التنافس بين المؤسستين الروسيتين واستمرار الخلاف بينهما وبين البطريركية ، وهي تعقيدات اعاقت الجهد التعاوني لدعم واحياء العقيدة الارثوذكسية ، رغم ذلك فقد شهدت السنوات العشر التي سبقت تفجر الحرب الروسية التركية ١٨٧٧ نشاطا روسيا ملحوظا في فلسطين ، واعتبر كابوشتين نفسه ممثل روسية الحقيقي لانه كان يتلقى دعما مباشرا من ايجناتيف Ignativ المبعوث الروسي في الاستانة (٦٩) ، بدأ كابوشتين خطة واسعة

لشراء الاراضي في فلسطين من اجل عمليات البناء مستعينا ببعض الرعايا العثمانيين لتسجيل هذه الاراضي وخلال اقامته في القدس استكملت المشتريات خارج اسوار القدس لاقامة المجمع الروسي ، بالاضافة الى قطعة ارض في عين كارم لانشاء المستوطنة الروسية ، واخرى في بيت جالا لانشاء مدرسة داخلية للبنات الارثوذكس (وهي اول مدرسة روسية في سورية) ، كما بدأ انشاء دار ضيافة للحجاج على قطعة ارض قرب الخليل ، وتم الحصول على ممتلكات اخرى في يافا والرملة وحيفا والناصرة لانشاء دور ضيافة للحجاج(٧٠) ، هذا بالاضافة الى اقامة كنائس ضخمة منها كنيسة الصعود وبرج الحرس على جبل الزيتون وكنيسة يافا . وأولت الارسالية النشاط التعليمي في بطريركيتي القدس وانطاكية اهمية كبرى ، وبعد ازدياد التباعد والتوتر بين المواطنين والاكليركية اليونانية ، وتصاعد الرأي العربي الارثوذكسي الواعي لمشاركة اكبر في شؤون البطريركية(٧١) ، كان عليها ن تحسن وضع رجال الدين من العرب وتهتم بتعليم الاطفال بموافقة او عدم موافقة الاكليركية اليونانية ، مع التركيز على جعل مبادىء الكنيسة الارثوذكسية هي الموضوع الرئيسي للتعليم .

٥ ـ « جمعية فلسطين الامبراطورية » : خطة جديدة للعمل الروسي في الشرق:

لم يكن الاهتمام الروسي المتزايد بالشرق الارثوذكسي بوجه عام وبفلسطين بوجه خاص يوازي النشاطات الكاثوليكية والبروتستنتية ، ولم يرض ولاة الامر انفسهم في روسية بنتائج الاعمال التي انجزت ، وعزي الفشل الى معارضة السلطات العثمانية والاكليريكية اليونانية (٧٢) من جهة ، والى عدم اتفاق الرأي بين الروس انفسهم ، وتعدد الاجهزة الروسية وعدم التنسيق بينها . ويلاحظ ان الاهتمام الروسي بالشرق العربي الارثوذكسي لم يثر في روسية ذلك الاهتمام الذي كان يثيره العالم السلافي ، وحتى الاهتمام بالعرب الارثوذكس كان الى حد ما جزءاً من فكرة الجامعة السلافية التي تبحث عن تحرير جميع السلاف الارثوذكس من السيطرة الاجنبية سواء التركية العثمانية أو الكنيسة اليونانية(٧٣) . الا ان من ذهب الى الشرق من دعاة فكرة الوحدة السلافية كان يعود وفي جعبته خطة لدعم الارثوذكسية في المشرق تتلخص بانشاء جمعية خاصة تشيد المدارس والمستشفيات والكنائس وتربط نفسها بقضية العرب الارثوذكس .

وكان من بين الذين درسوا المشكلة على الطبيعة ، وابدوا عدم الرضا عن عمل الاجهزة الروسية في فلسطين ، وعدم قدرتها على كبح النشاط الكاثوليكي والبروتستنتي ، فاسيل خيتروفو Vazili Khitrovo الذي ادرك غايات الحكومة

الروسية ، ولكنه لم يكتف بمظاهرها الضئيلة ، وعليه فقد كانت السياسة الوطنية الروسية في نظر خيتروفو متعلقة بالسياسة الدينية وتابعة لها (٧٤) . قام خيتروفو بزيارات متعددة للاراضي المقدسة ، في وقت كانت روسية قد فقدت بعد مؤتمر برلين ١٨٧٨ مجال نفوذها في البلقان ومكانتها بين الشعوب السلافية ؛ ونشر دراساته التفصيلية عام ١٨٨٠. في كتاب « الارثوذكسية في الاراضي المقدسة » اعطى فيه صورة عن اوضاع السكان العرب الارثوذكس وعلاقتهم برجال الدين اليونانيين كما اعاد تقييم العمل الروسي ومقارنته بعمل الارساليات الكاثوليكية والبروتستنتية، ودعا الى تحديد مصالح روسية في فلسطين ، والى زيادة مكانتها ونشر نفوذها بين السكان المحليين (٧٦) ولم يختلف تشخيص خيتروفو عن وصف اوسبنسكي او منصوروف الا انه اقترح انشاء جهاز روسي جديد على شاكلة صندوق استكشاف فلسطين(٧٧) لدراسة الاراضي المقدسة ، ونشر المعلومات عنها في روسية بالاضافة الى رعاية شؤون الحجاج الروس في فلسطين وكل ما يتعلق بالوجود الروسي فيها . ووجد خيتروفو في الدوق الاكبر سرجي Sergei (عم القيصر) ، راعيا وحليفا . وكان الاخير قد ذهب الى الاراضي المقدسة حاجا في عام ١٨٨١ .

وصدرت موافقة وزارة الخارجية على انشاء جمعية فلسطين الارثوذكسية الامبراطورية في ايار ١٨٨٢(٧٨) برئاسة الدوق سرجي ، ومقرها سان بطرسبرغ ، باعتبارها مؤسسة ذات طابع علمي احساني محض تتمتع برعاية امبراطورية ، ولكنها غير مسؤولة امام وزارة الخارجية او المجمع المقدس ، وفتحت عضوية الجمعية لجمع المهتمين بالاماكن المقدسة على ان يكون اعضاء الشرف فيها من العائلة الامبراطورية ، وانشىء للجمعية فروع في مدن الامبراطورية الروسية (بلغ عددها عام ١٩٠٢ ثلاثة واربعين في جميع انحاء روسية تضم ١٣٠٠ عضو) ، واعتمدت الجمعية في مواردها المالية على التبرعات والهبات وعلى مساعدة المجمع المقدس . وتولى خيتروفو سكرتيرية الجمعية حتى وفاته ١٩٠٣ ، وبأمر من القيصر نقلت الى المؤسسة الجديدة كل مهام وممتلكات « لجنة فلسطين » ، ومنذ عام ١٨٩٥ امتدت أعمال الجمعية الى سائر انحاء سورية مع احتفاظها باسمها الاصلي . وطبقا لنظام الجمعية حددت اغراضها في جمع المعلومات المتعلقة بالاماكن المقدسة في الشرق ودراستها ونشرها في روسية ورعاية الحجاج، وانشاء المدارس والمستشفيات ودور الضيافة ومنح المساعدات المادية للسكان المحليين وللكنائس ولرجال الدين ، ونصت المادة التاسعة من النظام على ان الجمعية سوف تنسق نشاطاتها وفق توجيهات الارسالية والقنصلية الروسيتين في القدس .

ولم تكن هذه الاهداف جديدة سوى في تركيزها على الدراسة العلمية للاراضي

المقدسة ، وكان ذلك بدافع منافسة المؤسسات الكاثوليكية والبروتستنتية ، واستطاعت الجمعية الروسية مجاراة عمل « صندوق استكشاف فلسطين » باجراء الحفريات الاثرية ، وجالت بعثاتها العلمية في جميع انحاء سورية وفلسطين للكشف عن الاثار المسيحية والبيزنطية ، كما اجرت دراسات عديدة للابنية الاثرية وللمواقع القديمة وللمخطوطات ، ونشرت خلاصة اعمالها في مجموعة بلغت ثلاثة وستين مجلدا من المجلدات العلمية الجادة باسم مجموعة فلسطين الارثوذكسية Provoslavng Palestinski Sbornik (٧٩) ، وهي تشمل مصادر اولية عن الاراضي المقدسة ومعالمها الدينية خلال فترة الحكم البيزنطي والعهد الاسلامي ، كما تشمل مذكرات الحجاج الروس واليونان والرحالة الذين زاروا المنطقة . مع مقالات حول النشاط الروسي المبكر في المنطقة ، وتعد المجموعة من اكثر المصادر دقة في تحليل جوانب النشاط الروسي في الاراضي المقدسة . وبدات الجمعية منذ ١٨٨٥ باصدار دورية لتغطية جميع نشاطاتها بما فيها التقارير السنوية عن ميزانية الجمعية والاحصاءات الكاملة لاعداد الحجاج ومرضى المستشفيات والطلاب والمدارس ومقالات عن المشاكل التي كانت تواجهها الجمعية ، وجمعت اعدادالدورية في مجموعة اخرى بعنوان : Soobschchenia Imperatoskogo Provoslavnogo Pakistnkogo وتشكل المجموعتان المصدر الرئيسي لجميع اوجه نشاط روسية القيصرية في سورية ولبنان(٨٠) وقد تم تحت اشراف الجمعية اصدار تقارير واخبار مبسطة ومرفقة بالصور والايضاحات لنشرها على مستوى شعبي ، بالاضافة الى كتب « مرشدة » للحجاج مع صور وشروح . وكان هدف المطبوعات الشعبية نشر المعلومات الموثقة عن الاراضي المقدسة وحث الاتقياء على التبرع . ولا شك ان عمل الجمعية العلمي كان امرا يدعو للتقدير ، الا انه لم يعرف كثيرا خارج روسية بسبب عائق اللغة .

وقد ابدت الجمعية اهتماما بشؤون الحجاج ورعايتهم واستضافتهم ، وكان عددهم السنوي قد بلغ ٣٠٠٠ زائر عام ١٨٨٠ ، وفي نهاية القرن قارب العدد ٩٠٠٠ . ويعود سبب الزيادة الى جهود الجمعية لدى شركات النقل الحديدية والبخارية لتخفيف اجور النقل(٨١) . وكان وكلاء الجمعية الروس يتولون رعاية شؤون الحجاج المادية منذ وصولهم الى يافا ، وخلال اقامتهم في فلسطين ، في حين كانت الارسالية الدينية تتولى رعايتهم الروحية . وشملت الرعاية اقامة دور الضيافة ، وتأمين الخدمات الطبية ، ولهذا الغرض اقيم مستشفى في القدس ، ومستوصفات في المدن الاخرى التي توجد فيها دور ضيافة للحجاج ، وشملت الخدمات الطبية المجانية الطلاب في المدارس الروسية والمواطنين الارثوذكس(٨٢) .

وجاءت نشاطات الجمعية من اجل « دعم العقيدة الارثوذكسية » مكملة

لعمل الارسالية الثانية وكانت تشمل بناء عدد من الكنائس وتجديد غيرها (اكنيسة الجثمانية على منحدرات جبل الزيتون) وهي عملية بدأها نوموف وازدهرت خلال اقامة كابوشتين وكلاهما كان يتلقى هبات خاصة لشراء الاراضي وانشاء الكنائس والاديرة والمدارس(٨٣) . وبارك البطاركة « اليونان » ما قامت به « الجمعية » لاظهار اهتمامهم بمكانة وهيبة الكنيسة الارثوذكسية .

الا ان مساندة « الجمعية » لمحاولات رجال الدين العرب من اجل التحرر من سيطرة الاكليريكية اليونانية ، لاقى مقاومة اعنف ، ذلك ان شكوك الاخيرة كانت في ازدياد منذ عهد الارسالية الاولى تخوفا من دوافع روسية السياسية ، واستياء من الدعم الروسي المعنوي والمادي للحركة الارثوذكسية في مقاومتها للسيطرة اليونانية وفي سعيها لاستعادة الكنيسة الارثوذكسية صبغتها الوطنية(٨٤) ، وزاد في استياء الاكليريكية اليونانية تناقص دخلها السابق من رعاية الحجاج الروس ، ورفض الروس ارسال الاموال الى المدارس والكنائس من خلال البطريركية ، رغم أن البطريركية ظلت تعتمد على مصادر روسية مادية اخرى .

وفي الواقع لم يكن هدف روسية انشاء كنيسة روسية في سورية وفلسطين خارج الكنيسة المحلية ، او الاستيلاء على البطريركية في القدس وانطاكية ، بل كان هدفها تشجيع محاولات الاغلبية الارثوذكسية العربية للتخلص من الرياسة الروحية اليونانية ، واستبدالها بعناصر وطنية ، وهي حركة كانت دليلا واضحا على شعور قومي متنام . ولم تعد تكتفي بتنازلات طفيفة بل كان هدفها النهائي تعريب كامل للكنيسة . وكان مقدرا لهذه الحركة ان تحدث ان عاجلا او اجلا بسبب جهل وتعسف هذه الرياسة وتخليها عن مسؤوليتها الرعوية ورفضها تقديم اي تنازل يمس بتفوقها وسيطرتها (٨٥) ، وجاءت جهود روسية لتجعل الخلاف بين العرب والاكليريكية اليونانية نزاعا محتما ومحددا ، وخاصة لدى الجيل الارثوذكسي الناشىء الذي شعر بمرارة الوضع المؤسف للطائفة الارثوذكسية وادرك فساد الهيئة الاكليريكية التي تسيطر عليها ، واستخف برياستها الروحية وطالب باصلاح جذري للاوضاع(٨٦) ومع ان محاولات نزع بطريركية القدس لم يكتب لها النجاح نظرا لعنف المعارضة(٨٧) اليونانية ، فقد تم انتخاب بطريرك يوناني له ميول روسية ، وهو نيكوديموس Nicodemos وكان قبل انتخابه ممثلا عن مجمع القدس في روسية ، وتشير المنشآت الضخمة الروسية من كنائس واديرة ودور ضيافة الى ان البطريرك لم يعد قادرا على الاستغناء عن المساعدة الروسية(٨٨) .

ولم يكن صدفة انه بعد ثلاث سنوات على نشاط جمعية فلسطين الارثوذكسية

الامبراطورية في سورية تم انتخاب رجل دين عربي لبطريركية انطاكية خلفا للبطريرك اليوناني بعد وفاته ١٨٩٩ ، وهو أول عربي يشغل كرسي البطريركية في التاريخ الحديث . وكان النفوذ الروسي وراء هذه الانتخابات (٨٩) واكدت شكوك الاكليريكية اليونانية في خطط روسية ضد التفوق اليوناني في البطريركيات الشرقية . ورغم استقالة الاساقفة اليونان في مجمع البطريركية ورفض البطاركة الثلاثة انتخابه طبقا للاعراف المتبعة ، فقد ادار بطريرك انطاكية العربي (ملاتيوس دوماني) في دمشق امورابرشيته بحرية معتمداً على مساندة جمعية فلسطين والقنصل الروسي . وقد ظل الدعم الروسي للمطالب العربية حتى عام ١٩١٤ وكان عاملا هاما في دفع الحركة الارثوذكسية الوطنية ، الا ان بعض الروس قد اقلقهم الاتجاه العنيف الذي اتخذته الحركة بعد اعلان الدستور العثماني ١٩٠٨ حين تجاوزت المطالب العربية مسألة المشاركة الاوسع في شؤون البطريركية الى استعادة الحقوق القومية التي اغتصبها اليونان(٩٠) . وقد دفع الدعم الروسي للحركة الارثوذكسية الوطنية ، الاكليريكية اليونانية ، للتقرب من ممثلي بريطانية في المنطقة من اجل التدخل لدى الباب العالي لوقف انتشار الروس في سورية ـ فلسطين(٩١) .

وبسبب معارضة الاكليريكية اليونانية لنشاط جمعية فلسطين في المجال الديني ، انصرفت الى حقل التعليم من اجل تقوية العقيدة الارثوذكسية لدى الناشئين ، وكانت روسية قد طرقت ميدان التعليم في وقت متأخر لمواجهة نشاط الارساليات البروتستنتية والكاثوليكية التربوي ، وبعد ان توجه اكثير من ابناء الطائفة الارثوذكسية الى مدارس تلك الارساليات للاستفادة من الفرص التعليمية التي تقدمها . ويلاحظ انه منذ اربعينات القرن الماضي كانت اعداد مدارس الكنيسة الارثوذكسية الابتدائية في ازدياد في المدن الرئيسية في سورية وفلسطين ، كما انتشرت المدارس الارثوذكسية في القرى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وجميعها كانت تتلقى مساعدات روسية دون اشراف فعلي(٩٢) ، وتمتعت بموافقة البطريركية ورعايتها في القدس وانطاكية ، واعتمدت على كوادر محلية ، وخاصة بعض الشبان الارثوذكس الذين ذهبوا الى روسية قبل منتصف القرن للبحث عن الثروة او العلم(٩٣) .

وقد دفع نجاح التجارب السابقة ، وازدياد نشاط الارساليات الاجنبية ، « جمعية فلسطين » الى طرق مجال التعليم ، ولم يقتصر الامر على منح المدارس الارثوذكسية المحلية الدعم المالي بل تجاوزه الى انشاء المدارس الابتدائية التي عمل فيها معلمون روس او معلمون من العرب الارثوذكس تدرب معظمهم في روسية ، واستطاعت الجمعية رغم كل العوائق تطوير نظام تعليمي للعرب الارثوذكس بدأ في

فلسطين (وخاصة في منطقة الجليل) ، ثم امتد الى خارج الاراضي المقدسة بعد عام ١٨٩٥ وتولت الجمعيــة تمويل وادارة مدارس بطريركية انطاكية (في دمشق وحمص وحماة وطرابلس واللاذقية) ،وبلغ عدد المدارس الروسية في عام ١٩١٣ ، مايقرب من ١٠٠ مدرسة فيها مايقاب ١٢٫٠٠٠ طالب وطالبة (٩٤) ومعظم تلك المدارس في سورية ولبنان ، اما في فلسطين فلم يتجاوز عددها ٢٥ مدرسة منها اربع في منطقة القدس (٩٥) . وجميع المدارس مجانية ابتدائية عدا مدرستين الاولى مدرسة البنات الداخليــة في بيت جالا ، ومدرسة البنين في الناصرة ، واصحبتا معهدين لتدريب المعلمين والمعلمات . وقد عهد خيتروفو(عقل الجمعية وروحها المحــركة) الى اسكندر كزما .. مدير مدرسة الناصرة للبنين (٠وهــو دمشقي درس في اكاديمية موسكو اللاهوتية) ، عهد اليه بمهمة الاشراف على المدارس الارثوذكسية ، وكان يتبع مباشرة القنصل العام في بيروت ويساعده مفتشان روسيان الاول مركزه طرابلس للاشراف على مدارس المنطقة الشمالية واخر في دمشق للاشرف على مدارس المنطقة الجنوبية . واعترفت الحكومة العثمانية عام ١٩٠٢ بالمدارس الروسية (٩٦) .

واستطاعت الجمعية ، غم حداثة عهدها في ميدان التعليم ، ان تجاري المؤسسات البروتستنتية والكاثوليكية وان تتفوق عليها في مدرستي تدريب المعلمين،واستمالت ابناء الطائفة الارثوذكسية ، وانسحب كثير من الطلبــة الارثوذكس مــن المدارس الكاثوليكية والبروتستنتية للالتحاق بالمدارس الارثوذكسية الجديدة (٩٧) ، وشعر الروس بوجه عام بحماس اولياء الامور للتعليم (٩٨) ، وقد شرح احد خريجي المدارس الروسية ، وهو اسعد داغر (٩٩) ، العوامل التي مكنت المدارس الروسية من الانتشار ومنها قدرة ونفوذ« جمعية فلسطين الامبراطورية » نظرا لانها تتمتع برعايةامبراطورية، ومجانية التعليم بالقياس الى الارساليات الانجايكية والكاثوليكية ، وهو امر مغر للاهالي بارسال أولادهم تخلصا من نفقات التعايم واثمان الكتب . يضاف الى ذلك توفير تربية دينية تقليدية للناشئة تمكنهم من التعرف على اسس المذهب الارثوذكسي ، وهــو الامر الذي كان يوافق ميول السواد الاعظم من ابناء الطائفــة الارثوذكسية الذين كانوا هدفا الجمعيات الاجنبية ، كذلك فقد سنت الجمعية لمدارسها قوانين غاية في الدقة روعيت فيها صحة الطلاب الجسدية ونشاطهم العقلي .

واعترضت تطبيق المشروع الروسي التربوي عدة عقبات اذ لم تكن الجمعية بمواردها المالية قادرة على تلبية الحاجة الفعلية في البطريركية، ولم تستطع انشاء مدارس تدريب في سورية ولبنان ، عدا معهدي الناصرة وبيت جالا ، لتخريج العدد الكافي من المؤهلين لمواجهة حاجات التوسع في المدارس خارج فلسطين ، كذلك لم

تستطع انشاء مدارس ثانوية لاستيعاب الطلاب بعد انتهاء المرحلة الابتدائية ، ولم تضع خطة لانشاء كلية جامعة في بيروت على شاكلة الكلية البروتستنتية واليسوعية(١٠٠). وكذلك فقد عانت مدارس الجمعية من نقص الكوادر الفلمية ، ولم يتوفر عدد كاف من المدرسين الروس الراغبين بالعمل خارج بلادهم ، او من المدرسين العرب ذوي الكفاءة . هذا بالاضافة الى اختلاف الغاية من العمل التربوي لدى الجهات الروسية المسؤولة : ففي حين كانت « الجمعية تنتظر من اعمالها التربوية نتائج دينية وتهتم بسلامة العقيدة الارثوذكسية وتعليم اللغة الروسية ، كان ارباب السياسة الروسية يرجون منها نتائج سياسية ، ويرون في المدارس الروسية ادوات لنشر النفوذ الروسي(١٠١) . ولم ترق لبعض موظفي وزارة الخارجية الروسية الروح التقليدية التي تبنتها الجمعية في التعليم ، وطالبوا بتغيير وتطوير المناهج بشكل يتلاءم مع تبدل ظروف الحياة . وأيد تلك المطالب العديد من اولياء امور الطلاب في سورية فلسطين ، وهدفت تلك المطالب الى ادخال « العلوم المفيدة » واللغتين الانجليزية والفرنسية الى جانب تعليم اللغة الروسية والمواد الدينية ، اعتقادا بان هذا التغيير يساعد على ايجاد فرص عمل افضل (١٠٢) .

وبسبب عجز الجمعية المالي ، قبلت مساعدة وزارة الخارجية واشرافها (١٠٣) وقبلت ان تغير مناهجها التعليمية (١٠٤) . وتقدمت بمنهاج جديد يتم فيه تعليم مواد غير تقليدية والاقلال من الاهتمام باللغة الروسية والمواد الدينية ، مع اختيار احدى اللغتين الانجليزية او الفرنسية . ولم يكن هذا المنهاج مطابقا للاهداف الاولى لجمعية فلسطين الارثوذكسية (١٠٥) ، وكانت الجمعية على وشك الاخذ بالاراء الاصلاحية حين جاءت الحرب ووضعت حدا لنشاطها (١٠٦) .

وبوجه عام ، فانه رغم المشكلات التي واجهت النشاط التربوي الروسي . فقد بذل الروس جهدهم في فلسطين مدة اربع وثلاثين سنة وفي سورية مدة تسع عشرة سنة من اجل خلق تقليد تربوي متين مستخدمين الامكانات المحددة التي توفرت لديهم ، وكان لهذا الجهد عدة نتائج .

اولا : انتشرت المعرفة باللغة والثقافة الروسيتين ، فاللغة الروسية كانت تدرس في مدارس الجمعية (وكان امرا مألوفا لدى جميع المؤسسات التعليمية الاجنبية العاملة في سورية وفلسطين ان تدرس بلغتها الخاصة) . وكانت معرفة اللغة الروسية تتيح للطلاب فرصة متابعة تعليمهم في المدارس الثانوية في الناصرة وبيت جالا ، حيث كانت معرفة اللغة الروسية شرطا اساسيا للانتساب الى هاتين المدرستين ، ومع ان عدد طلاب وطالبات المدرستين لم يكن كبيرا لكنهم ربما كانوا اكثر تأثرا من غيرهم

بالثقافة الروسية . كذلك كانت معرفة اللغة الروسية تتيح للطلاب المتفوقين فرصة تلقي المنح لمتابعة الدراسة في روسية . وقد اصبح بعض خريجي مدارس الجمعية قادرين على قراءة امهات الادب الروسي باللغة الاصلية ، وترجموا مؤلفات بوشكين وتولستوي وتشيخوف وتورغنيف وغوغول وغوركي الى العربية (١٠٧) ، وانتقل بعضهم الى روسية وساهموا في حركة الاستشراق (١٠٨) وازداد بذلك الاهتمام العربي بالحياة السياسية والادبية الروسية ازديادا ملحوظا .

ثانيا : حرصت «الجمعية» في مدارسها على ان تولي اللغة العربية اهتماما كبيرا واعتمدت في ذلك على خدمات العرب المدربين في روسية ، وعلى من لديهم خبرة في التعليم واتقان للعربية ، ومنذ نهاية القرن التاسع عشر انتجت الطابع عددا من الكتب المدرسية بالعربية في الادب واللغة(١٠٩) ، بالاضافة الى الكتب المترجمة عن الروسية ، واصبحت تراثا مشتركا بين المسلمين والمسيحيين ، (وهذا تقليد كانت تتبعه الارساليات الاجنبية الاخرى في المدارس التي ترعاها بالاضافة الى ادبها الديني الخاص) . ومع انه لايوجد دليل مقنع على ان الروس قد استخدموا المدارس لاثارة الوعي القومي العربي ضد الاكليركية اليونانية او ضد السلطات العثمانية ، الا ان المدارس الروسية كان لها تأثير على اليقظة القومية بمعنى اخر هو التزامها بتدرس اللغة العربية والادب العربي ، وخريجو تلك المدارس هم الذين تولوا بعد الحرب تدريس العربية في المدارس وخاصة في منطقة الانتداب (١١٠) البريطاني .

ثالثا : كان من نتائج العمل التربوي الروسي ان خلق شعورا بالود نحو روسية لدى عدد من العرب الارثوذكس وغرس في نفوسهم احتراما لحضارتها .

وقد تجلى هذا الموقف المتعاطف بعد هزيمة روسية في حربها مع اليابان ١٩٠٤ ــ ١٩٠٥ . ومع ان الهزيمة التي الحقتها دولة اسيوية بدولة اوروبية كان لها انعكاساتها في العالم المشرقي بوجه عام ، وفي المشرق العربي بوجه خاص ، لانها ولدت الثقة بامكانية التخلص من السيطرة الاجنبية (١١١) . الا ان العرب الارثوذكس نظروا الى الهزيمة الروسية من زاوية اخرى ، باعتبار ان روسية كانت الحامية الكبرى للارثوذكسية . ولكن تعاطف العرب الارثوذكس مع روسية امتزج بشعور الاعجاب بالنصر الياباني على دولة اوروبية كبرى ، ولم ينف الشعور الاول وجود الشعور الثاني (١١٢) . وحاول بعض الكتاب العرب الارثوذكس في سورية البحث عن اسباب الهزيمة الروسية وعزوها الى الفساد والطغيان ورحبوا بثورة ١٩٠٥ التي رأوا فيها ثورة فرنسية اخرى بعد قرون طويلة من الديكتاتورية والاضطهاد (١١٤) .

وبعد مرور ربع قرن على عمل « الجمعية » في الشرق العربي ، لخصت رسالة القيصر الموجهة الى الجمعية بمناسبة الاحتفال بيوبيلها الفضي ، منجزات الجمعية بالارقام المجردة : فممتلكات الجمعية قدرت بمليوني (روبل) ، وهي تشمل ثماني دور ضيافة للحجاج في مراكز مختلفة قادرة على استيعاب عشرة آلاف حاج ، واربع كنائس ، ومستشفى في القدس وست مستوصفات في اماكن اخرى ، ومايزيد عن مائة مدرسة تضم حوالي ١٢٫٠٠٠ طالب وطالبة ، وجميع الممتلكات الروسية هي في فلسطين ، عدا المدارس ، فأغلبيتهـا في سورية ولبنان (١١٥) .

وقد اثارت نشاطات الجمعية مخاوف الارساليات الكاثوليكية والبروتستنتية ، واتهم الفرنسيون الجمعية بانها تخطط للاستيلاء على بطريركتي القدس وانطاكية واغراق الاراضي المقدسة بالرهبان والروبلات (١١٦) ، وكتب احد الاباء اليسوعيين في عام ١٨٩٨ (١١٧) « ان موظفي روسيه يعملون عملهم من مدة طويلة ، بين الارثوذكس حتى يمكن ان نعتبر اليوم انهم فازوا بالنصر ، وها ان قيصر روسية كان ان يصبح الها في نظر روم سورية » . وزاد نشاط الجمعية وتوسعها التدريجي في سورية ولبنان من حذر ويقظة الهيئات الدبلوماسية الانجليزية العاملة في الشرق ، واحتوت تقاريرها من القدس ودمشق وبيروت والاستانة تفصيلات ووقائع واحصاءات دقيقة عن عمل الجمعية (١١٨) ، ووجد المراقبون الانجليز في الشرق بوجه عام ، ان جهود روسيه لدعم ورعاية الكنيسة الارثوذكسية قد منحها تفوقا سياسيا قد يدفعها للمطالبة بحماية الاماكن المقدسة ، خاصة بعد ان بدأ النفوذ البريطاني بالتراجع (١٩٩) . وخشي هؤلاء المراقبون ان تصبح انجلترة خارج التنافس الروسي الفرنسي في المنطقة ، بعد ان ازداد عدد المؤسسات الدينية والخيرية والتعليمية الخاصة بالجمعيات الروسية والفرنسية (١٢٠) .

٦ ـ تطورات اخيرة في علاقات روسية القيصرية بالمشرق العربي .

ادت محاولة المانية لاثبات وجودها على البوسفور منذ نهاية القرن التاسع عشر الى احتمال اثاره الصراع على النفوذ في المشرق العثماني بين الدول الاوروبية التي كانت تدعي لها حقوقا تقليدية في المنطقة (١٢١) ، وعارضت روسية مشروع انشاء خط حديد بغداد ، وادعت ان أي امتداد لخط اناضوليا نحو سورية سوف يتعارض مع تطلع روسيه للوصول الى الاسكندرية عبر ارمينيا ، وهو ما يتيح للبضائع الروسية امكانية الوصول طوال السنة الى ميناء على بحر دافىء (١٢٢) . ووقفت انجلترة في وجه المزاحمة الروسية في التجارة والمواصلات بعد ان افتتحت شركة الملاحة

والتجارة الروسية خطا ملاحيا منتظما بين اوديسا وموانى الخليج العربي ، ووصلت (كورنيلوف) اول سفينة للشركة الى البصرة عام ١٩٠١ (١٢٣) .

ولكن ازدياد النفوذ الالماني ، اقتصاديا ودبلوماسيا ، في الدولة العثمانية كان احد العوامل التي ادت الى تغير السياسة التقليدية للبلدين ، أي انجلترة وروسية ، تجاه بعضهما ، لان هذا النفوذ اعتبر تهديدا لمصالحهما في الشرق ، وتم بذلك عقد الاتفاق الروسي الانجليزي ١٩٠٧ ، ثم جاءت التطورات التالية حين نجحت المانية في جر الدولة العثمانية الى الحرب في تشرين ثاني ١٩١٤ ضد دول الحلفاء واغلقت بذلك طريق امدادهم الرئيسي نحو روسية ، التي اصبحت بالتالي حليفة لانجلترة ضد الدولة العثمانية والمانية معا(١٢٤) . واصبح الوصول الحر الى البحر المتوسط احد العوامل البارزة التي دفعت روسيه لدخول الحرب .

وقد تحققت انجلترة من اهمية المضائق بالنسبة لروسية ووعدت بتقرير مصيرها وفقا لمصالح روسية ويمثل الاتفاق السري في ٤ آذار ـ ١٠ نيسان ١٩١٥ بين دول الحلفاء انقلابا جذريا للسياسة الانجلو فرنسية التقليدية تجاه روسيه فقد قبلتا دعاوي روسية التي قدمها وزير الخارجية سازونوف Sazonov الى السفيرين الانجليزي والفرنسي في روسية وتتلخص هذه الدعاوى بالحاق الاستانه وشواطىء البوسفور والدردنيل وبحر مرمرة (١٢٥) . وقبل وزير الخارجية الروسي بدعاوى فرنسة في سورية بحجة ان ماتدعيه الاخيرة من مصالح تقليدية فيها هي اقوى من مصالح روسية ، الا انه نظرا لارتباطات روسية الروحية بالاماكن المقدسة ، لم يكن سازونوف على استعداد لتسليم الاشراف عليها لفرنسة(١٢٦) . ووسعت اتفاقية سايكس ـ بيكو في ايار ١٩١٦ شروط التفاهم الفرنسي الانجليزي الروسي الذي تم التوصل له ربيع ١٩١٥ ، وقد نصت الاتفاقية على اقتسام المشرق العربي (الاقاليم الاسوية من الدولة العثمانية ولم تتمسك بأي جزء من المشرق العربي . وهكذا اوشكت الحكومة فلسطين (وهو النظام الذي قبلته روسيه) ، وخصت روسيه بالاقاليم التركية من الدولة العثمانية عدا الجزيرة العربية) بين فرنسة وانجلترة واقامة نظام دولي لمعظم القيصرية على الخروج من الحرب بمكتسبات اقليمية في الدولة العثمانية وكادت تحقق اهدافها التقليدية بالاستيلاء على المضائق والوصول الحر الى المتوسط ، وتردد الحديث في روسية عن احتمال القيام بالمراسيم الارثوذكسية في سانتا صوفيا (١٢٧). وكشفت حكومة البولشفيك في بتروغراد الوثائق السرية لاتفاقات الحكومة القيصرية واعلنت تخليها عن كل الدعاوي الاقليمية للحكومة السابقة ، وكان امام الحكومة الجديدة مشاكل اكثر الحاحا من احتلال الاستانة ، كذلك لم تشغلها مسألة الاماكن المقدسة .

وكانت قضايا الشرق ونضال التحرر الوطني لشعوبه قد اثارت اهتمام لينين حتى قبل الثورة (١٢٨) .

خاتمـة :

تركزت الاهداف الروسية السياسية لمدة طويلة على الاستانة والمضائق . ولكن منذ اربعينيات القرن التاسع عشر قدمت مناطق الشرق العربي ، وخاصة سورية وفلسطين ، مناسبة امام الدبلوماسية الروسية والكنيسة الارثوذكسية الروسية لارساء نوع من الوجود الروسي الارثوذكسي في الشرق . ولقد اعتقد موجهو السياسة الخارجية في روسيه القيصرية انه بذلك يمكن دعم مكانة روسية كدولة كبرى ، واعتمدوا على الشعور الديني التقليدي لدى الشعب الروسي ، الذي كان يمجد رسالة روسية المسيحية في العالم الارثوذكسي بوجه عام (١٢٩) ، كما ان رجال الكنيسة الروس اعتقدوا ان نشاطهم في سورية وفلسطين يدعم العقيدة الارثوذكسية بين العرب ويوقف التحول نحو الكاثوليكية او البروتستنتية ، ويواجه نشاط الارساليات الاجنبية للطائفتين . وهكذا كان الاهتمام الروسي بالمشرق العربي يمثل الاهتمام بالعقيدة الارثوذكسية من جهة ومن جهة اخرى يمثل المصالح الروسية في شرقي المتوسط (١٣٠) .

وقد أدت محاولة روسية لارساء هذا الوجود الروسي الارثوذكسي الى نتيجتين: النتيجة الاولى في تأثيرها على العرب الارثوذكس الذين تطلعوا الى روسية وتعلقوا بها باعتبارها الدولة الارثوذكسية الكبرى ، وليس من اجل المساعدة المادية فقط ، واقيم نوع من الصلة الروحية والثقافية بين روسيه القيصرية والعرب الارثوذكس ، دون ان يعني ذلك الترحيب او الرغبة بالحماية الروسية . وقد ظل اهتمام روسية بالعرب الارثوذكس احد مظاهر الدبلوماسية الدولية (١٣١) ، ولم تكن على استعداد كدولة كبرى ، لوضع مصالح هؤلاء فوق مصالحها القومية (١٣٢) . كذلك لم يكن اهتمام رجال الكنيسة الروس بالعرب الارثوذكس لكونهم عربا بل بصفتهم ارثوذكس ، وحتى اولئك الذين تعاطفوا مع مساعي الكنائس الشرقية للتخلص من سيطرة رجال الدين اليونان لم تكن لهم معرفة كافية بالعرب (١٣٣) .

النتيجة الثانية : انها عززت الى حد ما مكانة روسية في منطقة الشرق العربي ودخلت بذلك اكبر دولة ارثوذكسية في صراع مع الدول الاوروبية الاخرى . ومع ان محاولة روسية لاثبات جودها كانت ضئيلة بالقياس لمحالات الدول الاخرى ،

واقتصرت على النشاط التعليمي ورعاية الحجاج ، وكان ينقصها وحدة الرأي والهدف بين الدبلوماسيين ورجال الكنيسة ، وتم الكثير من اعمالها بمبادرات فردية ، فقد أقلق ازدياد النشاط الروسي كلا من فرنسة وانجلترة ، واعتبرت روسية منذ اواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين منافسا خطرا لهما في سورية وفلسطين ، وتوصلت بعض الافتراضات الخاطئة الى ان نشاط الجمعية الامبراطورية هو مقدمة للسيطرة السياسية ، ان لم يكن للاحتلال التام . واتجه الدبلوماسيون الانجليز الى المبالغة حول المغزى السياسي للتحركات الروسية في المجالين الديني والتعليمي(١٣٤) . الا ان المفاوضات التي تمت بين انجلترة وفرنسة وروسية بعد نشوب الحرب لتوزيع مناطق النفوذ ، او ماسمي بالدعاوي الاقليمية في الدولة العثمانية ، هي دليل واضح على ان المخاوف التي صورت قبل الحرب عن الاطماع الروسية في الشرق العربي كانت مبالغا فيها . واثبتت ان الاهتمام الروسي بالارثوذكسية في سورية وفلسطين لم يترجم الى محاولة « للضم » السياسي . فقد سمحت روسية لحليفتها بالتصرف بمصير سورية ولبنان ، واكتفت بالنسبة لفلسطين بوضعها تحت ادارة دولية ، وتخلت روسية القيصرية عن حماسها العاطفي للعقيدة الارثوذكسية مقابل تحقيق اغراض سياسة في المضائق والاستانة .

★ ★ ★

الحواشي :

(١) Tibawi, A. L., Russian Cultural penetration of syria - Palestine in the ninteenth century, royal **Central Asian Journal**, vol. 53, 1966, (part I), P. 166.

(٢) Kliemann, A. S., **soviet Russia and the Middle East**, studies in International affairs, John Hopkins university, 1970, P. 27.

(٣) Spector, I., **The soviet union and the Moslem world, 1917-1956**. washington, university of washington press, N. D., P. 2

(٤) نجيب عزوري ، يقظة الامة العربية ، ص٨٢ - ص ٨٥ تعريب احمد بو ملحم بيروت ١٩٧٩ عن كتاب ،

Azuri, N., **Le reveil de la nation Arabe**, Paris 1905, N. D., P. 2.

(٥) Kliemann, P. 31.

(٦) كانت الكنيسة الارثوذكسية منذ بداية نشاتها، وقبل انفصالها عن كنيسة روما في القرن الحادي عشر ، تنقسم الى اربعة بطريركيات : القسطنطينية ، الاسكندرية ، انطاكية والقدس ، واعتبرت جميعها مستقلة ومتساوية في المرتبة . الا ان بطريركية القسطنطينية بفضل موقعهاكمركز للامبراطورية البيزنطية ، فاقت غيرها بالسلطة والمكانة ، وكان جميع رجال الدين فيها يونانيين وقد دعيت بالبطريركية « المسكونية » أي العالمية لانها « تملك حق السيطرة الدينية والقيادة على الثلاث الاخرى »وتمتد سلطتها على الكنائس ذات الادارة الذاتية في الصرب واليونان ورومانية وروسية . وتمتد سلطة بطريركية انطاكية على كل سورية والعراق (ومقر البطريرك في دمشق) ، وتشرف بطريركية القدس على فلسطين حتى حدودها الطبيعية وتتبع مصر باكملها بطريركية الاسكندرية . وينتخب البطاركة من قبل المجامع المحلية المؤلفة من كبار رجال الدين ووجهاء الابرشية ويثبتون من قبل البطاركة الاخرين ، اما البطريرك المسكوني فينتخب من قبل مجمع القسطنطينية بالاضافة الى البطريركيات الاخرى .
عزوري ، ص ٨٦ ، وايضا مجلة المشرق ،مجلد ١١ ، ١٩٠٨ ص ٢٢٣ مقال الكنيسة الشرقية الارثوذكسية للاب فرنيس تورنبيز اليسوعي .

(٧) لن يعالج هذا البحث توسع النفوذ الروسي لدى مسيحيي البلقان الذين تربطهم بسكان روسيه أواصر العرق والدين .

(٨) Tibawi, (Part I) P. 174.

(٨مكرر) الغى بطرس الاكبر فيما بعد البطريركية و جعلها تحت اشراف المجمع المقدس Synod الذي يرأسه الوكيل الاعظم يعينه القيصر وبذلك اصبحت الكنيسة احد اجهزة الدولة .

(٩) Hopwood, D., **The Russian Presence in Syria and Palestine, 1843 - 1914 : Church and Politics in the near East,** Oxford 1969 P. 10.

ويذكر نجيب عزوري في كتابه يقظة الامة العربية (المشار اليه سابقا ص ٨٣) ان قدسية روسيه في نظر رجال الدين الارثوذكس كانت في « تجسيدها للارثوذكسية ، الدين الحقيقي الذي يجب ان يهيمن على كل الارض من اجل اتمام نبوءة الانجيل عندما يتحدث عن راع واحد وقطيع واحد والقيصر الابيض ابن الشمس هو القائد المنظور لهذا الدين العالمي » .

(١٠) منح محمد الفاتح ، بعد سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ ، البطريرك المسكوني الرئاسة الدينية والمدنية لطائفة الارثوذكس (الملة) ، واصبح البطريرك المسكوني يتمتع بمركز رسمي في الدولة ، ويمارس سلطة اكبر من زملائه البطاركة في الاقاليم . عزوري ، المصدر السابق ، ص ٨٦

(١١) Hopwood, P. 4

(١٢) عزوري ، ص ٨٧ .

(١٣) المصدر نفسه ، ص ٩١ .

(١٤) Hopwood, P. 10.

(١٥) Persen, W., Russian activity in the Middle East before world war I (A research note): Report on corrent research on the Middle East; 1956, Middle East institute, washington, D. C. 1956-8, P. 39.

(١٦) مجلة المشرق ، جزء ٣٣ ، ١٩٣٥ مقال « آخر مظهر لسياسة روسية الدينية في الشرق الادنى » ، ١٨٩٥ — ١٩١٤ استنادا الى وثائق غير منشورة بقلم الكسيس بوكوليوبسكي والاب جبرائيل لوفنك اليسوعي ، ص ٥٧٤ ويذكر المقال انه في رحلة البطريرك مكاريوس ١٦٥٢ — ١٦٥٩ التي نشرت مرارا دليل على ماكانت تتحف به روسية احبار الارثوذكس من هدايا واعانات .

(١٧) Hopwood, P. 5.

(١٨) **Ibid**, P. 3.

(١٨مكرر) كانت ابرشيات انطاكية والقدس ، سواء كانت مطرانيات او اسقفيات ، تضم في منتصف القرن التاسع عشر مايزيد عن ٤٠٠,٠٠٠ من العرب الارثوذكس ، واكبر تجمع لهم في القدس والقرى التي حولها . وكان كبار رجال الدين في ابرشيات البطريركتين من اصل يوناني يجهلون اللغة العربية ، ولايبذلون جهدا لتعلمها ، وقد أبعد رجال الدين العرب عن الاعمال الهامة وكلفوا باعمال ثانوية ، بينما اقتصرت المهام المربحة والفخرية على رجال الدين اليونان ، وجمعوا ثروات طائلة بينما رزحت الابرشيات تحت الديون . عزوري ص ٨٩ .

(١٩) Hopwood P. 13.

(٢٠) عبد الكريم رافق ، العرب والعثمانيون ، دمشق ١٩٧٤ ، ص ٣٠٨ ، ٣٥٦ .

(٢١) Persen, W., The Russian Occupation of Beirut 1772 - 1774, **Royal Central Asian Journal.** July - Oct. 1955, P. 283.

(٢٢) يذكر المؤلف ان العلم الروسي رفع خلال تلك الفترة ببيروت ، كما علقت صورة الامبراطورة كاترين على بوابة المدينة الرئيسية ، وأجبر المارة على تقديم فروض الاحترام لها .
Tibawi, (Part I) P. 167.

(٢٣) Spector, P. 4
وفقا للسياسة الجديدة التي وضعها وزير الخارجية الروسي نسلرود Nesselrode تخلت روسية مرحليا عن هدف احتلال الاستانة واخراج الاتراك العثمانيين من اوروبة . وذلك لابقاء الدولة العثمانية « جارة ضعيفة تابعة » .

(٢٤) Kedourie , E. , Religion and Politics : The Diaries of Khalil sakakini, st, Antony's Papers, No.4, Middle Eastern Affairs, Oxford 1958, P. 80.

(٢٥) Stavrou, T. G., Russian interest in the levant 1843-1848, Porfirri Uspenskii and establishment of the first Russian ecclesiastical Mission in Jerusalem, Middle East Journal 1963, Vol. 17, P. 91.

(٢٦) كانت انجلترة اول دولة اوروبية تنجح في تأسيس قنصلية في القدس ١٨٣٨ ونشطت لحماية اليهود

(٢٧) شغل بازيلي منصب القنصل العام حتى ١٨٥٣ ووضع كتابه (سورية وفلسطين تحت الحكم التركي تاريخيا وسياسيا) في عام ١٨٦٢ وقدم فيه وصفا لتاريخ وثقافة البلدين واطلع غوغول خلال اقامته في بيروت ضيفا على صديقه بازيلي على مخطوط الكتاب وكتب عنه بان « الكتاب سيعرض على اوربة الشرق بشكله الحقيقي ، معارف ثرة واهتمام شديد : بونداريفسكي ، سياستان ازاء العالم العربي ، مترجم ، ص ٣٦٤

(٢٨) Stavrou, P. 91

(٢٩) Tibawi (Part I) PP. 167 - 68

(٣٠) Stavrou, P. 96.

(٣١) **Ibid,** P. 97.

(٣٢) Tibawi, (Part I). PP. 168 - 69.
نقلا من رسالتين من القنصل يونغ الى لورد بالمرستون بتاريخ ١٨٣٩/٣/١٤ و ١٨٣٩/١٠/٢١ . F. O. 78/368. ورسالة اخرى بتاريخ ١٨٤٠/١/٢٩ برقم F. O. 78/413

(٣٣) في عام ١٨٤٠ جاء بازيلي نفسه للاحتفال بعيد الفصح في القدس . وكان في مقدمة الحجاج العديد من الجنود السابقين يرتدون البستهم الرسمية واوسمتهم ، ساروا عبر الشوارع الضيقة في مدينة القدس نحو كنيسة القيامة . ويدعي القنصل البريطاني في رسالة له الى بالمرستون في ١٨٤٠/٤/٢٨ انه سمع بعض الحجاج وهم يفاخرون بان الوقت قد حان لتقع الاراضي المقدسة بيد الحكومة الروسية . F.O.78/413 Ibid, (Part I), P. 169

(٣٤) حذت روسية حذو الدول الاوربية الاخرى لتوثيق معرفتها بكل ما يتعلق بالشرق العربي من علم وحضارة ولغة ، واخذت حركة الاستشراق نهجا علميا على أثر تطبيق النظام الجامعي ١٨٠٤ وادراج اللغات السامية ومنها العربية في مناهج المعاهد العليا وكانت جامعة خاركوف هي اول جامعة اخذت في تطبيق النظام الجامعي بتدريس العربية منذ اربعينات القرن الماضي . وقد عاون على تدريس اللغة العربية في معاهد روسية بعض العرب ، كان اولهم الشيخ محمد عياد الطنطاوي ١٨١٠ ـ ١٨٦١ الذي استدعاه القيصر ١٨٤٠ للتعليم في مدرسة الالسن التابعة لوزارة الخارجية انظر نجيب العقيقي ، المستشرقون ، الجزء الثالث دار المعارف القاهرة سنة ١٩٦٩ ص ٩١٥ وما بعدها .

(٣٥) المصدر السابق ص ٩٢١ .

(٣٦) مجلة المقتبس مجلد ٧ ، جزء ٣ ، ص ١٦٢ مقال اوروبة في سورية بقلم (وطني) .

(٣٧) مجلة المشرق جزء ٢٠ ، ١٩٢٢ ص ٨٧١ مقال الارثوذكسية والانغليكانية .

(٣٨) توقفت البطريركية عن الوجود الفعلي ١٢٩١ أي منذ سقوط عكا اخر معقل صليبي .
Tibawi, Part I. P. 187

(٣٩) Stavrou, P. 97

(٤٠) منذ ان احدثت بطريركية القدس في القرن الرابع كان البطريرك ينتخب من بين افراد اخوية القبر المقدس وهي طريقة رهبانية من رجال الدين اليونان يتولون الاشراف على خدمات القبر المقدس ورعاية الحجاج ، وكان البطريرك ينتخب منها بغض النظر عن جنسه ، وبعد الفتح العربي اصبحت القاعدة انتخاب بطاركة من العرب وفي العهد العثماني منح بطريرك الاستانة المسؤولية على بطريركية القدس وجرت العادة بان يعين بطريرك يوناني للقدس تكون اقامته في مجمع البطريرك المسكوني ، ونادرا ماشاهدته القدس في بطريركيتها . Kedourie, P. 81

(٤١) Kedourie, P. 83

(٤٢) Tibawi, Prt 1, P. 170.

(٤٣) Ibid, P. 171

(٤٤) Hopwood, P., the resurrection of our Eastem brethren (Ignatev); Russian and Orthodox arab nationalism in Jerusalem in Ma'oz M., Studies on Palestine during the ottoman Period, Jerusalem 1975, PP. 399-400.

(٤٥) مجلة الهلال ج ٧ مجلد ٢٢ ، ١٩١٤ جرجي زيدان ، فلسطين تاريخها وآثارها وسائر احوالها الاجتماعية والاقتصادية والعلمية من رحلة الى البلاد ، ص ٥١٥

(٤٦) Stavrou, P. 100.

(٤٧) مجلة المقتبس مقال اوروبة في سورية ، مصدر سابق ، ص ١٩٦ .

(٤٨) خلال جولة اوسبنسكي ١٨٤٤ جرت بعض التطورات التي اثارت استياء روسية بطريقة غير مباشرة وتمثلت في محاولات الارساليات الامريكية والانجليزية تحويل الارثوذكس تدريجيا نحو البروتستنتية وقد عمدت الارسالية الامريكية في بيروت (برئاسة ايلي سميث) تحويل جماعة من الارثوذكس من سكان حاصبيا جنوب لبنان الى البروتستنتية ومنع المتوحولين نوعا من الحماية من القنصلية البريطانية في دمشق وبيروت وكذلك قام الاسقف الانغليكاني في القدس (صموئيل غوبات) بنقل جهوده الارسالية من اليهود الى الارثوذكس

Tibowi, A. L., American interest in syria 1800-1901- history of educational literary and religions work (claredon Press, oxford 1966) P.108 f.

Tibowi, Russian cultural Penetration, Ibid. P. 172

(٤٩) نقلا عن رسالة من وزير الخارجية Aberdeen الى القنصل العام في بيروت Hugh-Rose بتاريخ ١٨٤٤/٩/١٩ برقم F.O. 78/575.

(٥٠) اسد رستم ، كنيسة مدينة الله انيتوخس الثالث العظيم، بيروت دون تاريخ ، ص ١٩١ - ١٩٢ وردت في المقال المشار اليه سابقا

Tibowi, **Russian Cultural Penetration,** P. 168 .

(٥١) Stavrou, P. 104

(٥٢) نقلا عن التقارير القنصلية البريطانية في القدس ، Tibawi, **Ibid,** P. 174.

(٥٣) Stavrou, P. 101

(٥٤) Tibawi, **Ibid.** P. 173.

(٥٥) Kadourie, PP. 82 - 83

(٥٦) Stavrou, P. 104.

ورد في مذكرات اوسبنسكي قوله « لقد وجدالله مناسبا ان يجعل مني رائدا للتعليم الروحي لشعبين ارثوذكسيين هما العرب والبلغار » .

(٥٧) عزوري ص ٨٦

(٥٨) Hopwood, **The Russian Presence... Ibid,** P. 51

(٥٩) Tibawi, **Russian cultural Penetration...,** part I. P. 174

(٦٠) Hopwood, **Ibid,** P. 53

(٦١) Tibawi, **Ibid**, P. 175

نقلا عن رسالة من سان بطرسبرغ ١٨٥٨/٣/١٣ من السفير Wodehowe الى وزير الخارجية Malmesbury رقم F.O./65/516 ينقل فيها ترجمة لمقتطفات من تقرير الدوق عن ادارة الاسطول الروسي

(٦٢) Hopwood, **Ibid**, P. 58

(٦٣) Hopwood, **Ibid**, P. 68

(٦٤) Loc cit.

(٦٥) Tibawi, **Ibid**, P. 176

(٦٦) نقلا عن تقرير القنصل البريطاني ١ يناير ١٨٦١ (فن) Finn الى اللورد روسل Russel برقم F.O. 78/588 بان التكاليف المقدرة للمشروع هو مليون جنيه استرليني **Ibid**; P. 177

(٦٧) Hopwood, **Ibid**, P. 55

(٦٨) Tibawi, **Ibid** P. 177

(٦٩) Hopwood, **The Resurrection of our Eastern Brethren, Ibid**, P. 401.

(٧٠) Tibawi, **Ibid** **P.** 178

حتى عام ١٨٧٢ كان انتونين قد اشترى ١٣ موقعا في فلسطين .

(٧١) تصاعد الخلاف بين العرب الارثوذكس والاكليريكية اليونانية بعد عزل المجمع المقدس البطريرك سيريل الذي كان يؤيده العرب ويدعمه الروس ١٨٧٢ ، وبتعيين بطريرك جديد (بروكوبيوس Prokopios زاد الاستياء العربي واصبح الموقف العربي مهددا ،حتى استجابت الاستانة للمطالب العربية بوضع دستور جديد للبطريركية يعد بمنح العرب دورا اكبر في انتخاب البطريرك ، مع ذلك فقد استمر الاستياء العربي ودعم ا لقنصل الروسي الاحتجاج العربي الا ان ايجناتيف (الممثل الروسي في الاستانة) أحجم عن دعم المطالب العربية المتطرفة
Hopwood, **Ibid** PP. 401 - 404

(٧٢) المشرق ، مقال ، آخر مظهر لسياسة روسية الدينية في الشرق الادني ، مصدر سابق ، ص ٥٧٥

(٧٣) دعاة الجامعة السلافية في اوساط المجمع والحكومة في روسية هم الذين نادوا باستخدام الشعور القومي والديني لدى الشعوب السلافية الاخرى من اجل تحريرها واعتبروا ذلك حجر الزاوية لاستيلاء روسية نهائيا على الاستانة وبالتالي تجزئة الدولة العثمانية . وقد عبر دوستوفسكي عن هذه المشاعر في مقال له نشر في آذار ١٨٧٧ تحت عنوان « مرة اخرى حول موضوع الاستانة ، عاجلا أو اجلا يجب ان تكون لنا » لخص فيه الدوافع الكامنة وراء التوسع الروسي باتجاه الاستانة ، فحكام روسية بالاضافة الى الاعتبارات الاستراتيجية والاقتصادية يصعدون التوسع الروسي ، ينظر دوستوفسكي ، الى مايشبه « الرسالة » لتحقيق وحدة الارثوذكسية المسيحية ، ولم تكن الاستانة الا رمزا للتطلع نحو الاراضي المقدسة .

(٧٤) المشرق ، مقال « اخر مظهر لسياسة روسيةالدينية في الشرق الادنى » ، مصدر سابق ص ٥٧٥

(٧٥) عزوري ص ٨٦

(٧٦) Kedourie, P. 84

(٧٧) هي جمعية انجليزية اسست ١٨٦٥ باسم Palestine Exploration fund. تحت رعاية الملكة بغرض ظاهري هو الدراسة العلمية للاراضي المقدسة وكانت تخفي وراءها اطماعا سياسية .

(٧٨) في ذلك العام قامت الحكومة الروسية بالاحتجاج على الاحتلال البريطاني بمصر نظرا لان الوجود البريطاني يهدد طريقها عبر القناة نحو الشرق الاقصى ويعيق صلاتها الاقتصادية بالمشرق العربي . Hopwood, Russian Presence..., P. 96

(٧٩) Persen, P. 39

(٨٠) Ibid , P. 40

وتتوفر بعض اعداد المجموعتين في المجمع الروسي القديم في القدس (المسكوبية) وهو في الجانب المحتل من المدينة

(٨١) Tibawi, Ibid, P. 180.

(٨٢) مجلة المقتبس ، مقال « اوروبة في سورية » ص ١٦٧

(٨٣) اميل الغوري ، فلسطين عبر ستين عاما ، بيروت ١٩٧٢ ، ص ١٤

(٨٤) Tibawi, Ibid, 184.

(٨٥) Kedourie, P. 84

(٨٦) تبدو وجهة نظر هذا الجيل في مذكرات خليل السكاكيني (كذا انا يادنيا) القدس ١٩٥٦ . ولم تقتصر ثورته على رجال الدين بل على الطقوس والتقاليد البالية . Kedourie, P. 86

(٨٧) في عام ١٨٩٣ كتب سليم شحادة (ترجمان القنصلية الروسية في بيروت ومدير المدرسة الروسية فيها كتابه « لمحة تاريخية في اخوية القبر المقدس اليونانية » وهو محاولة جريئة لاثبات ان بطريركية القدس لها طابع عربي ، وقد نشر الكتاب بتشجيع روسي ومنعت البطريركية تداوله.
Hopwood, The Resurrection..., Ibid, P. 404

(٨٨) Tibawi, Ibid, P. 311.

(٨٩) في مقال مجلة المشرق « آخر مظهر لسياسة روسية الدينية في الشرق الادنى (المشار له سابقا) ص ٥٨٣ الى انه خلال ازمة البطريركية ١٨٩٨/١٨٩٩ كانت السفارة الروسية لدى الباب العالي تعضد حق الطائفة الارثوذكسية الوطنية في سورية وتضع تحت تصرف قنصل دمشق مبالغ كبيرة في سبيل مساعدة المطارنة الوطنيين في ذا له الانتخاب ، تقوم بذلك لحساب جمعية فلسطين ويشير المقال نفسه ، ص ٥٧٦ – ٥٧٧ الى ان الجمعية قامت بمنح ناظم باشا والي دمشق وسام النسر الابيض عام ١٩٠٠ ويتساءل « هل من علاقة بين هذا الوسام الكبير الممنوح الى والي دمشق ونجاح السياسة الروسية في انتخاب بطريرك عربي الاصل في ١٨٩٩) .

(٩٠) أميل الغوري ، ص ١٥ . بعد اعلان الدستور ، وجد ابناء الطائفة الارثوذكسية في بطريركيةالقدس فرصة لاستئناف النشاط والتشدد في وجوبتحقيق المطالب العربية ، وقدم البطريرك بعض التنازلات الا ان اخوية القبر المقدس قامتبعزله ، وادى ذلك الى قيام ابناء الطائفة بمظاهرات عنيفة ضد الاجانب واحتلوا دار البطريركيةوالكنائس والاديرة وفرضوا عليها اللغة العربية، ووجدت الحركة الارثوذكسية العربية تاييدا صادقا من المسلمين في القدس والاستانة باعتبارها حركة وطنية ، واضطرت السلطات العثمانية الى ايفاد لجنة تحقيق واعيد البطريرك ووعد بانشاء مجلس مختلط .

(٩١) شكا احد رجال الدين اليونان الى القنصل البريطاني في القدس مرا لتأثير الروسي فيفلسطين قائلا بأن « نهاية ذلك هو استبعاد الطبقةالدينية اليونانية حراس الاماكن المقدسة واصحاب الحق فيها واستبدال منافسيهم بهم » .
نقلا عن رسالة القنصل البريطاني مور Moore الى السفير في الاستانة White بتاريخ ١٨١٩/٤/٣ رقم F.O./195/1648 وقد وجد ممثل السفارة البريطانية في الاستانة اذار ١٨٩٩ لدى مراجعة الباب العالي ان « الضغط الروسي كان قويا الى حد يصعب مقاومته» من رسالة السفير اوكونور O'conor الىوزير الخارجية سالسبري Salisbury رقم F. O. 78/4992 Tibawi, Ibid, P. 311

(٩٢) Tibawi, Ibid, P. 181
مثال ذلك جهود كابوشتين في مجال تعليم البنات في بيت جالا .

(٩٣) من بين هؤلاء سليم نوفل وهو من دمشق وكانترجمان الارسالية الروسية الاول ١٨٤٨ وبتوجيه من بطريرك انطاكية اصبح مدرس العربية في سان بطرسبرغ ، ثم عين في وزارة الخارجية الروسية بعد حصوله على الجنسية الروسية.فيليب حتى ، تاريخ دراسة المشرقيات في اوروبة الهلال ، مجلد ٣٣ ، ١٩٢٤ - ١٩٢٥ ، ص ٤٠٨

(٩٤) مجلة المشرق مقال « اخر مظهر لسياسةروسيةالدينية في الشرق الادنى » ، (مصدر سابق) ص ٥٧٦

(٩٥) تعزى قلة عدد المدارس في فلسطين الى معارضة الاكليريكية اليونانية ، والى ان البطريركية في القدس قد سعت الى تلبية الحاجات المحلية في مجال التعليم لمواجهة النشاط الروسي .

(٩٦) مجلة المشرق . مقال « اخر مظهر لسياسة روسية الدينية في الشرق الادنى » ص ٥٧٦ -٥١٧

(٩٧) Tibawi, Ibid, P. 315
وفي حوار جرى بين مديرة مدرسة البنات الروسية في الناصرة وبين مدير المدرسة الكاثوليكية قالت : « حين لم تكن مدرستنا موجودة اينكان اطفالنا الارثوذكس ؟ ألم يكونوا في مدرستك ؟ » .

(٩٨) يصف ميخائيل نعيمة في مذكراته التي كتبها بعد خمسين عاما (سبعون ، بيروت ١٩٦٢) الترحيب بافتتاح المدرسة الروسية في قريةبسكنتا ، وكان نعيمة قد درس فيها ثم انتقل الى مدرسة الناصرة وتابع دراسته في روسيا ، في المدرسة اللاهوتية في بولتافا - اوكرانيا بين ١٩٠٦ - ١٩١١ قبل ان يهاجر الى امريكا .

(٩٩) المقتطف ، اكتوبر ١٩٠١ ، ص ٩٠١ – ٩٠٤ .

(١٠٠) Tibawi, **Ibid**, Part II, P. 318

(١٠١) المشرق ، مقال « اخر مظهر لسياسة روسية الدينية في الشرق الادنى » (مصدر سابق) ص ٥٧٦

(١٠٢) المصدر نفسه ص ٥٧٧ ، ص ٥٨١ .

(١٠٣) ادى توسع اعمال الجمعية الامبراطورية الى ازدياد تبعاتها المالية ، ففي عام ١٨٨٥ – ١٨٨٦ حين كانت النشاطات لازالت مقتصرة على فلسطين ، انفقت الجمعية ١٣٥٠٠ روبل من اجل « دعم الارثوذكسية ووصل هذا المبلغ ٦٥٠٠٠ روبل عام ١٨٩٥ – ١٨٩٦ حين بدأ توسيع النشاط في سورية ولبنان . وفي مطلع القرن العشرين عانت الجمعية من تناقص دخلها بسبب عدة ظروف اولها وفاة سكرتيرها الفعال خيتروفو ، ثم اغتيال رئيسها الدوق سرجي خلال ثورة ١٩٠٥ ، والاحداث الداخلية التي اعقبت هزيمة الحرب مع اليابان وثورة ١٩٠٥ ، وقد قدم القيصر قروضا طويلة الاجل للحفاظ على مهام الجمعية وخاصة التعليمية ، كما اخذت الجمعية تعتمد على دعم مالي حكومي منتظم ، المقتبس ، مقال اوروبة في سورية ص ١٦٨ .

(١٠٤) المشرق ، فقال « اخر مظهر لسياسة روسية الدينية في الشرق الادنى » (مصدر سابق) ص ٥٨٣ ينقل كاتب المقال تقريرا بعث به القنصل الروسي في دمشق الامير شاكوفسكي الى السفير الروسي في الاستانة في ١٩٠٩/١٢/١٨ يوجه فيه نقدا لنظريات « الجمعية » في التعليم ، ويعزو أسباب الازمة الي تواجهها المدارس الروسية الى « الجمود مدة ٢٥ سنة في عصر كل مافيه يتحرك ويتحرك بسرعة » .

(١٠٥) كان اكبر مثال على التغيرات التي ادخلت في مناهج التعليم ماحدث في مدرسة الناصرة البنين، فقد غدت مناهجها تحتوي ، بالاضافة الى التعليم الديني واللغة العربية واليونانية والروسية والتركية الرياضيات والتاريخ والجغرافيا والغناء والموسيقى والتدريب المهني والعلوم واللغتين الانجليزية والفرنسية ، ديريك هوبود ،« المجهود التعليمي الروسي في سورية من عام ١٩١٤»، بحث مقدم للمؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ، ١١/٢٧ – ١٩٧٨/١٢/٣ .

(١٠٦) بنشوب الحرب توقفت الامدادات المالية عن الجمعية ووضعت جميع مؤسساتها ومدارسها تحت اشراف عثماني ، وامرت السلطات العثمانية جميع الروس بالعودة الى مجمع القدس وسمح للقناصل والرهبان بالمغادرة ، وطبعت الجمعية اخر تقرير لها ١٩١٦ وتلاشت جميع مشاريع الجمعية بتلاشي روسية الارثوذكسية القيصرية .

(١٠٧) بونداريفسكي ، ص ٦٦ ٢

(١٠٨) من بين هؤلاء ، سليم نوفل ١٨٢٨ – ١٩٠٢ (اشير اليه سابقا) وميخائيل يوسف عطايا ١٨٥٢ – ١٩٢٤ وهو من دمشق وعلم العربية في كلية لازاريف وشارك في ترجمة منتخبات مدرسية في الادب العربي وله معجم عربي روسي ،وبندلي جوزي ١٨٧١ – ١٩٤٢ من القدس وتخصص في قازان باللغات السامية والدراسات الشرقية وتولى التدريس في معهد الرهبان ثم في جامعة قازان ثم في باكو وعده المستشرقون الروس من مراجعهم ، ومن مؤلفاته تعليم اللغة الروسية لاولاد العرب ،

وتاج العروس في معرفة لغة الروس . وكلثوم عوده التي كانت مدرسة في المدرسة الروسية في الناصرة وذهبت الى روسيا في عام ١٩١٤ ومنعتها ظروف الحرب من العودة وعملت في روسيا مع كراتشكوفسكي في دفع حركة الاستشراق الروسي . العقيقي ، المستشرقون ، مصدر سابق ، الجزء الثالث ، ص ٩١٥ وما بعدها

(١٠٩) من بين مؤلفي الكتب المدرسية كان خليل بيدس مفتش المدارس الارثوذكسية التابعةلج معية فلسطين في حمص .

(١١٠) Tibawi, **Ibid. P. 317**

(١١١) كان اوضح تعبير عن هذا الاعجاب كتاب مصطفى كامل الشمس المشرقة مقدرا جهود اليابان كبلد شرقي للتخلص من تهديد فرضه العالم الغربي ، كما ان الشاعر حافظ ابراهيم استخلص الدرس نفسه من هذه الحرب .

(١١٢) Hopwood, The Russian..., **Ibid**, PP. 125 - 127

(١١٣) من هؤلاء يعقوب صروف ، اسد رستم ، فارس الخوري ، خليل سعاده .

(١١٤) الف الكاتب الشهير امين الريحاني ملحمته المعروفة « الثورة » بتاثير من الثورة الروسية ١٩٠٥ ، بوندارفسكي ص ٢٦٦

(١١٥) Tibawi, **Ibid**, P. 320

(١١٦) Hopwood, **Ibid**, P. 121

(١١٧) هو الاب جوزيف برنيه اليسوعي وكان متصلا بارثوذكس حمص وعكار . المشرق مقال اخر مظهر لسياسة روسية الدينية (مصدر سابق)ص ٥٨٤

(١١٨) Tibawi, **Ibid**, P. 319

(١١٩) رسالة السفير البريطاني في الاستانه Salisbury ١٨٩٨/١٢/٣ برقم F.O./78/4920

(١٢٠) Tibawi, **Ibid**, P. 312

(١٢١) Spector , P. 10

(١٢٢) حول قضية سكة حديد بغداد وذيولها : ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية، بيروت ١٩٦٥ ، ص ١٩٦ - ص ٢٠٠

(١٢٣) موندارفسكي ، ص ٢٦٦

(١٢٤) Ibid, P. 11

(١٢٥) Kliemann, P. 33

(١٢٦) Hopwood, **Ibid,** P. 133

(١٢٧) **Ibid,** P. 134

(١٢٨) بونداريفسكي ص ٢٦٧ ـ ٢٦٩ وفي كتاب لينين « الامبريالية أعلى مراحل الاستعمار » جمع كل الحقائق عن المحاولات الانجليزية والالمانيةوالفرنسية للاستيلاء على الاراضي العربية وكشف عن خصائص السياسة الاستعمارية ،

(١٢٩) Stavrou, P. 91

(١٣٠) Persen, P. 39

(١٣١) Hopwood, **Ibid,** P. 217

(١٣٢) **Ibid,** P. 109

(١٣٣) **Ibid,** P. 100

(١٣٤) Tibawi, **Ibid,** P. 323

★ ★ ★

الأمير حسين بن فخر الدين المعني
حياته وآثاره

د. محمد عدنان البخيت
الجامعة الاردنية - قسم التاريخ

يلاحظ الدارس لتاريخ بلاد الشام في مطلع القرن السابع عشر الميلادي ظاهرتين متمازجتين . الاولى تتمثل بظهور القوى المحلية والموزعة في الارياف والبادية مابين جناحين متخاصمين : الجناح القيسي الذي كان بداءة بزعامة الاسرة الفزاوية في لواء عجلون ثم تحولت هذه الزعامة الى الاسرة المعنية الدرزية في الشوف ، والجناح الثاني الذي يعرف باليمنية بزعامة آل سيفا في منطقة عكار وطرابلس الشام ، تلك الاسرة التركمانية الاصل السنية المذهب ، التي عرفت بولائها المستمر للدولة العثمانية

أما الظاهرة الثانية التي تستلفت نظر الدارس فتمثلت بتفسخ القوة العسكرية النظامية العثمانية ، الموزعة في مختلف القلاع والابراج والحصون في بلاد الشام . ونتيجة لانعدام الضبط والربط ، وللظروف الاقتصادية المتردية التي تركت آثارها على أفراد تلك القوة ، فان بعض عناصرها بدأ بالهروب من الخدمة النظامية والالتحاق بقوى الحركة الجلالية الخارجة على الدولة العثمانية في بلاد الاناضول ، أو الانضمام الى زعامات الاسر المحلية لتخدم لديها بصفة مرتزقة . زيادة على ذلك ، فان الغالبية العظمى من العناصر التي لم تهرب ، انقسمت على نفسها الى فئات متناحرة ، رأى قسم منها ان يناصر الجناح اليميني ، وآثرت الفئات الاخرى ان تأخذ عى عاتقها الالتزام بالجناح القيسي .

وبالرغم من تلك الظروف السيئة المليئة بالتفسخ والعداء بين جميع القوى ، سواء العسكرية أو المحلية ، كما ذكرنا آنفا ، الا ان عدداً من المصاهرات قد تمت بين الاسرتين المتنازعتين ، الاسرة المعنية والاسرة السيفية ، وذلك في مطلع القرن السابع عشر الميلادي . ومع أن الهدف من وراء تلك المصاهرات كان سياسيا ، الا انها على ما يظهر لم تنجح في تحقيق الغاية من وراءها وهي تحسين العلاقات بينهما . فهذا زعيم الاسرة المعنية وكبيرها - الامير فخر الدين - يعقد قرانه على ابنة الامير علي بن سيفا شقيق يوسف باشا سيفا . ويثمر هذا الزواج ولدين : الاول الامير

حسين الذي ولد ، كما يذكر المؤرخ احمد بن محمد الصفدي (ت ١٠٣٤ هـ/١٦٢٤ م) في الرابع عشر من شهر ذي الحجة ختام سنة ١٠٣٠ هـ/٢٩ تشرين الاول ١٦٢١ م ، والثاني شقيقه حسن الذي كان ميلاده في ليلة السادس من شهر ربيع الثاني سنة ١٠٣٣ هـ / ٢٦ كانون الثاني ١٦٢٤ م(١) .

كان الامير فخر الدين يحاول الحصول على مناصب رفيعة لابنه الامير حسين وهو مازال طفلا في المهد . فلم يترك فرصة لتقديمه الى المسؤولين العثمانيين الا واغتنمها(٢) . وقد اثمرت هذه الجهود وعادت على الامير حسين بالنفع الذي كان يرجوه له أبوه ، ففي سنة ١٠٣١ هـ/١٦٢٢ م مر ببيروت خليل باشا(٣) (ت ١٠٣٩ ـ٤٠ هـ/١٦٢٩ ـ ٣٠ م) قائد الاسطول العثماني آنذاك « فأرسل اليه فخر الدين ولده الامير حسين وكان عمره آنذاك أقل من سنة .. وخلع عليه الوزير خليل باشا واعطاه عرضا بسنجقية عجلون وقدم اليه خدمة العرض الف غرش »(٤) . ان فخر الدين ، بلا شك ، كان يسعى في الحصول على هذا اللواء لابنه الطفل ، لتصفية الاسرة الغزاوية زعيمة الجناح القيسي لتؤول هذه الزعامة اليه .

في هذه الاثناء ورد أمر الى والي الشام باناطة سنجق عجلون بالامير احمد بن حمدان الغزاوي . ولكن الوالي الذي كان ، على الارجح ، متواطئا مع فخر الدين ماطل بتنفيذ هذا الامر ، بحجة قرب خروج قافلة الحج الشريف الى مكة المكرمة ، وان الامير احمد لن يتمكن من توفير الحماية الكافية لها ضد اية محاولة محتملة لهجوم القبائل البدوية عليها وهي في طريقها الى مكة المكرمة .

لقد استطاع الوالي بمماطلته تلك ان يكسب عنصر الزمن للامير فخر الدين ، ففي اثناء ذلك ارسل فخر الدين احد مماليكه ، المعروف باسم محمد أغا أبو شاهين، الى الحاج درويش وكيل فخر الدين « الذي أوقفه في الباب العالي لقضاء مصالحه يستعجله في الحصول على هذا الحكم ، وذلك بتقرير السنجق الى الامير حسين»(٥).

وتكللت جهود الحاج درويش بالنجاح . ففي شهر ذي الحجة ١٠٣١ هـ/ تشرين أول ١٦٢٢ م ، وصل محمد أغا أبو شاهين من الباب العالي يحمل معه حكما شريفا وخلعا سنية بسنجقية عجلون للامير حسين . ومن الطريف بالذكر ان الامير احمد الغزاوي قصد عون الامير فخر الدين ليسانده لدى العثمانيين من أجل الحصول على سنجق عجلون ، فاذا بالامير فخر الدين يفاجئه بأمر اناطة هذا السنجق بابنه الطفل حسين . « وكان جواب الامير احمد السمع والطاعة لله ولرسوله ولولي الامر ... وقال انا أولا وآخرا منك واليك وبسنجق وبغير سنجق محسوب عليك »(٦) .

لقد تكلف الامير فخر الدين في الحصول على حكم السنجق للامير حسين مبلغ عشرة آلاف قرش اضافة الى الفائدة المترتبة عليها وقدرها خمسة آلاف قرش(٧) . كما وانه كان من الطبيعي عند وصول هذا الحكم أن يخبر فخر الدين والي الشام بذلك . وهذا الامر اقتضى منه ان يدفع ايضا مبالغ اضافية ، منها ثلاثة آلاف قرش للوالي نفسه وخمسمائة اخرى لمساعده (كتخداالوالي) . وزيادة على ذلك دفع مبلغ ألف قرش للدفترار والكتبة في دمشق . ولم يكن هذا الامر ليمر دون أن يدفع مبلغ ثلاثة آلاف قرش أخرى لزعماء الانكشارية في دمشق من أمثال : الحاج كيوان وطريفي بلوكباش وغيرهم(٨) . ولم تذهب هذه المبالغ سدى ، فحال تسلم جميع هؤلاء الزعماء للمبالغ المدفوعة اليهم خرجوا لمقابلة قافلة الحاج الشريف على شكل ما يسمى « بالجردة » . وارسلوا في طلب الامير فخر الدين ليلحق بهم . فما كان منه الا أن لبى دعوتهم ، واجتمعوا مع أمير قافلة الحاج الشامي في ذاك العام عثمان بك وبأعيان الحجاج في محطة القطرانة . ومن الجدير بالذكر ان عددا من زعماء العشائر والقوى المحلية في بلاد الشام ، ومن بينهم الامير احمد بن حمدان الغزاوي نفسه ، خرجوا برفقة فخر الدين لملاقاة الحجاج(٩) .

طلب الامير فخر الدين المعني من الامير أحمد الفزاوي القيام بضبط السنجق له نيابة عن الامير حسين ، وذلك بمقابل ان يتكفل له بدفع كافة المبالغ التي انفقها في الحصول على السنجق ، مضافا اليها كلفة الجردة التي كانت تربو على ثلاثين ألف قرش في ذلك العام . ولكن الامير احمد اعتذر عن ذلك العرض . عندئذ كلف الامير فخر الدين مملوكه محمداغا أبو شاهين ، المشار اليه سابقا ، ان يكون نائبا عن الامير حسين . « ووصاه على مراعاة أهالي البلاد ومداراتهم لانهم خارجون من تحت ظلم وغلاء ولكنهم لم يعرفوا حق مراعاتهم »(١٠) .

في أعقاب انتصار الامير فخر الدين في معركة عنجر سنة ١٠٣٣ هـ/١٦٢٣ م على اعدائه من الجناح اليمني ، ومن يساندهم من انكشارية دمشق الشام ، قام والي دمشق الشام ، رغم مشاركته في هذه المعركة ضد الامير فخر الدين ، باعادة تقرير السنجق على الامير حسين(١١) . وهذا التصرف جاء ، على الاغلب ، نتيجة لما لقيه الوالي من الاحترام والاكرام على يد الامير فخر الدين خاصة وابناء البيت المعني عامة(١٢) .

بالرغم من جهود الامير فخر الدين الحثيثة لاضعاف الاسرة الفزاوية ،وابعادها عن ساحة السياسة المحلية في بلاد الشام ، الا أن النجاح لم يكن دائما حليفه . فالاسرة الفزاوية لم تكف عن المطالبة والسعي للحصول على سنجقية لواء عجلون ،

وذلك على الرغم من قبول الامير احمد بالامر الواقع . ففي سنة ١٠٣٣ م/١٦٢٣ م قام الامير بشير عم الامير أحمد بالهجوم على قلعة عجلون واحتلها وطرد منها حاميتها من جنود الامير فخر الدين ، وبذلك استعاد سنجق عجلون للاسرة الغزاوية .

كان لهذا العمل أثره الكبير في نفس الامير فخر الدين . فأعد قوة قوامها سبعة آلاف فرد لاستعادة عجلون . وفي الوقت ذاته كان الامير بشير قد لجأ الى تكليف الوسطاء للتدخل بينه وبين فخر الدين من أجل تخفيف غضب الامير وتحويله عن مهاجمة عجلون . فأوفد عددا من مشايخ جبل عجلون الى الامير فخر الدين لرأب هذا الصدع . فاشترط الامير من أجل المصالحة قدوم الامير بشير عليه ، فان فعل يعينه قائمقام لولده حسين ، وان لم يفعل ، فانه عازم على السير اليه . الا أن الامير بشير اعتذر عن الذهاب الى فخر الدين ، وارسل الوسطاء مرة ثانية محملين بالهدايا الى الامير فخر الدين ، فقبل الاخير وساطتهم وعين بشيرا قائمقام للامير حسين . ومن الارجح ان الامير فخر الدين كان قد قبل بهذا الحل تحاشيا للاصطدام مرة ثانية مع والي الشام مصطفى باشا ، بعد اصطدامه معه سابقا في معركة عنجر . لاسيما وأن الوالي كان في ذلك الوقت قد خرج من دمشق الى البجة في جنوبي حوران لنصرة الامير بشير تأهبا للمشاركة في صد أي عمل عسكري سيقوم به الامير فخر الدين المعني ضد الاسرة الغزاوية بزعامة الامير بشير(١٣) .

ان الاخبار المتوفرة لدينا عن الامير حسين في مرحلة صباه تكاد تكون معدومة ، نظرا لصمت المصادر التاريخية عنه خلال تلك المرحلة من عمره . وجل ما نعرفه عنه أنه عندما شرع والي الشام كجك أحمد باشا(١٤) ، تنفيذا لاوامر السلطان مرادالرابع في سنة ١٠٤٣ هـ/١٦٣٣ م ، بتصفية فخر الدين المعني ، ووضع حد لوجوده كقوة محلية متنفذة ، أمر فخر الدين ولده حسين وكاخيته (وكيله) ابو نوفل نادر الخازن مع ثلاثة آلاف من المقاتلين بالاعتصام في قلعة المرقب بالقرب من اللاذقية(١٥) . وقد تمكن قبطان البحر العثماني المعروف باسم جعفر باشا(١٦) (ت ١٠٤٥ هـ/١٦٣٥ م) من القاء القبض على الامير حسين مع كاخيته وأرسلهما الى الوزير العثماني المقيم آنذاك في حلب ، ولقد استبقى الوزير العثماني الامير حسين على قيدالحياة وارسله الى القسطنطينية ، وكان عمره حينذاك ثلاثة عشرة عاما(١٧) ، بينما تمكن ابو نوفل من الهرب من حلب والعودة من جديد الى بلاد كسروان .

وكان من المتوقع ان يصفح السلطان مراد الرابع عن الامير فخر الدين وعن أولاده وأفراد اسرته الذين رافقوه في الاسر الى القسطنطينية . الا أن فرار الامير ملحم ابن الامير يونس المعني ، ابن اخ الامير فخر الدين ، وشنه الغارات على

منافسي البيت المعني من اليمانية من جهة ، وعلى العساكر العثمانية في ولاية الشام من جهة ثانية ، أثارت حفيظة السلطان واوغرت صدره . فأمر السلطان في ٤ شوال سنة ١٠٤٥ هـ/١٣ نيسان ١٦٣٥ م(١٨) بقتل فخر الدين واولاده وأفراد اسرته . الا أن الامير حسين كان قد نجا من ذلك الحكم(١٩) . ويفسر المرادي ذلك بما يلي :

« وأما المترجم (حسين) فلكونه صغيرا رشيدا فالحا أبقوه في سراي القلعة كعاداتهم وعدل عن مذهب اسلافه وتبع منهج الاسلام »(٢٠) .

ان تلك الضربة التي نزلت بالاسرة المعنية تركت أثرا حزينا في نفس الامير حسين ، كما وانها تمثل نقطة تحول في حياته كما سنرى فيما بعد . وربما كان في الشعار الذي نقشه على خاتمه ما يفسر لنا بعضا من جوانب حياته النفسيةوانعكاس ذلك على مسلكه الاداري ، اذ كان ينص على ان : « اغنى الغنى في ترك المنى »(٢١) . والى مثل هذا الزهد والتواضع اشار صديقه وتلميذه مؤرخ البلاط العثماني مصطفى نعيمة بن محمد اغا ابن كوجك أغا (١٦٦٥ - ١٧١٦) في كتابه المعروف باسم **روضة الحسين في خلاصة اخبار الخافقين** .

مما لاشك فيه ان الامير حسين قد اثبت كفاءة نادرة أتاحت له التقدم فيمراتب الادارة العثمانية . ففي مطلع حياته عمل في ما كان يعرف بـ (خاصه أوده سي) في القصر السلطاني . وترقى بعد ذلك في المناصب فعمل امين سر (سر كاتب) للسلطان محمد الرابع (١٠٥٨ هـ/١٦٤٩ م - ١٠٩٩ هـ/١٦٨٧ م) . ثم تولى فيما بعد وظيفة كتخدا الخزينة السلطانية (نائب رئيس المالية السلطانية) وكانت هذهالوظيفة من المناصب الرفيعة في القصر السلطاني . ان تولي الامير حسين تلك الرتب الرفيعة جلب لهالشهرة ولفتاليه الانظار . ففي ٦ رجب ١٠٦١ هـ/٣٠ نيسان ١٦٥٦ م ،اصبح رئيس الحرس السلطاني(٢٢) قابجي باشا Kapicibashi . ويذكر المرادي ان الوزارة اكانت قد عرضت عليه واعتذر عنها(٢٣) .

ولقد بلغ الامير حسين منزلة خاصة في نفس السلطان محمد الرابع . ففي سنة ١٠٦٦ هـ/١٦٥٦م أوفده السلطان سفيرا (ألجي) عنه الى دلهي موفدا الى سلطان المغول شاه جهان (١٠٣٧ هـ/١٦٢٨ م - ١٠٦٨ هـ/١٦٥٧ م) . والجدير بالذكر ان تلك السفارة كانت ردا على سفارة ارسلها السلطان شاه جهان الى السلطان محمد الرابع . ولقد اشارت المصادر المتوفرة لدينا عن هذه السفارة(٢٤) كما وأشار اليها أيضا الامير حسين نفسه في كتابه التمييز . حيث يذكر ذلك بشكل مقتضب ، وعلى النحو التالي : « ... وكفى بالمرء حرصا على الدنيا ركوبه البحر

لاجل تجارة . قيل لي ما رأيت من عجائب بحر الهند وكنت توجهت مأمورا برسالة الملك فقلت خلاصي منه »(٢٥) . الا أن المصادر المتوفرة لدينا لم تزودنا بالغاية من وراء تلك السفارة ولا عن النتائج التي تمخضت عنها . ولكن على ما يبدو انها لم تكلل بالنجاح . ومما تجدر الاشارة اليه ان الامير حسين بن فخر الدين كان قد رافق السفير الهندي في طريق عودته الى بلاده ، فوصلا البصرة ، ومن هناك سافرا بحرا الى الهند . وكان وصولهما اليها بعيد وفاة السلطان شاه جهان ، ليجدا أن الصراع قد تفجر بين أبنائه كل يحاول الفوز بالحكم لنفسه . فما كان من الامير حسين الا الاسراع في العودة الى القسطنطينية ، حاملا معه رسالة شكر ومجاملة من الامير مراد بخش ابن السلطان شاه جهان الى السلطان العثماني(٢٦) . والارجح انه في طريق عودته كان قد مر ببلاد الشام ، وليس كما يذكر المرادي انه كان قد غادر الى الهند من صيدا . وبهذا الخصوص يقول المرادي ما يلي : « فلما سمع بوصوله قريبه الامير احمد بن معن حاكم بلادهم اذ ذاك وأقاربه بني شهاب امراء وادي التيم ... ذهبوا لاستقباله واجتمعوا به في حاصبيا ثم عرضوا عليه حكومة بلادهم وكلفوه أن يصير حاكما عليهم فقال لهم كيف بعد خدمة الدولة والسلطان والرتب السامية السلطانية أصير حاكما على بلاد الدروز بعد ان استظليت بظل الدولة وارتضعت افاويق نعمتها وشملتني ببرها وهبتها ، فهذا امر محال »(٢٧) .

وكما أشرنا سابقا ان سفره كان أولا الى الهند عن طريق البصرة وذلك سنة ١٠٦٦ هـ/١٦٥٦ م . وكانت وفاة ابن عمه الامير ملحم بن يونس بن معن في سنة ١٠٦٩ هـ/١٦ ايلول ١٦٥٨ م ، حيث ترك من بعده ولدين : قرقماش الذي قتل سنة ١٠٧٣ هـ/١٦٦٢ م ، وأحمد الذي يذكره المحبي(٢٨) بقوله : « واما احمد فانه الان باق وهو امير بلادهم » ، مما يرجح القول بأن لقاء الامير حسين مع الامير احمد كان في طريق عودة الاول من بلاد الهند ، أو في احدى رحلات الامير حسين الى خارج القسطنطينية ان كان قد رحل . كما وانه لا يعقل ان يكون جواب الامير حسين بالصيغة التي اوردها لنا المرادي الذي لم يذكر لنا مصدر روايته ولا سندها وخاصة عندما يقول « ... اصير حاكما على بلاد الدروز » .

من الواضح لنا ان علاقة الامير حسين ، بعد عودته من سفره ذاك ، لم تكن ودية مع الصدر الاعظم الجديد محمد كوبريلي(٢٩) (١٦٥٦ - ١٦٦١ م) ، اذ انه لم يسند اليه أي منصب ، مما حدا بالامير حسين الى الانصراف الى حياة المطالعة والتأليف ، وساعده على ذلك وجود مكتبة غنية لديه احتوت على نوادر المؤلفات ، أشار لبعضها المؤرخ نعيمة نفسه الذي كان قد اتصل آنذاك بحسين واخذ عنه واعجب به(٣٠) .

ومن حسن حظ الامير حسين ان الصدر الاعظم لم يتعرض لاملاكه ولم يصادر موجوداته ، فكانت توفر له دخلا ضمن له الانصراف للبحث والتأليف الى حين وفاته . لقد انتقلت تركته هذه فيما بعد الى زوجته التي اقترنت بأحد رجال الاسباهية ، الذي كان يعرف باسم صالح ، ولكن بعد زواجه من ارملة حسين ، أصبح يعرف باسم معن أوغلو(٣١) .

ويذكر المؤرخ نعيمة الذي كان وثيق الصلة بالامير حسين خلال اواخر سني عمره ، ان وفاة الامير حسين كانت سنة ١١٠٢ هـ/١٦٩٠ م(٣٢) . ومثل هذا التاريخ يورده أيضا محمد ثريا(٣٣) . أما المرادي فيذكر ان وفاته كانت سنة ١١٠٩ هـ/١٦٩٧ ، حيث يقول « ولم يزل في قسطنطينية له الشهرة بين رؤسائها حتى انتقل الى رحمة مولاه وكانت وفاته بها سنة تسع ومائة والف عن نيف وسبعين »(٣٤) . والتحقق من تاريخ الوفاة مهم جدا وذلك للتأكد من صحة الرواية التي أوردها البطريرك اسطفان الدويهي والتي نقلها عنه من بعده بعض المؤرخين اللبنانيين . وأهمية هذه الرواية تدور حول الدور الذي قام به الامير حسين في تقرير شخص الحاكم على الشوف من البيت الشهابي ، بعد انقراض البيت المعني في الشوف وانتقال الحكم الى أصهاره من الاسرة الشهابية . فمن المعروف ان الامير أحمد ، آخر حاكم من البيت المعني ، كان قد توفي في ١٥ ايلول سنة ١٦٩٧ م ، وبعد ذلك يقول الدويهي — وهو معاصر لهذا الحدث (ت سنة ١٧١٤) — ما يلي : « واجتمعوا أعيان بلاد الشوف من أمراء ومقدمين ومشايخ فاختاروا الامير بشير ابن الشهاب يتأمر على الجميع »(٣٥) وارسل الوالي بذلك الى القسطنطينية ، فجاء الجواب في أواخر السنة المذكورة على غير ما قرر « الاعيان » حيث يذكر الدويهي مرة اخرى ما يلي : « ورد الامر من الباب الاعلى بأن الامير حيدر ابن موسى الشهابي يكون محافظ المقاطعات التي كانت بيد الامير احمد بن معن لكونه ابن بنته ، وكان ذلك على يد الامير حسين ابن فخر الدين امير الشوف وان الامير بشير يكون وكيله في الحكم لكونه قاصر ابن اثنتي عشرة سنة »(٣٦) .

فاذا كان الامير حسين قد توفي سنة ١١٠٢ هـ/١٦٩٠ م فمعنى ذلك انه لم يكن له دور يذكر في أمر تقرير اختيار الشخص الشهابي لوراثة الحكم . اما اذا كان قد توفي سنة ١١٠٩ هـ/١٦٩٧ م وهي سنة وفاة الامير احمد ، فهذا يعني انه كان قد استشير في هذا الامر وهو على فراش الموت ، كل هذا يدعو لاعادة النظر في رواية نعيمة ومن أخذ عنه من المؤرخين فيما بعد .

ان أهمية الامير حسين بن فخر الدين ، في رأينا ، لم تكن فقط في المناصب

التي اسندت اليه ، بل أيضا في المعلومات التاريخية التي اخذها ورواها عنه مشافهة المؤرخ نعيمة . ومما يزيد في أهميته الاثر القيم الذي خلفه لنا من بعده الا وهو كتاب **التمييـــز** .

يذكر نعيمة في تاريخه انه اخذ شفاها عن الامير حسين معظم اخباره عن عهدي السلطانين ابراهيم وولده السلطان محمد الرابع(٣٧) . الا ان المؤرخ الامريكي (Lewis V. Thomas) الذي درس نعيمة دراسة وافية لا يرى ان اعتماد نعيمة على الامير حسين كان على الصورة التي ذكرها نعيمة نفسه ، بل يعتقد أن اعتماده على الامير حسين كان محدودا الى درجة بعيدة(٣٨) . والجدير بالذكر ان نعيمة عندما ذكر اخبار الامير فخر الدين فانه اوردها بما يتفق مع وجهة النظر العثمانية الرسمية في اعتبار فخر الدين عاصيا وخارجا على السلطة الشرعية ، وانه نال عقابه الـــذي يستحقه من الموت(٣٩) .

كان المرحوم عيسى اسكندر المعلوف من أوائل الذين أشاروا لكتاب **التمييز** الذي الفه الامير حسين بن فخر الدين المعني ، ولكن لم يقدر له الاطلاع على نسخ الكتاب بل كان جل ما رآه مختصرا له باسم (منتخبات من كتاب التمييز) محفوظة في الخزانة الملكية بالقاهرة وتقع في ثمان وعشرين صفحة بقطع الثمن . ومن الاشارات التي يوردها الاستاذ المعلوف يتضح لنا انه لم يطلع على نص كامل لهذا العمل(٤٠) .

الا أنه لحسن الحظ تيسر لي أن أجمع صورا شمسية لعدد من نسخ هـــذا الكتاب(٤١) الذي الفه الامير حسين مغن زاده . ولقد اشار نعيمة الى هذا المؤلف وأطنب في الثناء عليه بل زيادة على ذلك يذكر انه بناء على تكليف من حسين نفســـه قام نعيمة بنفسه باستنساخ عدد من النسخ لهذا الكتاب ، نسخة منها قدمت للوزير الاعظم حسين كوبريلي(٤٢) . ومما يلفت النظر ان جميع النسخ المتوافرة لدينا مكتوبة بخط في غاية الجمال والاناقة والوضوح . ومن أقدم النسخ الموجودة لدينا صورة عن نسخة محفوظة في مكتبة جامعة (ييل) بالولايات المتحدة الامريكية ، وهي من ضمن مجموعة (لاندبرغ)(٤٣) ، عدد اوراقها مائتان وست وعشرون ورقة ، وعلى الارجح انها نسخة المؤلف ، حيث جاء في نهايتها : « وقد وقع الفراغ من جمعه وتحريره وتسطيره في أواسط شهر ذي الحجة لسنة سبع وتسعين والف ، والحمد لله رب العالمين » . فاذا كان هذا تاريخ الفراغ من تأليف الكتاب فيعني ذلك انه فرغ منـــه في مطلع شهر تشرين الثاني لعام ١٦٨٦ ، وهذا يشير بوضوح الى انه كان قد انجز هذا العمل بعد عودته من سفارته حيث وجد لديه الوقت الكافي للتفرغ لهذا العمل ، لاسيما انه لم يسند اليه عمل رسمي في عهد اسرة كوبريلي كما أشرنا .

ونجد أن المؤلف قسم كتابه هذا الى ستة وعشرين بابا ، ألحق بكل باب منها فصلا . ويستهل كل باب بعنوان « باب في مدح كذا » ثم يتبع ذلك بفصل يذكر فيه « ومما قيل فيه » ولقد جاءت أبوابه وفصوله على النحو التالي :

١ ـ بـاب في مـدح العقـل
فصل وممـا قيل في العقـل

٢ ـ بـاب في مـدح العلـم
فصل وممـا قيل فيـه

٣ ـ بـاب في مـدح الحلـم
فصل وممـا قيل في الحلـم

٤ ـ بـاب في مـدح الحيـاء
فصل وممـا قيل في الحيـاء

٥ ـ بـاب في مـدح الصبـر
فصل وممـا قيل في الصبـر

٦ ـ بـاب في مـدح المشـورة
فصل وممـا قيل في المشـورة

٧ ـ بـاب في مـدح الشجاعـة
فصل وممـا قيل في الشجاعـة

٨ ـ بـاب في مـدح الادب
فصل وممـا قيل في الادب

٩ ـ بـاب في مـدح الصمـت
فصل وممـا قيل في الصمـت

١٠ ـ بـاب في مـدح الفقـر
فصل وممـا قيل في الفقـر

١١ ـ بـاب في مـدح الغنـى
فصل وممـا قيل في الغنـى

١٢ ـ بـاب في مـدح القناعة
فصل ومما قيل في القناعة

١٣ ـ بـاب في مـدح الاصدقـاء
فصل وممـا قيل في ذلـك

١٤ ـ بـاب في مـدح العزلـة والوحـدة
فصل وممـا قيل في حق العزلة والوحـدة

١٥ ـ بـاب في مـدح العتـاب
فصل وممـا قيل في حـق العتـاب

١٦ ـ بـاب في مـدح الزيـارة

١٧ ـ بـاب في مـدح الهديـة
فصل وممـا قيل في حـق الهديـة

١٨ ـ باب في مـدح الجـود والسخاء
فصل وممـا قيل في ذلـك

١٩ ـ بـاب في مـدح صيانة المـال
فصل وممـا قيل في البخـل

٢٠ ـ بـاب في مـدح التجـارة
فصل وممـا قيل في حـق التجـارة

٢١ ـ بـاب في مـدح النساء والعيال
فصل وممـا قيل في النسـاء والعيال

فصل وممـا قيل في التزويج

٢٢ ـ بـاب في مـدح السفر والغربـة
فصل وممـا قيل في حق السفر والغربـة

٢٣ ـ بـاب في مـدح الشبـاب
فصل وممـا قيل في حـق الشبـاب

٢٤ ـ بـاب في مـدح الشيـب
فصل وممـا قيل في حـق الشيـب

٢٥ ـ بـاب في مـدح المـرض والاسقام

٢٦ ـ بـاب في مـدح المـوت
فصل وممـا قيل في حـق المـوت

وعند تقصي اسماء المصادر التي رجع اليها ، نجد انه اعتمد كثيرا في اقتباساته على القرآن الكريم وكتب التفسير ، هذا بجانب افادته من صحاح وأسانيد الحديث النبوي الشريف . وبهذا الصدد تجب الاشارة للمكانة الكبيرة التي افردها في كتابه للاقوال المنسوبة للامام علي بن أبي طالب رضي الله عنه كما جاءت في كتاب نهج البلاغة . ولا شك أن كتاب التميز يدل على أن صاحبه كان ذا اطلاع واسع على دواوين الشعر العربي والفارسي ، كما يظهر من كثرة استشهاداته الشعرية . وان كثرة الشواهد الشعرية التي ترجع في نسبتها لشعراء العربية من المتقدمين والمتأخرين تعزز هذا الرأي ، ولم تقتصر مصادره على القرآن الكريم وديوان الشعر العربي بل تعدتها الى كتب الانساب وطبقات الرجال والمجاميع الادبية والمعاجم اللغوية ، وكتب الطب . ومما يستلفت النظر أن صاحب التمييز قد استفاد كثيرا من كتاب (احياء علوم الدين) .

والجدير بالذكر أن نعيمة يشير الى كتاب اخر من تأليف حسين بن فخر الدين يتناول الترجمة لعلماء عصره(٤٤) . لكن الفهارس المتوافرة لدينا لا تشير لمثل هـذا الكتاب ، الذي ان وجد ، أو اذا تيسر لاحد الباحثين استكشافه من احدى خزائن المخطوطات المغمورة أو المشهورة ، فانه سيكون من المصادر المهمة التي تزودنـا بتراجم لاعيان القرن السابع عشر الميلادي .

* * *

الحواشـي

(١) يذكر الخالدي الصفدي : ان الامير علي بن فخر الدين كان قد تزوج في سنة ١٠٢٩ هـ / ١٦١٩ م شقيقة الامير حسن بن سيفا ، كما وأن الامير بلك (بلغ) ابن الامير يوسف باشا سيفا كان قد تزوج في نفس العـام من كريمة فخر الدين المعني . ويذكر عيسى اسكندر المعلوف :، بان الامير فخر الدين كان قد تزوج مرتين من آل سيفا وان يوسف باشا قد تزوج ابنة فخر الدين نفسه ، حول هذه المصاهرات راجع أحمد بن محمد الخالدي الصفدي ، تاريخ الامير فخر الدين المعني، نشره الدكتور أسد رستم والدكتور فؤاد أفرام البستاني ، تحت عنوان : لبنان في عهد الامير فخر الدين المعني الثاني ، الطبعـة الثانية ، منشورات الجامعة اللبنانية ، بيروت ، ١٩٦٩ م ، ص ١٠٥ ، ص ١٦٦ ، اسطفان الدويهي (ت ١٧٠٤ م) ، تاريخ الازمنة ، نشره الاب فرديناند توتل اليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت، ١٩٥١ ، ص ٣١٢ طنوس الشدياق (ت ١٨٥٩ م) ، كتاب اخبار الاعيان في جبل لبنان ، ٢م ، حققه فؤاد أفرام البستاني ، منشورات الجامعة اللبنانية ، بيروت ، ١٩٧٠ م ، م١ ، ص ٢٧٩ ، عيسى اسكندر المعلوف ، تاريخ الامير فخر الدين المعني الثاني ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ١٦٩ – ١٩٧٠ ، ص ١٧٩ . حول فخر الدين انظر :
Kamal Salibi « Fakhr al-Din al-Ma'ni » **E.I.2** vol. I, pp. 749-51.

(٢) في صفر سنة ١٠٣٣ هـ / ١٦٢٣ م مر ببيروت عائدا من الاسكندرية علي باشـا الجنتشجي آغـا الينكجرية سابقا ، وكان قد عين واليا على مصر واعترضت العسـكر في مصر على تعيينه فعاد الى القسطنطينية عن طريق بيروت فاستقبله نبها كل من الامير حسين وحاكم بيروت الامير منذر « وانزلاه هو وعياله وثقله في مكان وأكرماه ، فأعطى للامير حسين خنجرا مرصعا » ، الخالدي الصفدي ، المصدر ذاته ، ص ١٦٠ ، الشدياق ، المرجع ذاته م١ ، ص ٢٧٨ ، يذكر المؤرخ المصري أحمد شلبي بن عبد الغني الحنفي المصري ، (ت ١١٥٠ هـ / ١٧٣٥ م) عن تولية علي باشا الجنتشجي على مصر ما يلي : « فلما بلغ أهل مصر تكدر عيشهم واجتمعوا مع بعضهم البعض في أمر ذلك الوزير وقالوا : كل سبعين يوما باشا ، فهذا مضر بالعسكر والرعية والتقادم ، وهذا لانقدر عليه » وكتبوا بذلك الى السلطان يطلبون ابقاء الوالي مصطفى باشا فوافق السلطان بعـد تدخل شيخ الاسلام ، ولقد أخطر الوالي علي باشا باعتراض العسكر على تعيينه ، فعاد الى القسطنطينية ، وفي طريق عودته مر ببيروت ، انظر ، أوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات الملقب بالتاريخ العيني ، تحقيق الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ١٤٠ ، والملاحظ أن المحقـق قرأ اسمه كما يلـي علـي باشا النشنشجي .

(٣) حول حياة خليل باشا والمناصب التي تولاها كالصدارة العظمى وأماره الاسطول ، راجع محمد ثريا ، سجل عثماني ياخود تذكـره مشاهير عثمانيـة ، نسخة مصورة عن طبعة اسطنبول ، ١٣١١ هـ ، أعيد تصويرها في مؤسسة .
Gregg International Publishers Limited, Hants, 1971, vol. II, p. 286.
ويصفه الخالدي الصفدي بقوله : « قبودان الاغربة السلطانيـة » المصدر ذاته ، ص ١١٠ .

(٤) الخالدي الصفدي ، المصدر ذاته ، ص ١١٠ ، الشدياق ، المرجع ذاته ، م١ ، ص ٢٦٦ .

(٥) الخالدي الصفدي ، المصدر ذاته ، ص ١١٢.

(٦) الخالدي الصفدي ، المصدر ذاته ، ١١٩ .

(٧) الخالدي الصفدي ، المصدر ذاته ، ص ١١٧ ، الشدياق ، المرجع ذاته ، م ١ ، ص ٢٦٨ .

(٨) الخالدي الصفدي ، المصدر ذاته ،: ص ١١٧ ـ ١١٨ ، حول حياة ودور الحاج كيوان بن عبد الله ((أحد كبراء اجناد الشام)) الذي طعنه الامير فخر الدين سنة ١٠٣٣ هـ / ١٦٢٣ م ثم أجهز عليه رجال فخر الدين ، راجع محمد أمين بن فضل الله المحبي ، (ت ١١١١ هـ / ١٦٩٩ م) ، خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر ، ٤م ، تصوير دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٠ ، م٣ ، ص ٢٩٩ ـ ٣٠٣ ، كذلك انظر دراسة نوفان رجا الحمود ، العسكر في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين . دار الافاق ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص ١٣٤ ـ ١٣٧ .

(٩) الخالدي الصفدي ، المصدر ذاته ، ص ١١٨ ـ ١١٩ ، اما القطرانة فهي محطة على الطريق السلطاني وكانت احدى منازل الحاج ، تقع شرقي الكرك . امر السلطان سليمان القانوني سنة ٩٦٧ هـ / ١٥٥٩ م ببناء قلعة فيها ، وشحنها بالمؤن ، ويورد لنا ابراهيم بن عبد الرحمن الحياري المدني (ت ١٠٨٣ هـ / ١٦٧٢ م) عند مروره بها سنة ١٠٨٠ هـ / ١٦٦٩ م ، وصفا مفصلا لبركتها ، انظر تحفة الادباء وسلوة الغرباء ، م١ ، تحقيق رجاء محمود السامرائي ، بغداد ، ١٩٦٩ ، ص ٨٥ انظر كذلك الغزى ، المصدر ذاته ، م٣ ، ص ١٥٦ ـ ١٥٧ .

(١٠) الخالدي الصفدي ، المصدر ذاته ، ص ١٢٠ الدويهي ، المصدر ذاته ، ص ٣١٤ ، الشدياق ، المرجع ذاته ، م١ ، ص ١٧٠ ، المعلوف ، المرجع ذاته ، ص ١٨٢ .

(١١) تاريخ التقرير ١٠ رجب ١٠٣٢ هـ / ١٠ أيار ١٦٢٣ م ، الخالدي الصفدي ، المصدر ذاته ، ص ١٢٣ ، ص ١٢٥ ـ ١٢٦ ، ص ١٣٧ ، الشدياق المرجع ذاته ، م١ ص ٢٦٩ ، ص ٢٧٧ .

(١٢) الخالدي الصفدي ، المصدر ذاته ، ص ١٥٥ .

(١٣) الخالدي الصفدي ، المصدر ذاته ، ص ٢٠٣ ، ص ٢٠٥ ، الشدياق المرجع ذاته ، م١ ، ص٢٨٧ ، اما البجة فيعرفها شهاب الدين ياقوت الحموي على ((انها قرية كانت على باب دمشق / معجم البلدان ، م٦ ، تحقيق فردناند وستنفلد ليبرج ، ١٨٧٠ ، أعيد تصويره بطهران سنة ١٩٦٥ ، م١ ، ٤٩٦ . يذكر السيد محمد عارف بن السيد أحمد المنير الحسني (ت ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٣ م) ان النهر الذي يخرج من المزيريب اسمه البجتة (على الاغلب أن الاسم هو البجة لان المحقق ذكر انه غير متأكد من قراءة الاسم ، ((ماؤه رديء وفيه سمك كثير من يأكل منه يصب بالحمى)) ، السعادة الابدية في السكة الحجازية الحديدية ، حقق النص العربي وترجمه الى اللغة الانجليزية Jacob M. Landau ونشره تحت عنوان :
The Hejaz railway and Muslim Pilgrimage: A case of Ottoman Political Propaganda, Wayna State University Press, Detroit, 1971, p. 275.

(١٤) حول حياة الوالي كوجك أحمد باشا (ت١٠٤٦ هـ / ١٦٣٦ م) ،الارنودي الاصل ، وحول المناصب التي تولاها ، راجع المحبي ، المصدر ذاته ، م١ ص ٣٨٥ — ٣٨٨ .

(١٥) الدويهي ، المصدر ذاته ، ص ٣٢٧ ،الشدياق المرجع ذاته ، م ١ ، ص ٧٠ ، والملاحظ ان آل سيفا كانوا قد تخلوا عن قلعة المرقب ، سنة ١٠٣٥ هـ / ١٦٢٤م ، لفخر الدين المعني ، استرضاء له من جهة ومن أجل ان يمنع عنهم والي طرابلس الشام آنذاك من جهة ثانية ، الدويهي ، المصدر ذاته ، ص ٣٢١ ، المعلوف ، المرجع ذاته ، ص ١٨٨ ، والمرقب قلعة حصينة بالقرب من البحر الابيض المتوسط (بحر الروم) كانت في العهد المملوكي تشكل عملا من نيابة طرابلس الشام ، ولى عليها الامير فخر الدين الشيخ ابو نادر الخازن وذلك سنة ١٦١٧ ، انظر احمد بن علي القلقشندي ، (ت ٨٢١ هـ/١٤١٧ م) صبح الاعشى في صناعة الانشا ، نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، القاهرة ، م٤ ، ص ٤٥ ا— ١٤٦ ، م ٧، ص ١٧٦ ، الشدياق ، المرجع ذاته ، م١ : ص ٦٩ .

(١٦) حول جعفر باشا ، راجع محمد ثريا ،المرجع ذاته ، م٢ ، ص٧٣ .

(١٧) الدويهي ، المصدر ذاته ، ص ٣٢٧ ، المعلوف ، المرجع ذاته ، ص ٢٠٥ ، ص ٢١٠ .

(١٨) راجع المحبي ، المصدر ذاتــه ، م٣ ، ص ٢٦٦ ، نعيمة ، المصدر ذاته .
انظر أيضا الترجمة الانجليزية لبعض اقســام تاريخ نعيمة المنشـــورة باسم :
Annals of the Turkish Empire from 1591 - 1629 by Naima, translated by Charles Fraser, London, 1832, Reprint, Arno Press, N.Y. 1973, 422-425.

كذلك راجع الدويهي ، المصدر ذاته ، ص ٣٢٩ كان ولده علي قد قتل في الاصطدام مع الوالي عثمان كجك باشـــا سنة ١٠٤٣هـ /١٦٣٣م ، أمـــا ولده حسن فقد خنق مع نساء فخر الدين في دمشـــق أما أولاده منصور وحسن وبلك فقد رافقوه الى اسطنبول . الدويهي ، المصدر ذاته ، ص ٣٢٧ ، عيسى اســكندر المعلــوف ، المرجع ذاته ، ص ٤١ — ٤٢ ، ص ٢٤٤ — ٢٤٦ .

(١٩) انظر تاريخ نعيمة : روضة الحسين في خلافة أخبار الخافقين ، ٦م ، نشـرة بالحرف التركـي الجديد ، زهوري دانشمان ، اسطنبول ، ١٩٦٧ — ١٩٦٩ م ، م٣ ، ص ١٢٢٩ — ١٢٣٠ .

(٢٠) المرادي ، المصدر ذاته ، م٢ ، ص ٥٩ — ٦٠ .

(٢١) راجع مخطوط التمييز نسخة أسعد أفندي ، رقم ٢٥٥١ ، هامش ورقة حيث نجد عليها صورة لخاتـم حسين بن فخر الدين .

(٢٢) نعيمة ، المصدر ذاته ، م٣ ، ص ١٢٢٩ — ١٢٣٠ ، المرادى ، المصدر ذاته والمكان ذاتهما .

(٢٣) المرادى ، المصدر ذاته ، م٢ ، ص ٦٠ يذكــر المرادى انه عند ترك حسين للوظيفة انه خرج برتبة الخواجكانية على القواعد العثمانية وتولى عدة مناصب بمقتضى الرتبة المذكورة . أما« خواجكان » فانه مصطلح من أصل فارسي كان يستخدم لوصف عمل كبار الموظفين العاملين في ادارة الخزينـة السلطانية بعد أن يكونوا قد عملوا في الديوان السلطاني . وكانوا يعينون من قبل الوزير راجع :
Lewis Thomas, **A study of Naima,** edited by Norman Itzkowitz, N.Y.U. Press, 1972, pp. 22-24.

(٢٤) نعيمة ، المصدر ذاته ، م٥ ، ص ٢٣٧٣ — ٢٣٧٥ ، ص ٢٤٧١ ، م٦ ، ص ٢٦٩٨ ، المرادي المصدر ذاته ، م٢ ص ٥٩ — ٦٠ ، المعلـــوف ، المرجع ذاته ، ص ٢٤٩ .

(٢٥) مخطوط التمييز ، نسخة داماد ابراهيم ، رقم ٩٤٥ ، ورقة ١٩٨ ب-١٩٩ أ . وكان داماد ابراهيم وزيرا للسلطان أحمد ، وعلى هامش هـــذه النسخة ختم الوزير المذكور .

(٢٦) انظر ، Lewis Thomas المرجع ذاته ، ص ١٤١ ، ص ١٤٧ ، حول شهاب الدين شـــاه جهان ١٠٣٧ هـ / ١٦٢٨ م — ١٠٦٨ هـ / ١٦٥٧ م) ، راجع فصل المغول في كتاب :
Stanley Lane-Poole , **The Muhammadan Dynasties** , Reprint Khayats, Beirut, 1966, pp. 322 - 329.

وكذلك راجـــع :
C. E. Bos orth, **Islamic Surveys: The Islamic Dynasties** Edinburgh, U. P., 1967, pp. 210 - 213.

والجدير بالذكر أن السلطان العثماني ســـليمان الثاني (١٠٩٩ هـ / ١٦٨٧ م — ١١٠٢ هـ / ١٦٩١م) كان قد بعث في سنة ١٦٨٨ — ١٦٨٩ برسالة الى سلطان المغول محي الدين اورانجزب عالمجير الاول (١٠٦٨ هـ / ١٦٥٨ — ١١١٨ هـ / ١٧٠٧ م) نشر نص هذه الرسالة H. Bayur تحت عنوان :
« Osmanli Padishahi II. Suleymanin Gurkanli Padishah I. Alemgir (Evren-Gzib) e mektubu » **Be!leten, 14,** (1950) pp. 269 - 87.

انظر أيضا الاشارة اليها في كتاب :
Jan Reychman and Ananiasz Zajaczkowski, **Handbook of Ottoman - Turkish Diplomatics,** trans. by A.S. Ehrenkreutz, Mouton, 1968, the Hague, Paris. P. 92.

(٢٧) المرادي ، المصدر والمكان ذاتهما .

(٢٨) المحبي ، المصدر ذاته ، ص ٤٠٨ — ٤٠٩ ، المصدر ذاته ، ص ٣٥٥ ، ص ٣٦٠ .

(٢٩) حول نشأته وتكوينه الاداري والمناصب التـــي تولاها قبل أن تسند اليه الصدارة العظمى ، انظر :
Edward Creasy, **History of the Ottoman Turks,** Reprint, Khayats, Beirut 1961, pp. 273 - 277.

انظر أيضا ترجمته في المحبي ، المصدر ذاتـــه ، م٤ ، ص ٣٠٩ — ٣١١ .

(٣٠) من هذه الكتب النادرة نسخة من كل من الشاهنامة للفردوسي ، وكنه الاخبار لعالي وتاريخ واصف
Lewis Thomas, **Ibid,** p. 144

(٣١) لويس ثوماس ، المرجع ذاته ، ص ١٤٢ .

(٣٢) نعيمة ، المصدر ذاته ، م٣ ، ص ١٢٣٠ .

(٣٣) محمد ثريا ، المرجع ذاته ، م٢ ، ص ١١٩ .

(٣٤) المرادى ، المصدر ذاته ، م٢ ، ص ٦٠ .

(٣٥) الدويهي ، المصدر ذاته ، ص ٣٨٢ — ٣٨٣ .

(٣٦) المصدر والمكان ذاتهما ، راجع أيضا حيـــدر أحمد الشهابي ، الغرر الحسان في أخبار أبنـــاء الزمان ، القسم الاول ، تحقيق أسد رستم وفؤاد افرام البستاني ، منشورات الجامعة اللبنانية بيروت سنة ١٩٦٩ م ، ص ٢ـ٥ ، طنوس الشدياق ، أخبار الاعيان ، م٢ ، ص ٣١١ ، كمال الصليبي تاريخ لبنان الحديث ، دار النهار للنشر ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٢ ، ص ٣١ — ٣٢ .

(٣٧) نعيمة ، المصدر ذاته ، م٣ ، ص ١٢٢٩ .

(٣٨) راجع Lewis Thomas, **A study of Naima**, pp. 142 - 145

(٣٩) راجع نعيمـــة **Annals of the Turkish Empire**, pp. 422 - 425.

(٤٠) راجع عيسى اسكندر المعلوف ، « كتاب التعبير في المحاضرات : مخطوط للامير حسين ابن فخـــر الدين المعني ، المشرق ، م ٢٧ (١٩٢٩) ص ٨١١ — ٨١٥ ، وانظر ايضا تاريخ الامير فخر الدين المعني الثانـــي ، ص ٢٥٠ — ٢٥١ ، راجـــع ايضـــا اشـــارة محمـــد ثريا ، سجل عثماني ، م٢ ، ص ١١٩ ، وكذلـــك انظـــر اسمـــاعيل باشـــا البغـــدادي ، هديـــة العارفيـــن : اسماء المؤلفين واثار المصنفين ، م٢ ،نسخة مصـــورة عن طبعة اسطنبول ، ١٩٥١ ، تصويـــر مكتبة المثنى ، بغداد ، م١ ، ص ٣٢٤ ، كما ان بروكلمان اشار للمختصر في المكتبة الملكية بالقاهرة وكذلك اشار الى نسختين في مكتبة داماد ابراهيم تحملان الرقمين ٩٤٥ و ٩٤٦ .
Brockelmann, Karl, G. I. P. 466 .

(٤١) لدينا صور شمسية للنسخ التالية من كتاب التمييز :

١ — مخطوط جامعة Yale مجموعة لاندبيرج ٨٤ ، عدد الاوراق ٢٢٦ وجاء في ختامها ما يلي : وقد وقع الفراغ من جمعه وتحريره ووضعه و تسطيره في أواسط شهر ذي الحجة لسنة سبع وتسعين والف والحمد لله رب العالمين» . حول الوصف المختصر لهذا المخطوط الذي ذكره ليون نمـوى Leon Nemoy راجع فهرســه
Arabic Manuscripts in the Yale University Library, Yale University press 1956, No: 446 (L-84) p. 59.

٢ — نسخة نور عثمانية رقم ٣٧٥٥ عدد أوراقها مائة وسبعون ورقة ، في كل صفحة ١٩ سطرا ، وجاء في نهايتها ما يلي : « وقع الفراغ من تحرير هذا الكتاب من نسخة بخط مؤلفة في اوائل شهر ربيع الاخر ١١٠٠ سنة مائة والف هجرية » .

٣ — مخطوط الاحمدية رقم ٦٩٠ عدد اوراقها ١٩٤ ، وعدد الصفحات ٣٨٩ صفحة ، في كل صفحة ١٩ سطرا مع شروحات قليلة جدا علـى الهوامش ، وجاء في نهايته «وقد وقع الفراغ من تحرير هذا الكتاب من نسخة بخط مؤلفه في اواخر شـــهر شعبان لسنة احدى ومائة والف هجرية والحمد لله رب العالمين وعلى اخر صفحة من الكتاب : نظر فيه مؤلفه عفى عنه » .

٤ ـ مخطوط مكتبة داماد ابراهيم رقم ٩٤٥ عدد اوراقها ٢٧٨ وفي كل صفحة بها ١٩ سطراً وجاء في ختامها : « وقد وقع الفراغ من تحرير هذا الكتاب من نسخة بخط مؤلفه على يد سليمان ابن محمد في اوائل شهر محرم سنة اثنين ومائة والف » وعلى آخر صفحة جاء مايلي : « نظر فيه مؤلفه عفي عنه » .

٥ ـ مخطوط مكتبة أسعد افندي رقم ٢٥٥١ عدد أوراقها ٣١٩ وعدد الصفحات ٦٣٩ ، في كل صفحة ١٧ سطرا وتاريخ نسخها سنة ١١٠٢ هـ .

٦ ـ مخطوط عاطف افندي رقم ٢٢٣٣ ، عدد اوراقها ٢٠٦ في كل صفحة ١٩ سطرا ، جاء في نهاية المخطوط مايلي : «وقد وقع الفراغ من تحرير هذا الكتاب من نسخة بخط مؤلفه في نصف شهر شعبان لسنة مائة وسبع والف والحمد لله » .

٧ ـ مخطوط نور عثمانية رقم ٣٧٥٦ عدد اوراقها ٣٥٨ ، تاريخ نسخها سنة ١١٠٨ هـ ، وجاء في أعلى أول صفحة «وقف للسلطان عثمان بن مصطفى » ويلي ذلك : « وهو الحمد الله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله » ويلي ذلك طغرة السلطان .

٨ ـ نسخة داماد ابراهيم رقم ٩٤٦ (نسخة ثانية غير التي تحمل رقم ٩٤٥) ، عدد اوراقها ٢٩٢ ، في كل صفحة ١٩ سطرا ، خطها يشبه خط النسخة رقم ٩٤٥ ، الا أن تاريخ نسخ هذه النسخة هو سنة ١١٠٩ هـ .

٩ ـ نسخة بشير بوبو رقم ٢٧٥٣ عدد اوراقها ٢٠٢ ، في كل صفحة ١٩ سطرا ، تاريخ الوقف حوالي ١١٢٠ هـ .

١٠ ـ نسخة نور عثمانية رقم ٣٧٥٣ عدد الاوراق ٢٠٢ في كل صفحة ١٩ سطرا ، بلا تاريخ .

١١ ـ قطعة من كتاب التمييز ـ مكتبة عاطف افندي رقم ٢٢٣٣ .

١٢ ـ قطعة من كتاب التمييز ـ من مكتبة نور عثمانية ورقة ١٦٠ ـ ١٦٣ .

(٤٢) نعيمة ، المصدر ذاته ، م٣ ص ١٢٢٩ ـ ١٢٣٠ ، حول عمجا زاده حسين باشا كوبريلي (ت ١١١٤ م / ١٧٠٢ م) انظر

Orhan F. Koprulu

« Amdja-Zade Husayn Pasha » **E. I. 2,** Vol. III, pp. 626-7.

(٤٣) انظر الهامش رقم ٤١ (١)

(٤٤) نعيمة ، المصدر ذاته

★ ★ ★

تطور علاقات الكويت
بالأقطار العربية قبل الاستقلال

د. عبدالمالك خلف التميمي
جامعة الكويت ـ قسم التاريخ

بريطانية والخليج العربي

بعد الحرب العالمية الاولى وانتصار الحلفاء اصبح الوطن العربي تحت السيطرة الاستعمارية البريطانية والفرنسية وقسمت البلاد العربية بين الدولتين وخضع التقسيم لتوازن دقيق في المصالح الحيوية التي تهم كلا منهما في الوطن العربي ، وفي اقطار اخرى في افريقية واسية . ولم تكن الولايات المتحدة بعيدة عما يجري ، فقد تحركت منذ ذلك الوقت مطالبة بحقوق وامتيازات ، ونادت بسياسة الباب المفتوح لئلا تحتكر كل من فرنسة وبريطانية النشاط الاقتصادي في المناطق التي تقع تحت نفوذهما . ويجب أن ننظر بعين الاعتبار الى قيام نظام اشتراكي في الاتحاد السوفييتي بعد الحرب العالمية الاولى ، اثر الثورة البلشفية التي وقعت عام ١٩١٧ ، وما كان لذلك من اثر ضاغط على الوجود الاستعماري ، دفع الدول الاستعمارية الى تركيز سيطرتها واحتكارها وتثبيت اوضاعها السياسية والعسكرية والاقتصادية في الوطن العربي . ولما كانت السيطرة البريطانية قد تغلغلت في منطقة الخليج العربي منذ القرن التاسع عشر ، فان المنطقة اصبحت من نصيبها وحدها بعد الحرب العالمية الاولى ، ومن هنا لعبت دورا أساسيا وهاما في تطور الاحداث في المنطقة بشكل مباشر وغير مباشر في فترة ما بين الحربين العالميتين التي هي في اعتقادنا اهم مرحلة في تاريخ العرب المعاصر .

فقد شهدت مرحلة ما بين الحربين العالميتين في الوطن العربي احداثا هامة ، ففي المشرق العربي كان وعد بلفور والهجرة الاستيطانية الصهيونية في فلسطين بحماية الانتداب البريطاني وتشجيعه ، ثم تكوين الاحزاب السياسية في الاقطار العربية وبدء النضال السياسي من أجل الاستقلال ، ثم دخول التعليم الحديث وانتشاره مما كان له دور في وعي المواطنين السياسي ، وتأثيره في الاحداث التي كانت تمر

بها بلادهم ، اضافة الى النهوض القومي العربي والدعوة الى الاستقلال والتحرر والوحدة العربية ، وظهور النفط كمادة اقتصادية استراتيجية هامـة في الاقتصاد العالمي ، واكتشافه بكميات وفيرة في المنطقة ، مما دفع الاستعمار الى التشبث اكثر مما مضى وتثبيت وجوده عن طريق السيطرة العسكرية والارتباط بمعاهدات وخلق المشكلات بين الاقطار والامارات العربية ، وبخاصة مشكلات الحدود ، ان الدافع الحقيقي لتحركات الاستعمار البريطاني في كل الاحوال والظروف كان مصالحه الاقتصادية والاستراتيجية في منطقة الخليج العربي التي كانت تخضع لسيطرته ، والتي شهدت حضورا بريطانيا عسكريا وسياسيا واقتصاديا مستمرا ، يتدخل حتى في جزئيات الاحداث الجارية وتفصيلاتها ، حتى يتمكن من التحكم فيها فيمنع وحدة المنطقة واستقلالها ، ويخلق المشكلات المزمنة ويطيل من وجوده ليحقق أغراضه التي كانت المصالح الاقتصادية على رأسها والتي عززها ظهور النفط في المنطقة .

كان هناك هاجس يضغط على بريطانية في المنطقة مصدره الاتحاد السوفييتي ، فبعد الثورة البلشفية في نهاية الحرب العالمية الاولى وفي فترة ما بين الحربين وتحول الاتحاد السوفييتي الى دولة اشتراكية تنمو وتتطور ، شعرت بريطانية بالخطر على مصالحها في الشرق الاوسط ، وكان مصدر التخوف ان يحدث اختراق روسي لايران يؤدي بوصول الاتحاد السوفيتي الى الخليج ، ومن هنا وقفت بريطانية ضد محاولات ايران التوسعية في الخليج ، اضافة الى مصالحها في ايران نفسها .

وهناك العامل الاقتصادي الذي كان يدفع بريطانية لفرض نفوذها على ايران أو التقارب معها ، فايران اكثر كثافة سكانية من المنطقة العربية على الساحل الاخر ويشكل شعبها قوة استهلاكية وسوقا هامة للمنتجات البريطانية المصنعة ، اضافة الى اكتشاف النفط فيها قبيل الحرب العالمية الاولى . لقد استطاعت بريطانية ان تحفظ التوازن وتفرض سيطرتها وتوفق بين مصالحهـا الاقتصاديـة واهدافها السياسية في المنطقة ، او فرضت نفوذها على منطقة الخليج العربي بساحليها وشمالها وجنوبها وارتبطت بعلاقات جيدة مع السعوديين في شبه الجزيرة العربية(١) . وكذلك مع حكام الامارات العربية في المنطقة .

ومن الاهمية بمكان ان نذكر هنا ان الاوضاع الاقتصادية كانت محور اهتمام السلطات البريطانية في علاقاتها بالكويت منذ نهاية القرن التاسع عشر ، فقد كانت بريطانية تتعاون احيانا وتضغط احيانا اخرى على الحكام في المنطقة بما يتمشى ومصالحها ، فقد وقعت معاهدة مع شيخ الكويت عام ١٨٩٩ م وكانت العلاقات جيدة بينهما ، ولكنها في عام ١٩١٩ طالبت شيخ الكويت بمبالغ طائلة كرسوم على الارباح

التي حققتها تجارة الكويتيين في الهند ، مما اثار التجار في الكويت واعتبروا ذلك تدخلا في شؤونهم ، ومنذ ذلك التاريخ بدأ اهتمامهم بالوضع السياسي في الامارة وشعورهم بخطر الضغوط البريطانية ووجودها على مصالحهم وعلى البلاد ، لذا تحركوا في العشرينات والثلاثينات مطالبين بحكم نيابي ورفضوا الوجود البريطاني ولكن الحالة في القرن العشرين تختلف عما كانت عليه في القرن التاسع عشر عندما كان الوجود البريطاني سببا في ازدهار الطبقة البورجوازية الخليجية حيث لعب تجار الخليج دورا هاما في نقل التجارة من الهند للمنطقة وقاموا بدور الوسيط لنقل البضائع من الهند الى العراق وداخل شبه الجزيرة العربية ، ولكن هذا الوضع قد تحول منذ منتصف القرن التاسع عشر الى اداة هدم لقطاع من هذه الطبقة وهو القطاع المشتغل بالملاحة ونقل التجارة عند ادخال السفن البخارية حيث تأثرت تجارة السفن الشراعية وصناعتها(٢) .

ان تعهدات الكويت بموجب المعاهدة مع بريطانية في ١٨٩٩ والمعاهدة البريطانية التركية عام ١٩١٣ بالا تقيم علاقات مع أية دولة الا بمشورة بريطانية والا تمنح أية امتيازات نفطية في أراضيها لاية شركة غير بريطانية ، جعل بريطانية تتحكم في السياسة الكويتية وان مثل هذه المعاهدات قد جعلت الولايات المتحدة التي بدأت تخطط بعد الحرب العالمية الاولى لان تكون قوة مؤثرة تستفيد من الثروات النفطية التي بدأت تتدفق في المنطقة ، حيث اخذت تضغط على بريطانية بأن لا تحتكر المنطقة وامتياز النفط فيها ، لقد بدأت كل من شركة النفط الانجلو ـ ايرانية وشركة نفط الخليج الشرقية مباحثات منفصلة مع الكويت عام ١٩٣٠ م للحصول على حق الامتياز في الكويت ، ولقد كانت الشركتان الاولى بريطانية والثانية امريكية تتنافسان في هذا المجال الى درجة ان الشركة الثانية طلبت مساعدة وزارة الخارجية الامريكية للحصول على حق الامتياز بان تطالب الحكومة البريطانية الغاء فقرة ضرورة توفر شرط (الجنسية البريطانية) للشركات التي تتفاوض بشأن حق الامتياز في نفط الكويت(٣) وذلك يعني ان اي فرد أو شركة غير بريطانية ليس لها الحق في الحصول على اي امتياز للنفط في الكويت ، ولكن الادارة الامريكية تحركت في ديسمبر عام ١٩٣١ للتفاوض مع بريطانية تطلب المعاملة بالمثل للمصالح الامريكية في الكويت وان يلغى شرط الجنسية البريطانية أي يلغى احتكار بريطانية للحصول على حق الامتياز لشركات النفط في الكويت . وبعد مفاوضات طويلة ودراسة المصالح المشتركة بين الجانبين تنازلت بريطانية عن هذا الشرط لتفسح المجال امام الشركات الامريكية وكان ذلك عام ١٩٣٢ م . ونتيجة لذلك عملت شركة الخليج الشرقية مع الشركة الانجلو ـ ايرانية على القيام بعمل مشترك وتوصلتا الى تكوين شركة واحدة هي شركة نفط الكويت المحدودة في نهاية عام ١٩٣٣ م . وهذا لا يعني ان كل شركة منهما قد الغت

وجودها الخاص في المناطق الاخرى ولكن فعليا سمح للشركة الانجلو ـ ايرانية استبدال النفط الايراني أو العراقي بالنفط الكويتي اذا رغبت للوفاء بجميع التزاماتها وهكذا أصبح لهذه الشركة الحق في تقرير النسبة الفعلية لانتاج النفط الكويتي طبقا لمصالحها وهذا واضح من توقف الاعمال النفطية في الكويت عام ١٩٤٢ م اضافة الى ان انتاج الكويت من النفط لم يقفز الى اعلى الا عندما ظهرت قضية تأميم النفط الايراني عام ١٩٥١ م عندما اصبحت السوق البريطانية والاوربية بحاجة الى زيادة الانتاج(٤) .

كانت الكويت تعاني من ازمة اقتصادية في الثلاثينات للاسباب التالية :

١ ـ ظهور اللؤلؤ الصناعي الياباني وكساد تجارة اللؤلؤ الطبيعي مما انعكس على تجارته في منطقة الخليج العربي .

٢ ـ انعكاس الازمة الاقتصادية العالمية التي بدأت منذ عام ١٩٢٩ على المنطقة حيث انها كانت تقع تحت السيطرة البريطانية التي تأثرت بتلك الازمة وانها على علاقات تجارية مع الهند وافريقية التي تأثرت بدورها بتلك الازمة .

٣ ـ اكتشاف البترول في الكويت وعدم انتاجه وتصديره حتى نهاية الحرب العالمية الثانية الى ان بدأ تصدير اول شحنة من النفط الكويتي عام ١٩٤٦ م .

٤ ـ الحصار الاقتصادي السعودي على التجارة مع الكويت .

ونتيجة لذلك فقد تعرضت الكويت لضغوط كبيرة في هذه الفترة ، وكانت بريطانية تمسك باستمرار بخيوط الازمة او الانفراج في وضع الكويت او علاقاتها مع الجيران ، لا لانها فقط ترتبط معها بمعاهدة موقعة عام ١٨٩٩ ، ولكن ايضا لان المنطقة تقع بشكل مباشر تحت النفوذ البريطاني فامارات الخليج جميعها تقع تحت الحماية البريطانية ، والانتداب البريطاني ومن ثم الاستقلال السياسي المرتبط بمعاهدة ١٩٣٠ م مع العراق ، وظهور النفط في السعودية ، جعل بريطانية تعمل على تحسين علاقاتها معها ، وايضا لمواجهة النفوذ الامريكي القادم الى هذه المنطقة من خلال الشركات البترولية التي اصبحت تزاحم الشركات البريطانية مما اضطرها الى التنسيق والتعاون معها . كل ذلك كان يدعو بريطانية لتحقيق مصالحها الاقتصادية والسياسية كما أن علاقاتها مع العراق والسعودية ومصالحها كانت تقود الى ضغوط تتعرض لها الكويت .

ويقول H. T. Chisholm في سجل مفاوضات امتياز النفط الكويتي بين بريطانية والكويت ان التنسيق البريطاني الامريكي بشأن نفط الخليج فعليا قد بدأ في عام ١٩٣٩ م(٥) . ان الولايات المتحدة بدأت تتغلغل في المنطقة عن طريق الحصول على حق امتيازات النفط في السعودية خاصة وكانت تلك مقدمة لتغلغل الولايات المتحدة في المنطقة سياسيا وعسكريا فيما بعد .

ان ذلك النفوذ الاقتصادي والسياسي والثقافي خاصة بعد الحرب العالمية الثانية ، قد تصاعد بنمو دور الولايات المتحدة الامبريالي في المنطقة وفي العالم كوريث للاستعمار البريطاني بعد ان افل نجمه وانحسر نفوذه وتراجع ولذا انتقلت منطقة الخليج العربي من النفوذ البريطاني الى النفوذ الامريكي .

العلاقات الكويتية السعودية :

يؤرخ للعلاقات بين الكويت والسعودية وكذلك بين الكويت والعراق اساسا حول قضية الحدود وقد ظهرت مشكلة الحدود في منطقة الخليج العربي مع ظهور البترول او منذ بداية الحرب العالمية الاولى ، وكانت بريطانية تفتعلها او تحلها حيث لعبت دور الوسيط والطرف الاساسي فيها خلال النصف الاول من القرن العشرين(٦) وقد أخذت اثارة مشكلات الحدود طابع الجدية والحدة بعد قيام الدول في المنطقة واصبحت سمة هامة للاستقلال وهي في الحقيقة رمز للتجزئة في هذه المنطقة وفي الوطن العربي .

في الحقيقة لم تظهر حدود ثابتة في منطقة الخليج العربي قبل القرن العشرين فقد كانت اتفاقية بريطانية مع تركية عام ١٩١٣ م اول محاولة لتحديد الحدود السياسية بين المناطق الخاضعة لهما في شرق الجزيرة العربية . واذا كان حكام المنطقة لم يولوا مسألة الحدود في الماضي اهمية خاصة ذلك لان مفهوم السيادة بمعناه القانوني والسياسي والجغرافي لم يكن معروفا لديهم ، فالسيادة في المجتمع العشائري والقبلي ليس لها مبدأ ثابت ومحدد فقد تكون دوافعها قبلية أو دينية او ملكية الارض ، او التبعية في دفع الضريبة او الزكاة ، وكان نفوذ الحكام يمتد على الارض التي تقطنها القبائل التابعة لهم والمستقرة فيها حيث كان الولاء للحاكم وليس للامارة التي يحكمها . هذا الوضع جعل عملية تخطيط الحدود امرا صعبا لتداخل القبائل وعدم استقرارها وكان يؤدي بالضرورة الى عدم استقرار الحدود نفسها اضافة الى ان تلك الحالة تخلق كثيرا من المشكلات التي كان يحلها العرف القبلي أو القوة المسلحة ، فالقبيلة التي يتحول ولاؤها من حاكم لاخر ، يدعي الحاكم

الجديد حقوقا على الاقليم الذي به القبيلة ومن الطبيعي ان يرفض الحاكم الاول الاعتراف بخروج القبيلة عن طاعته ، وبذلك تصبح المنطقة تلك موضع نزاع طويل .
ان الحدود بالمفهوم التقليدي كان معترفا بها حيث كان لكل قبيلة منطقة تقليدية ولكنها لم تكن حدودا واضحة وثابتة ، وتلك الحدود كانت تقوم على اعتبارات عملية الى جانب الاتفاق بين الاطراف المعنية (٧) . ان دراسة التاريخ المعاصر للمنطقة يوضح وبدون أدنى شك ان قيام مشكلات الحدود وتعاظمها جاء مع تعاظم دور بريطانية في المنطقة ولبريطانية دوافعها واهدافها من خلق تلك المشكلات ، فسياستها بشأن الحدود في المنطقة تقوم على اثارة المشكلات والنزاعات الحدودية في بعض الاوقات وتتدخل لحل النزاعات بين الحكام حول الحدود وفي احيان اخرى لا تسمح بتغيير معالم الحدود او حتى النزاع حولها لانها تسعى للحفاظ على الوضع الراهن بما يخدم مصالحها ولكنها في النهاية تكون قد خلقت مشاكل ازلية بين اجزاء المنطقة وعلى راسها مشكلات الحدود .

لقد تم تخطيط الحدود الكويتية السعودية في مشروع اتفاقية ١٩١٣ بين انجلترة وتركية وحال قيام الحرب العالمية الاولى دون التصديق عليه وتنفيذه . وقد اعترفت انجلترة بالسعودية كدولة مستقلة عام ١٩١٥ ونقصد هنا (نجد) فقط لان الدولة السعودية بمفهومها المعاصر لم تكتمل الا عام ١٩٣٢ م . وفي نهاية الحرب العالمية الاولى اثيرت مشكلة الحدود بين السعودية والكويت وتفاوضت السعودية مع بريطانية متجاهلة مطالب الكويت مما ادى الى تدهور العلاقات بين البلدين عام ١٩٢٠ م ، عندما تحركت قوات ابن سعود في هجوم على الكويت متعاونة مع بريطانية وان بريطانية كانت تعلم وتتابع ما يجري وقد كان غرضها ان تتدخل لفض النزاع ولتؤكد باستمرار بأن المشكلات التي تثار بينهما لا يمكن حلها الا بتدخل بريطاني . وبعد تدخل بريطانية وضغطها على القبائل المهاجمة فرضت السعودية حصارا اقتصاديا على الكويت عن طريق حظر التجارة منها واليها(٨) وفي عام ١٩٢١ م انتهت الازمة الكويتية السعودية بوفاة الشيخ سالم وتولي الشيخ احمد الجابر الحكم ، وعقد مؤتمر العقير في ديسمبر ١٩٢٢ م لتسوية المشكلات الحدودية بين ابن سعود من جهة وبيرسي كوكس المقيم السياسي البريطاني في الخليج وتوصلا الى اتفاقية العقير وكانت تسوية مؤقتة لمشكلة الحدود(٩) . ويقول الدكتور حسين البحارنة في كتابه « الوضع القانوني لدول الخليج العربي » ان اتفاقية العقير لم تنفذ ولكنها تبقى الوثيقة الوحيدة التي تحدد المركز القانوني للكويت والسعودية في المنطقة المحايدة . لقد نصت الاتفاقية على أن لكل من حكومتي السعودية والكويت حقوقا متساوية في المنطقة المحايدة ، ولكنها لم ترسم نظاما معينا أو ادارة معينة للمنطقة ،

وظلت سيادة البلد في المنطقة غير محددة ودقيقة مما فسح المجال لنزاعات اخرى فيما بعد بشأنها خاصة بعد اكتشاف النفط فيها(١٠) .

وفي فترة العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين كانت علاقات الكويت بشكل عام جيدة مع كل من بريطانية والسعودية . وفي الثلاثينات بدأ اهتمام بريطانية بالسعودية يقوى بعد ان شعرت بأن الحكم المحلي القوى في المنطقة هو حكم ابن سعود وان بلاده تحتوي على كميات كبيرة من النفط لذا بدأ التنافس البريطاني الامريكي على النفط في كل من السعودية والكويت ولكن المصالح البريطانية استدعت تأجيل انتاج النفط الكويتي الى نهاية الحرب العالمية الثانية فعاد الاهتمام البريطاني بالكويت منذ ذلك التاريخ(١١) بيد انه وان كانت العلاقات بين الكويت والسعودية تبدو طبيعية في الظاهر الا انها اتسمت بالتنافس حتى الحرب العالمية الثانية ، وقد عانت الكويت كثيرا نتيجة ذلك ، ذلك لان اوضاعها الاقتصادية في الثلاثينات كانت سيئة كما سبق ان ذكرنا ، تلك العلاقات في الحقيقة كانت متأثرة الى حد ما بالخلافات التقليدية بين بني خالد والعتوب من جهة ، وبين آل سعود والحركة الوهابية من جهة اخرى . ويرجع تاريخ تلك الخلافات الى القرن السابع عشر والثامن عشر عندما ظهرت الحركة الوهابية وامتد نشاطها ليشمل شبه الجزيرة العربية كلها ، تلك الخلافات امتدت اثارها الى القرن التاسع عشر والقرن العشرين والتي تمثلت في الهجمات المتكررة من داخل الجزيرة على المناطق الساحلية وبخاصة الكويت وكان الوجود البريطاني هو العائق امام الامتداد الوهابي في سواحل الخليج العربي .

ان الانفراج في العلاقات بين الكويت والسعودية لم يبدأ الا بعد ان قررت السعودية رفع الحصار التجاري عن الكويت خلال الحرب العالمية الثانية كما تجدر الاشارة هنا الى أن السعودية والكويت وقعتا اتفاقا امنيا للدفاع المشترك وتشاور البلدين في الامور السياسية والعسكرية عام ١٩٤٧ م .

ولابد هنا من الوقوف عند مسألة العلاقات الاقتصادية بين الكويت والسعودية بشيء من التفصيل ، ان المشكلات الاقتصادية كما أسلفنا اثرت على العلاقات بين البلدين حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، وذلك ان السعودية في فترة ما بين الحربين العالميتين كانت تسعى لمعالجة ازمتها الاقتصادية لذا لجأت الى فرض رسوم على البضائع التي تدخل البلاد أو المارة بها ، وقد اعتاد تجار الكويت قبل رسم الحدود السياسية ان ينتقلوا ويمارسوا نشاطهم بحرية في شبه الجزيرة العربية ، ولما حاولت السعودية اقامة مراكز للتفتيش الجمركي وفرض رسوم على التجارة الكويتية غضب التجار الكويتيون ، ولجأوا الى أساليب عديدة للتهرب من تلك المراكز

حيث مكنهم طول الحدود وتعذر مراقبتها من ذلك ، ولما لم تستطع السعودية من التحكم في التجارة الكويتية الى داخل الجزيرة قررت فرض حصار اقتصادي على الكويت * ومنع رعاياها من التعامل معها لكن حتى هذا الاجراء لم يوقف عملية التهريب التي لجأ اليها التجار الكويتيون وكانت السلطات السعودية تشتكي باستمرار من هذا الوضع لدى السلطات الكويتية والبريطانية . وحاولت السلطات السعودية وضع مراقب سعودي في جمرك الكويت وتحصيل الرسوم من التجار الكويتيين الا انها لم تفلح . رغم ان ذلك الحصار لم يوقف التجارة الكويتية من الدخول الى الجزيرة الا انه قد حد من نشاطها وتأثرت كثيرا بذلك ، والحقيقة ان ضعف الاوضاع الاقتصادية في كل من السعودية والكويت كان وراء تلك الازمات فالكويت تعتبر التجارة مصدرها الاقتصادي الاساسي آنذاك والسعودية كانت تضطرها اوضاعها الاقتصادية كذلك قبل النفط ان تتحرك للاستفادة من النشاط الاقتصادي في بلادها أو في الكويت المجاورة لها (١٢) .

ان التنافس بين البلدين قد عاد ثانية في الفترة الممتدة من منتصف الخمسينات الى منتصف الستينات من هذا القرن ويرجع ذلك الى رغبة الكويت الاستقلال عن تأثير السعودية عليها .

ومن المعروف ان هذه الفترة قد واكبت المد الوطني القومي في الوطن العربي الساعي الى التحرر والاستقلال والتخلص من الوجود الاستعماري السياسي والعسكري ، وانعكاس ذلك الجو على الكويت اضافة الى نشاط الحركة الوطنية في الكويت والذي بلغ قمته في هذه الفترة . ولقد ذكرنا ان مشكلات الحدود بين السعودية والكويت بقيت تشكل ضاغطا على البلد الاصغر وهو الكويت حيث ان الاتفاقيات التي وقعت بشأنها في فترة ما بين الحربين لم تؤد الى حلها نهائيا ولكن تم التوصل الى حلها من جميع النواحي من حيث الارض والنفط والادارة عام ١٩٧٥ م (١٣) .

انه من المهم ان نذكر هنا أن بريطانية قد توسطت اثناء الحرب العالمية الثانية لانهاء الحصار الاقتصادي السعودي للكويت ، ففي عام ١٩٤٢ م نجحت في اقناع

---

* ان الحصار الاقتصادي السعودي على الكويت والازمة الاقتصادية التي مرت بها في العشرينات والثلاثينات كانت لها انعكاساتها ليس فقط على التجار انما على المواطن العادي حيث نتج عنها انخفاض الاجر وعدم توفر السلع الضرورية كما أن الازمة هذه كانت لها أسبابها السياسية وترتبت عليها نتائج سياسية والاوضاع الاقتصادية كانت من أسباب حركة المجلس ١٩٣٨ م .

الطرفين بعقد معاهدة الصداقة والتجارة بين البلدين كما أدت مساعيها الى توقيع معاهدة اخرى عام ١٩٤٧ ، هي معاهدة دفاع مشترك وامـن كما سبق ذكرها .
ونستنتج من تطور الاحداث بهذه الصورة ما يلي :

أولا : ان بريطانية كانت في صورة الاحداث التي تجري في المنطقة باستمرار وتؤثر فيهـا .

ثانيا : ان بريطانية كانت تتدخل في تلك الاحداث وتوجهها بما يخدم مصالحها وهي تتدخل في الوقت المناسب لحلها أو لتجميدها عندما ترى ان من مصلحتها ذلك .

ثالثا : ان ظهور النفط وانتاجه وتصديره ووفرته في الارض ، في هذه المنطقة ، جعل بريطانية تسعى للتأثير على علاقات الكويت والسعودية باتجاه تهدئة الاوضاع وتوثيق العلاقات بين البلدين ، ثم هي من جهة اخرى وقانونيا كما تدعي ، تتدخل لانها ترتبط مع الكويت في معاهدة ١٨٩٩ م التي تنص على اشراف بريطانية علـى السياسة الخارجية للكويت .

رابعا : ان سياسة الحفاظ على الوضع الراهن التي تنتهجها بريطانية في المنطقة تتطلب مقاومة أي حالة عدم استقرار قد تغير من معالم الخريطة الخليجية وبذلك تكون لها نتائج سلبية على مستقبل المصالح البريطانية في المنطقة .

وفي المحصلة النهائية ان بريطانية كانت الرابح الاساسي في المنطقة في النصف الاول من القرن العشرين في المرحلتين ، قبل النفط وبعد انتاجه وتصديره .

العلاقات الكويتية العراقية :

كما أن العلاقات الكويتية السعودية لها جانبان سياسي واقتصادي وتركزت حول الحدود فان العلاقات الكويتية العراقية اتخذت نفس الطابع تقريبا مع الفارق بين الاوضاع السياسية والاقتصادية في كل من العراق والسعودية في فترة ما بين الحربين العالميتين .

قبل بحث العلاقات الكويتية العراقية علينا أن نتحدث عن طبيعة الاوضاع في العراق والكويت في المرحلة التي نعالجها .

بعد الحرب العالمية الاولى والتي انتصر فيها الحلفاء تم احتلال العراق مـن قبل بريطانية . وبريطانية كانت تدرك أهمية العراق الاستراتيجية والاقتصادية .

وكانت العشرينات والثلاثينات كما قدمنا في بداية هذه الدراسة هي فترة تكوين ونشاط القوى السياسية الحزبية الوطنية والقومية في الوطن العربي من أجل الاستقلال والتحرر من الاستعمار وكان العراق في الثلاثينات معقل العروبة والنشاط القومي لذلك كان له تأثيره على المناطق العربية وبخاصة المجاورة له وبشكل أخص على المثقفين في تلك المناطق وكانت الكويت الاقرب الى ذلك التأثير لوجود علاقات اقتصادية واجتماعية وثقافية بين البلدين ، كما أن الاستعمار البريطاني الذي يحتل العراق هو نفسه يرتبط بالكويت بمعاهدة وقعت عام ١٨٩٩ م ، وان الكويت محمية بريطانية ولبريطانية مصالحها وان اختلفت في درجتها ومراميها .

ان موقع الكويت له أهمية خاصة حيث تقع على رأس الخليج العربي بين السعودية والعراق(١٤) . لقد كان المد الوطني والقومي ينمو ويتعاظم في العراق ضد الوجود الاستعماري امتدادا لحركة وطنية في كل الوطن العربي في مشرقه ومغربه وتفاعل النشاط السياسي مع العنف المسلح في أغلب اجزاء الوطن العربي ضد الاستعمار وخلق جوا وطنيا وقوميا في الساحة العربية كلها .

فمن **الناحية السياسية** كان تأثير المد الوطني والقومي للقوى السياسية في العشرينات والثلاثينات على نخبة من الشباب الكويتي واضحا خاصة وان بعضهم قد تلقى علومه في بغداد في تلك الفترة واقتنع الكثيرون منهم بفكرة الاتحاد مع العراق . **اجتماعيا** : ـ هناك علاقة الجوار وترابط القبائل والامتزاج السكاني خاصة بين الكويت وجنوب العراق ، وقد سكن الكويت كثير من أهل هذه المنطقة كما سكن بعض الكويتيين البصرة ، وكانت لبعض التجار أملاك في بساتين النخيل فيها . **اقتصاديا** : ـ كانت التجارة القادمة من الهند عبر الخليج العربي والقادمة من نجد والذاهبة اليها تتم في الغالب على يد تجار الكويت . لقد لعب الكويتيون دورا في التجارة بين نجد والعراق والتي اتخذت من منطقة الزبير في البصرة للاستراحة ، كما كانت المنتجات الزراعية العراقية ترد الى الكويت بالاضافة الى جلب مياه شط العرب(١٥) والذي بدأ منذ بداية القرن العشرين .

وقد تطورت العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بين الكويت والعراق ، خاصة وأن العراق يتمتع بوضع اقتصادي جيد .

كان الماء يجلب من شط العرب بواسطة السفن الشراعية ، وقد تشكلت (شركة ماء الكويت) عام ١٩٣٩ م وبلغ عدد سفنها عام ١٩٤٦ م خمسا وثلاثين سفينة أغلبها من نوع (الدوب) وكانت تفرغ حمولتها في خزانات اقامتها الشركة في جون الكويت بالاضافة الى مياه الامطار التي تختزن في البرك ، كما أن شركة نفط الكويت تقوم بتقطير كمية من الماء يستفاد منها للشركة ولبعض المواطنين (أنظر يوسف عبد المحسن التركي ، لمحات من ماضي الكويت يناير ١٩٧٩ ص ٥٣ ـ ٥٤ .

ان التجارة كانت الاساس في العلاقات بين الكويت وكل من العراق والسعودية، فقد اتسمت التجارة الكويتية مع السعودية بأسلوب التهريب بعد الحصارالاقتصادي كما انها لجأت الى التهريب مع العراق ، وقد كان التهريب عاملا مؤثرا في العلاقات الكويتية العراقية .

ان نظم التجارة بين البلدين مختلفة فالكويت تأخذ بنظام التجارة الحرة ووضع حد أقصى للضرائب على الواردات ، بينما تأخذ العراق بنظام الحماية الجمركية ، وكانت القبائل بين البلدين تقوم بالتهريب ويصعب التحكم فيها ولم تكن الكويت لتريد تأزيم علاقاتها مع العراق لاسباب عديدة أساسها مصالحها الاقتصادية في العراق ، وثانيها وجود المظلة البريطانية(١٦) . وبعد ظهور النفط في الكويت بكميات كبيرة لم يعد للتجارة مع العراق أهمية وتضاءلت . أما الافكار التي كان يحملها أولئك الشباب فقد انتهت بسبب حوادث حركة المجلس عام ١٩٣٨ م وبسبب ظهور النفط وطبيعة الاوضاع السياسية التي سادت العراق في الخمسينات والستينات .

لقد كان من الطبيعي ان يكون لعراق الثلاثينات والاربعينات تأثير على شعب الكويت أو غيره من الاقطار العربية في المشرق العربي ذلك لان قوى العراق الوطنية حاولت ، رغم ان البلاد كانت تقع تحت الهيمنة البريطانية ، اعادة صياغة المجتمع العراقي في النواحي السياسية والاجتماعية والتربوية باتجاه وطني وقومي ، ولما كانت تلك الاتجاهات تمس الوجود البريطاني فقد تحركت السلطات البريطانية لمواجهة الحركة الوطنية في العراق لان الاتجاه الوطني والقومي قد ركز على العملية التربوية والتعليمية(١٧) ، ادراكا منه بأهميتها في تربية جيل وطني وقومي فلقد كانت ولاتزال مشكلة وطننا العربي الاساسية هي التربية والتعليم فاذا سيطرت عليها عقليات متخلفة استطاعت ان ترجع المجتمع الى الوراء بتخريج اجيال مدجنة بعد تفريغ التعليم من محتواه الحقيقي التربوي والوطني والقومي وهذه العملية لها علاقة وثيقة بسياسة الحكومات العربية وأهدافها القريبة والبعيدة من التعلم .

هذه الاجواء السياسية الوطنية القومية التي كان يعيشها العراق في تلك الفترة كان لها تأثيرها على شباب الكويت لانها ساعدت على تكوين الحركة الوطنية في الكويت في الثلاثينات ونمو نشاطها .

وقضية الحدود بين الكويت والعراق كانت من المشكلات بين البلدين التي تثار بين الحين والاخر ، لقد بدأت قضية الحدود منذ ١٩٢٣ م حيث تمت مراسلات بين الشيخ احمد الجابر مع المندوب السامي البريطاني في العراق بيرسي كوكس

حول الحدود الكويتية العراقية ، لم تؤد الى نتائج لان بريطانية كانت تسعى الى ابقاء الامور على ما هي عليه ، اي الابقاء على الوضع الراهن في فترة ما بعد الحرب العالمية الاولى ، وتم تبادل رسائل بين رئيس وزراء العراق والشيخ احمد الجابر عام ١٩٣٢ م ، أدت الى الاعتراف بحدود الكويت ولكنها لم تخطط او ترسم ، كما أن تفاهما بشأنها قد حدث قبل استقلال الكويت ، بين الكويت والعراق وبين الكويت والسعودية(١٨) . ولكن المشكلة التي بقيت معلقة هي ترسيم الحدود والتي تجري المشاورات بشأنها .

وضمن تلك العلاقات قضية جلب مياه شط العرب الى الكويت ، وقد كان فكرة ومشروعا يمتد الى بداية الخمسينات ولكنه قد تعثر ولا يزال ، لاعتبارات سياسية ، ويحتاج تنفيذه الى قرار سياسي يعتمد أساسا على طبيعة العلاقات بين البلدين ، وهو مشروع هام وحيوي بالنسبة للكويت .

حركة المجلس ١٩٣٨ م والعلاقات الكويتية مع الجيران :

هناك اربعة عوامل لها علاقة عضوية بحركة المجلس الاصلاحية بالكويت عام ١٩٣٨ م .

١ ـ الوضع الاقتصادي المتردي في الكويت في العشرينات والثلاثينات نتيجة الحصار الاقتصادي السعودي على الكويت وظهور اللؤلؤ الصناعي الياباني في الاسواق العالمية ، مما كان له تأثير مباشر على تجارة اللؤلؤ الطبيعي في منطقة الخليج العربي .

٢ ـ طبيعة العلاقات مع السعودية بسبب مشكلات الحدود والتجارة بين البلدين وهجمات القبائل .

٣ ـ تطور الاوضاع في العراق والوطن العربي حيث شهدت فترة ما بين الحربين نمو الحركة الوطنية وتصاعد المد الوطني القومي ضد الوجود الاستعماري .

٤ ـ وجود الاستعمار البريطاني الذي كانت المنطقة بشكل او باخر تخضع لنفوذه .

هذه هي العوامل التي كان لها تأثير مباشر على تطور الحركة الوطنية في الكويت وحركة المجلس والنهاية التي انتهت اليها .

ولا نريد ان ندخل في تفاصيل هذه الحركة ذلك لان عددا من الكتاب قد تناول هذه القضية مثل الدكتور احمد حسن جودة والدكتور صلاح العقاد والداكتور محمد الرميحي والسيد خالد العدساني والاستاذ جاسم الصقر والسيد راشد الفرحان والدكتور خليفة الوقيان(١٩) .

ولكن من الضروري ان نتوقف عند هذه العوامل الاربعة التي ذكرناها لنستخلص منها بعض النتائج الهامة .

لقد سبق ان أوضحنا ان الكويت كانت في تلك الفترة تمر بازمة اقتصادية وكانت ضغوط السعودية كبيرة تمثلت في :

أ ــ هجمات القبائل على الكويت .

ب ــ الحصار الاقتصادي السعودي .

جـ ــ اتفاقية العقير حول الحدود والتي خسرت الكويت مساحة كبيرة من الارض نتيجة المساعي البريطانية واستمر موقفالسعودية من حركةالمجلس الاصلاحية فقد كانت ضد المجلس واتجاهاته الاصلاحية .

العقبات التي واجهت المجلس :

تتلخص العقبات التي واجهت الحركة الاصلاحية في الكويت **بالاستعمار البريطاني** اولا ، لان مطالبة المجلس بالاشراف على الاتفاقات والمعاهدات التي تبرمها الحكومة مع الخارج تتعارض مع معاهدة الكويت مع بريطانية ١٨٩٩،ذلكانها اولا ربما تنتهي تلك المطالبة الى مشاركة شعبية حقيقية تمتد وتتسع فتؤثر علىالوجودالاستعماري. وثانيا ان المعاهدة البريطانية الكويتية تنص على الا تعقد اتفاقيات او معاهدات بدون استشارة بريطانية ، وهذه كانت تخشى ان تتطور الامور بحيث تؤثر علىمصالحها الاقتصادية لانه في ذلك الوقت قد تم اكتشاف النفط في الكويت .

السعوديـة :

لقد كانت السعودية معارضة للحركة الاصلاحية في الكويت ومبعث ذلك الموقف هـو :

أ ــ الخوف من امتداد (العدوى) او مثل هذه الاتجاهات الوطنية الى شبه الجزيرة خاصة وانه قد ظهرت حركات اصلاحية مماثلة انذاك في كلمن دبي والبحرين

ب ـ وجود عناصر مؤيدة للعراق بين اعضاء المجلس والتعاطف بين الحركة الوطنية في الكويت والعراق مما كان يقلق نظام الحكم في السعودية(٢٠) .

ثالثا : الحكم في الكويت الذي فسح المجال لانتخاب مجلس تشريعي والذي قام باصلاحات كثيرة وهامة في المجال الاداري ، ولكنه تحرك بعد فترة قصيرة من عمر المجلس للقضاء على التجربة التشريعية نتيجة ظروف داخلية وخارجية ، أساسها ان أعضاء المجلس ، كما ذكر الاستاذ جاسم الصقر ، قد وقعوا في بعض الاخطاء وقد كانت بعضها أخطاء جسيمة نتيجة عدم فهم الظروف السياسية التي كانت تعيشها الكويت لانها كانت تحت الحماية البريطانية وقلة التجربة والممارسة على أرضية الواقع (٢١)

رابعا ـ معارضة الشيعة للمجلس ويقول الدكتور صلاح العقاد بهذا الصدد لقد كون الشيعة عنصرا معارضا للحركة (حركة المجلس ١٩٣٨ م) وذلك لان واضعي قانون المجلس قد ميزوا بين الشيعة والسنة فكان حق الشيعة مقصورا على الانتخاب دون الترشيح للنيابة واصرار المجلس على تنحية السكرتير الخاص للشيخ وهو من أصل فارسي (٢٢) ويقدر عددهم في ذلك الوقت حوالي ثلث السكان ، فقد تحرك هؤلاء في مظاهرة صاخبة طافت شوارع المدينة وطالبت بسقوط المجلس التشريعي (٢٣) .

انه من الصعب التحدث عن الاوضاع في الكويت دون ربطها بالاوضاع العربية وان دراسة تاريخ الكويت المعاصر توضح لنا ان الاوضاع العربية سلبية كانت أم ايجابية لها انعكاساتها على الكويت فلم يكن أي حدث اجتماعي او اقتصادي أو سياسي في الكويت الا وله علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالاوضاع في البلاد العربية القريبة والبعيدة .

ونحن اذ نتكلم عن الاوضاع في الكويت وعلاقاتها علينا أن ندرك الاهمية الكبرى لتطور الحركة الوطنية ونضالها الفكري والسياسي والمسلح في الوطن العربي في الفترة التي نعالجها .

لقد كانت القوى الوطنية في المشرق العربي والمغرب العربي في عنفوان قوتها ونشاطها في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن .

ولو أجملنا الاحداث الهامة التي شهدتها الساحة العربية في هذه الفترة نجد ما يلي :

١ ـ دخول التعليم الحديث وتأثيره في الوعي السياسي في الوطن العربي .

٢ ـ نمو وتطور الشعور الوطني والقومي نتيجة وعي النخبة والتي كانت تنمو في البورجوازية الكبيرة والصغيرة ومن ثم من خلال طبيعة الصراع مع الاستعمار وقوى التخلف في البلاد العربية ، كما أن الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية وعملية الصراع بين الطبقات الاجتماعية المستغلة والمستغلة وبينها وبين الوجود الاجنبي المتمثل في الاستعمار التقليدي بأشكاله وأساليبه المختلفة قد دفع بالوضع العربي الى مرحلة ارتفاع درجة حرارة الصراع وتراوح نشاط القوى الوطنية مابين الاسلوب السياسي من أجل الاستقلال وبين العنف المسلح .

٣ ـ اندلاع المقاومة المسلحة الليبية ضد الاستعمار الايطالي في الفترة ١٩١٤ ـ ١٩٣٢ .

٤ ـ ثورة سعد زغلول في مصر ١٩١٩ ضد الاستعمار البريطاني .

٥ ـ ثورة العشرين في العراق ١٩٢٠ ضد الاستعمار البريطاني .

٦ ـ المقاومة المسلحة في المغرب الاقصى (مراكش في الفترة ١٩٢١ ـ ١٩٣٠ م) ضد الاستعمار الفرنسي والاسباني .

٧ ـ ثورة الشعب السوري ضد الاستعمار الفرنسي ١٩٢٥ م .

٨ ـ تكوين ونمو الاحزاب السياسية في العشرينات والثلاثينات في المغرب العربي : نجمة شمال افريقية ، حزب الشعب الجزائري ، حزب الدستور التونسي ، حزب الاستقلال المغربي ، وفي المشرق العربي نمت أحزاب وقوى سياسية عديدة في كل من الشام والعراق ومصر في تلك الفترة .

وقد أسهم كفاح تلك القوى الوطنية ضد الاستعمار في بلورة الوعي السياسي في الساحة العربية كلها .

٩ ـ ثورة فلسطين عام ١٩٣٦ م ضد النشاط الصهيوني العالمي المتمثل في الهجرة والاستيطان اليهودي في فلسطين وضد الانتداب البريطاني في فلسطين المتواطيء مع الصهيونية العالمية .

١٠ ـ الحربين العالميتين الاولى والثانية وانعكاس احداثهما على الوطن العربي حيث أن الوطن العربي كان ساحة حرب بين القوى المتصارعة وأن ابناءه خاصة في المغرب العربي قد جندوا في هاتين الحربين وقاتلوا في بلادهم وخارجها في

حروب لامصلحة لاوطانهم بها ، كما أن الازمات الاقتصادية والسياسية والعسكرية لها انعكاساتها خلال الحربين على الوطن العربي لانه كان يقع تحت نفوذ القوى الاستعمارية ولابد في حالة الحرب من استخدام امكانياته وطاقاته البشرية والاقتصادية والجغرافية ونريد أن نقول أن هذا الوضع كان سلاحا ذا حدين فطبيعة الصراع قد خلقت وعيا سياسيا بدأ يطرح أسلوبا جديد متطورا في الكفاح الوطني وأن طبيعة الصراع قد خلقت طبقات اجتماعية جديدة أو أفرزها الصراع وحدد معالمها وتهيأت لتلعب دوراً مكملا لدور الطبقات التي تصدرت العمل الوطني في مراحله الاولى .

ان البعض يحاول أن يصور المرحلة على أنها مرحلة صراع سياسي ولا دخل للصراع الاجتماعي فيها لانها مرحلة التصدي للاستعمار ، ان نظرة هذا البعض قصيرة ومحدودة ولاترى أبعاد المشكلات والاحداث الحقيقية ومسبباتها فاذا كانت نتائج الصراع سياسية فلا يعني أن طبيعة الصراع سياسي بحت واذا كتب التاريخ من وجهة نظر سياسية بحتة ، فذلك لايعني ايضا أن ليس للاوضاع الاجتماعية والاقتصادية دخل في تطور الاحداث السياسية واذا كان وعي الحركة الوطنية وممارساتها واشتراك مختلف الطبقات في الصراع ضد الاجنبي المستعمر فذلك لا يعني بأي حال استبعاد العامل الاجتماعي والاقتصادي ، لابل يؤيده ويعضده ولنأخذ مثلا واحدا فقط وهو أن المقاومة المسلحة في كل من ليبيا والمغرب الاقصى وقبلهما الجزائر كانت أساسا بسبب استيطان الارض وانتزاع الارض من الفلاح وأننا اذا تعمقنا اليوم في تحليل المشكلات السياسية القائمة في الوطن العربي نجد ان اسبابها اساسا اقتصادية واجتماعية اضافة الى العوامل الاخرى .

وقد يتصور البعض أنه نتيجة لطبيعة الاوضاع والعزلة والتخلف وقلة وسائل الاعلام فان ماكان يحدث في ليبيا وغيرها من أقطارنا العربية بعيد عنا . أبدا لقد كان الشباب المثقف يعيش أحداث امته منذ ذلك الوقت المبكر وقراءة سريعة للشعر الكويتي في تلك الفترة أو فترة مابين الحربين العالميتين يوضح لنا مدى التفاعل الحي والواعي في أرجاء وطننا العربي(٢٤) .

نكبة فلسطين :

لقد كان عام ١٩٤٨ م نقطة تحول في التاريخ المعاصر للبلاد العربية تمثلت باغتصاب فلسطين واقامة الكيان الصهيوني في فلسطين وكانت خاتمة مرحلة من تاريخ العرب المعاصر وبداية مرحلة اخرى منه ، حيث شهدت مرحلة مابعد النكبة ثورات في الوطن العربي (ثورة مصر ١٩٥٢ م ، ثورة الجزائر ١٩٥٤ م ، ثورة

العراق ١٩٥٨ م ، الوحدة المصرية السورية ... الخ) كما شهدت المرحلة التالية للنكبة نموا في وضع الحركة الوطنية ففي الوقت الذي كانت فيه البورجوازية الكبيرة الى جانب البورجوازية الصغيرة ضد الاستعمار تصدرت البورجوازية الصغيرة هذا الكفاح في الخمسينات والستينات ، وكان لتلك الاوضاع انعكاساتها المباشرة وغير المباشرة على مثقفي الكويت .

لقد عاشت الكويت فترة ركود في نشاط الحركة الوطنية بعد سقوط المجلس التشريعي عام ١٩٣٩ م . واستمرت تلك الفترة حتى بداية الخمسينات عندما بدأ النشاط السياسي يدب فيها من جديد بعد نكبة فلسطين ، فقد وفدت الى الكويت أعداد كبيرة من الفلسطينيين والعرب ، وقد واكب ذلك أحداث في الساحة العربية كان لها تأثيرها على الجو السياسي في الكويت وبخاصة ثورة الجزائر والعدوان الثلاثي على مصر وقيام الوحدة الاندماجية بين مصر وسورية .

لقد كان من الطبيعي ان تبدأ الحركة الوطنية في الكويت في ظل هذه الاجواء ببناء تنظيمات سياسية فبدات منذ بداية الخمسينات التنظيمات القومية وكانت لها نشاطات علنية من خلال النادي الثقافي القومي والصحف الوطنية وكذلك في النوادي الرياضية التي كان لها دور ثقافي وسياسي في الخمسينات .

وكما عاشت الحركة الوطنية في الكويت فترة من الركود والانحسار بعد حركة المجلس التشريعي عام ١٩٣٨ حتى بداية الخمسينات ، عادت الى الركود والانحسار ثانية بعد عام ١٩٥٩ م عندما اغلقت الصحف الوطنية والنوادي الرياضية والثقافية . ولكن هذه الفترة لم تكن طويلة حيث بدا الانفراج مع الاستقلال والانتخابات العامة للمجلس التأسيسي عام ١٩٦١ .

أيضا علينا أن نربط هذا الوضع بالوضع العربي ذلك أن الانتكاسات في الساحة العربية قد بدت في الخمسينات والستينات بانحراف ثورة العراق الوطنية عام ١٩٥٩ م ومن ثم جاء سقوط أول تجربة وحدوية في تاريخ العرب المعاصر عام ١٩٦١ م .

وانتهت مرحلة لتبدأ مرحلة صعود في العمل الوطني في الساحة العربية بانتصار ثورة الجزائر والانفراج في الوضع السياسي الى حد ما في الساحة العربية ولكن هذه المرحلة انتهت عام ١٩٦٧ م بالهزيمة الكبرى والتي تلتها هزائم متلاحقة لانزال نعيشها .

العلاقات الكويتية مع الاقطار العربية الاخرى :

ان علاقات الكويت مع الاقطار العربية الاخرى عدا العراق والسعودية في الثلاثين سنة قبل الاستقلال كانت أساسا علاقات شعبية أكثر منها رسمية بدأت مع الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦ م مع ميلاد وتطور الوعي الوطني القومي لدى الشباب الكويتي في الثلاثينات ، قامت الثورة الفلسطينية ضد النشاط الاستيطاني اليهودي وضد الوجود الاستعماري البريطاني المتعاون معه ، وكان لتلك الثورة صداها في الكويت وقد تمثل ذلك في التأييد والدعم للثورة ، لقد ساهم الشباب الكويتي بعملية تهريب السلاح الى الثورة الفلسطينية عبر العراق وقد وثق ذلك أكرم زعيتر في يومياته حيث قال :

« لقد عقدنا اجتماعا خاصا مع متصرف البصرة تحسين علي بحضور الدكتور وحيد حقي ، رسمنا خطة العمل وتذاكرنا في موضوع سفري وفخري وكاظم الى الكويت من البصرة فأبدى استعداده لتأمين وسائل السفر صارحه كاظم ببعض أسباب السفر وما يرجى من مساعدة على تسريب مايمكن جلبه من الكويت من سلاح فاستعد ورسم الخطة وقال انه حين يتلقى برقية من الكويت مؤذنة برجوعنا وموعده فانه سوف يخرج هو بسيارته ومعه حرسه لاستقبالنا على الحدود في مكان اسمه (صفوان) وبذلك تتم حماية ماسنحمله من الكويت للثورة الفلسطينية »(٢٥) . وأكد ذلك الدور للحركة الوطنية الكويتية في هذا الدعم الاستاذ جاسم الصقر في محاضرته في رابطة الاجتماعيين في بداية موسمها الثقافي لهذا العام .

وتصاعدت موجة الغضب على الصهيونية واليهود مما ادى الى طرد اليهود من الكويت بعد قيام الثورة الفلسطينية ، لقد كان عدد اليهود في الكويت حوالي ٦٠ يهوديا في بداية القرن العشرين كما ذكرت مجلة المشرق التي كانت تصدر في دمشق في عددها ١٠ أيار ١٩٠٤ م ولكن عبد العزيز رشيد في كتابه تاريخ الكويت ، يقدر عددهم بمائة وخمسين يهوديا ، ولكنه لم يحدد التاريخ كما انه يختلف مع بعض الكتاب في رحيل اليهود من الكويت ، فبعضهم يقول بانهم طردوا بعد ثورة فلسطين عام ١٩٣٦ م وطرد ماتبقى منهم بعد احتلال فلسطين عام ١٩٤٨ م ولكن عبد العزيز رشيد يقول انهم اضطروا الى النزوح عن الكويت واحد بعد الاخر لان الكويتيين لم يتعمقوا في التعامل معهم(٢٦) كما أرسل الشيخ احمد الجابر برقية بتاريخ ١١-٧-١٩٣٧ م الى اللجنة العليا في فلسطين تنص على استعداده للقيام بالواجب للمساعدة الممكنة(٢٧) .

وقام الكويتيون بجمع التبرعات للثورة الفلسطينية وتقول روز ماري سعيد في دراستها الخليج والقضية الفلسطينية ١٩٣٦ ـ ١٩٤٨ م ، انه قد تم جمع التبرعات من الشعب الكويتي وارسلت للثورة الفلسطينية عن طريق صحيفة (الناس) التي كانت تصدر في البصرة ، وأعلنت الصحيفة ان مجموع التبرعات من الكويت قد بلغ (٢٠٠) دينار عراقي وذلك في يوليو ١٩٣٦ م(٢٨) .

لقد وفدت اعداد كبيرة من الفلسطينيين الى الكويت في الخمسينات واستقبلتهم الكويت وهي تعيش نهضتها الثقافية والعمرانية وكان لهم دور هام في هذه النهضة .

أما علاقة الكويت الثقافية وفي ميدان التعليم مع الاقطار العربية فقد كان لها تأثير هام في تطور الوعي السياسي لدى المواطن الكويتي ومواكبة أحداث أمته والتفاعل معها ، ولابد من الوقوف قليلا عند قصة التعليم في هذه الفترة وتأثيرها .

ان أول بعثة غادرت الكويت لطلب العلم اتجهت الى العراق في عام ١٩٢٥ م وتأثر هؤلاء الشباب بالاحداث السياسية على الساحة العراقية والتيارات الفكرية الجديدة فتولد الوعي القومي لديهم مما دفعهم بعد عودتهم الى العمل لتغيير نمط الفكر التقليدي السائد وبعث الروح القومية وفكرة الوحدة العربية ، فكانوا ضمن الجماعة التي شكلت تنظيما سريا بالكويت اسمته (الكتلة الوطنية) وقد هيأ لها الجو السياسي في العراق مجالا خصبا من الناحية الاعلامية ، فاذاعة قصر الزهور التي كان يشرف عليها الملك غازي كانت تساندهم مع الصحافة العراقية حيث كانت المقالات يكتبها عناصر من الكتلة باسماء مستعارة وطبعوا المناشير السرية في البصرة لتوزيعها في الكويت أثناء أزمة عام ١٩٣٨ م .

واذا كانت أول بعثة دراسية كويتية غادرت الكويت قد اتجهت الى العراق لتلقي العلم في تلك الفترة الهامة والوعي السياسي في العراق تبلور بتكوينه الاحزاب السياسية والمد الوطني والقومي يتصاعد ضد الاستعمار . فان أول بعثة التدريس قد قدمت الى الكويت عام ١٩٣٦ م كانت من فلسطين وفي العام الذي اندلعت فيه الثورة الفلسطينية ضد الانتداب وضد الهجرة الصهيونية ، في بلد يتصاعد فيه الصراع بين الشعب الفلسطيني العربي وبين القوى الامبريالية والصهيونية ، ويترك انعكاسه بدون شك على الاوضاع في الكويت . وقدمت البعثة الثانية للتعليم من مصر عام ١٩٤٢م خلال الحرب العالمية الثانية . كما أن البعثة الكويتية لتلقي العلم قد ذهبت الى مصر وبيروت في الاربعينات في هذا الجو الوطني والقومي المتأجج الذي شهد نكبة فلسطين ثم تأتي البعثة التعليمية المصرية الثانية بعد ثورة مصر عام

١٩٥٢ تلك الحركة التي بدأت خطوات تحررية حقيقية ضد الاستعمار والتخلف وخلقت، جوا سياسيا وطنيا وقوميا كان له انعكاساته في الوطن العربي خاصة وان هذا المد قد واكبته أحداث هامة في الساحة العربية في الخمسينات .

تلك الاحداث المتلاحقة والهامة كان لها تأثيرها على الشباب الكويتي الذي عاش أجواءها وتنفس منها وتشرب فكرها الوطني والتحرري . ونستطيع القول ان التعليم في الكويت منذ بدايته حتى بداية الستينات قد واكب أحداثا وطنية هامة في الوطن العربي وأصبحت بذور الوعي القومي والوحدوي والاجتماعي راسخة .

وعلى المستوى الرسمي بدأت الكويت تبني علاقاتها مع الدول العربية منذ بداية الخمسينات بالتعاون مع جامعة الدول العربية في شؤون والثقافة والاقتصاد قبل ان تكون عضوا فيها . وأنشأت مكتبا لمقاطعة اسرائيل وعقد مؤتمر ضباط اتصال المكاتب الاقليمية لمقاطعة اسرائيل دورة له في الكويت في الفترة مابين ١٨ ــ ٣٠ اكتوبر ١٩٥٨ م .

وقام السيد فرحات عباس رئيس الحكومة الجزائرية المؤقتة بزيارة للكويت في عام ١٩٥٩ لتثمين الدعم الذي قدمته الكويت للثورة الجزائرية .

كما ساهمت الكويت في اجتماعات المجلس الاقتصادي العربي منذ يناير ١٩٥٩. ومن ضمن القضايا الهامة في العلاقات الكويتية العربية فتح ابواب الكويت للاخوة العرب للعمل فيها(٢٩) ولاشك في أن التفاعل العربي خلال الخمسينات والستينات داخل الكويت (علاقات العرب بالكويتيين) قد تبلور في مفاهيم قومية واجتماعية أرقى بكثير مما عرفته المنطقة خلال عزلتها القسرية عن أمتها العربية تحت السيطرة الاستعمارية .

وكان للوجود العربي في الكويت دور في نمو وتطور الحركة الوطنية ، لـذا كانت السلطات البريطانية قلقة من هذا الوضع الذي قد يؤثر على مصالحها الحيوية فيها مستقبلا وقد عبر عن ذلك القلق المستر ديكسون الوكيل السياسي البريطاني السابق في الكويت والممثل لشركة بترول الكويت فيما بعد بقوله « ان الحركات الاجتماعية والسياسية التي تحققت في مصر وغيرها من بلاد الشرق الاوسط أتت ثمارها في هذه المنطقة (بعد ثورة ١٩٥٢) وانها لابد آخذة مجراها الطبيعي وبالغة غاياتها .. ان الخطر المباشر المحدق بالكويت والمهدد للاستعمار البريطاني خاصة هو التقاء العرب من المناطق الاخرى مع الكويتيين في منطقتهم ، وان الشعار السائد الآن هو الجزيرة للعرب والكويت للكويتيين »(٣٠) .

ومع ان النفوذ البريطاني بدأ يتقلص بعد الحرب العالمية الثانية الا ان السلطات البريطانية كانت تدافع عن مصالحها وسياساتها حتى النهاية ، وقد كان يقلقها وجود العرب في هذا البلد لانها منذ الحرب العالمية الاولى وهي تتلقى الضربات على يد الحركة الوطنية في اجزاء الوطن العربي الخاضعة لها ، وكان قلقها شديدا على مصالحها النفطية في الكويت بعد أن أصبحت الحركة الوطنية قوة مؤثرة في الساحة الكويتية والخليجية .

وتجدر الاشارة الى ان تطور الوضع داخل منطقة الخليج العربي يتأثر بالاحداث التي يمر بها الوطن العربي سلبية كانت أم ايجابية ، وبما ان الوطن العربي يمر بمرحلة الهزيمة الحضارية ومرحلة التردي والانحسار على كل المستويات فان ذلك قد انعكس على منطقة الخليج سلبيا ، وجانب منه هو الفتور ان لم نقل الجمود في التفاعل العربي داخل المنطقة مما اتاح الفرصة لظهور الاقليمية والطائفية والعنصرية لتملأ الفراغ الناتج عن انحسار المد الوطني والقومي . هذه طبيعة العلاقات الكويتية العربية وتطورها في فترة هامة من تاريخ الكويت المعاصر .

الخاتمة

بعد تحليل الاوضاع التي كانت عليها الكويت سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وطبيعة العلاقات التي كانت سائدة بين الكويت والدول العربية في الفترة التي يعالجها البحث ١٩٣٠ - ١٩٦٠ وهي بحق مرحلة انتقال هامة في تاريخ الكويت سنحاول الان استخلاص بعض النتائج الهامة من هذه الدراسة :

أولا : لقد كانت بريطانية هي التي ترسم سياسات المنطقة وتشرف على تطوراتها بما يخدم مصالحها ، وتطور علاقات الكويت مع البلاد العربية كان يتحرك في اطار سياستها .

ثانيا : ان مشكلات الحدود كانت هي محور العلاقات المتنافرة في المنطقة ولقد لعبت بريطانية دورا هاما في خلق تلك المشكلات لاهداف سياسية واستراتيجية واقتصادية .

ثالثا : ان للاوضاع الاقتصادية والاجتماعية وتطورها دورها الهام في العلاقات بين الكويت وجيرانها في تلك الفترة .

رابعا : ان الاحداث الوطنية والقومية في الساحة العربية كان لها انعكاسها على المجتمع الكويتي وتطور وعيه السياسي .

خامسا : ان العلاقات بين الكويت والدول العربية لم تقف عند حدود العلاقات السياسية بل انها تعدت ذلك لتكون علاقات ثقافية واجتماعية واقتصادية

سادسا : ان للحركة الوطنية في الكويت دور هام في توثيق العلاقة مع الشعب العربي في الوطن العربي بطريق مباشر أو غير مباشر .

سابعا : لقد كان للاحداث في الساحة العربية انعكاساتها السلبية والايجابية على الكويت .

ثامنا : من دراسة تطور العلاقات بين الكويت والبلاد العربية نلمس تطورا في الوعي لدى الشباب الكويتي منذ وقت مبكر حيث كان يواكب الاحداث في الوطن العربي ويتفاعل معها ، وكان للتعليم الحديث دوره في ذلك على يد الاجيال الاولى التي خرجت في بعثات دراسية الى الدول العربية في العشرينات والثلاثينات والاربعينات والخمسينات .

تاسعا : ان موقع الكويت الجغرافي وحجم سكانها كان يفرض علاقات ذات طبيعة خاصة مع الجيران والدول العربية الاخرى .

★ ★ ★

الحواشي :

(١) دكتور صلاح العقاد ، معالم التغيير في دول الخليج العربي ، القاهرة ١٩٧٢ م ص ١٤ ، ٢٣٦، ٢٤٤.
يذكر الاستاذ عوني فرسخ في بحثه استراتيجية الغرب والطموحات العربية ان الاستعمار الاوربي قد طرد الملاحة العربية من أعالي البحار وقلص دور العرب التاريخي في التجارة بين الشرق والغرب. (بحث غير منشور) ، ص ٣ .

(٢) نفس المصدر ص ٥ ، ٧ .

(٣) A. h. t. chisholm, The First kuwait Oil Concession-Arecord of the for the 1934 Agreement, London, 1975, P. XII - XIII, 15 - 16.

(٤) انظر أيضا : الدكتور / احمد حسن جودة ، ترجمة حسن علي النجار ، المصالح البريطانية في الكويت حتى عام ١٩٣٩ ، بغداد ، ١٩٧٩ م .

(٥) A. H. T. Chisholm, op. cit., P. XII.

انظر أيضا : الدكتور احمد جودة ، ترجمة حسن علي النجار ، المصالح البريطانية في الكويت حتى عام ١٩٣٩ م المصدر السابق ص ١٢٨ .

(٦) دكتور صلاح العقاد ، معالم التغيير في دول الخليج العربي ، القاهرة ، ١٩٧٢ م ص ٨ ٢.

(٧) د. عبد الله الاشعل ، قضية الحدود في الخليج العربي ، مركز الدراسات السياسية الاستراتيجية بالاهرام ، القاهرة ١٩٧٨م ص ٢٣ ، ٢٤ .
انظر أيضا : الدكتور جمال زكريا قاسم ،مختارات من وثائق الكويت والخليج العربي ، جامعة الكويت ، ٩٧٢ ، ص ٣٧ .

(٨) الدكتور أحمد حسن جودة ، ترجمة حسن علي النجار ، المصالح البريطانية في الكويت حتى عام ١٩٣٩ م ـ بغداد ، ١٩٧٩ م ص ١٠٥ ـ ١٠٨ .

(٩) جي . بي . كيلي ، تعريب خيري حماد ، الحدود الشرقية لشبه الجزيرة العربية ، بيروت لبنان ١٩٧١ ، ص ١٧٥ ـ ١٧٧ .

(١٠) د. عبد الله الاشعل ، المصدر السابق ،ص ٤٢ ـ ٤٣ ، انظر أيضا : الدكتور سيد نوفل ، الخليج العربي أو الحدود الشرقية للوطن العربي بيروت ١٩٦٩ م ، ص ١٧٠ .

(١١) المصدر السابق رقم (١) ص ١١٦ ، ١١٧ ـ انظر أيضا : جمال زكريا قاسم ، بريطانيا والخليج العربي في الحرب العالمية الاولى ـ مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد الثالث يوليو ١٩٧٥ جامعة الكويت ص ٩٨ ـ ٩٩ .

(١٢) دكتور صلاح العقاد ، المصدر السابق ص ٣٠ ـ ٣١ وأنظر راشد الفرحان ، مختصر تاريخ الكويت ١٩٦٠ ، القاهرة ص ٩٧ ـ ٩٨ .

(١٣) عبد العاطي محمد أحمد ، الدبلوماسية في الخليج والجزيرة العربية ، مركز الدراسات الاستراتيجية بالاهرام ، القاهرة ١٩٧٩ م ، ص ٧١ - ٧٣ .

(١٤) Arnold Wilson, The Persian Gulf, London, 1928, 1954 1959, P. 249.

(١٥) راشد الفرحان ، مختصر تاريخ الكويت ،المصدر السابق ص ١٥٩ .

(١٦) دكتور صلاح العقاد ، المصدر السابق ص٣٢ .

(١٧) الدكتور رأفت غنيمي الشيخ ، الولايات المتحدة الامريكية واتجاهات التعليم في العراق ، بحث مقدم للندوة العلمية العالمية الثالثة لمركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرةمارس ١٩٧٩ م ، الكتاب الثاني ١٩٧٩ م بغداد ص ٢٧١ .

(١٨) د. عبد الله الاشعل ، المصدر السابق ص ٣٢ - ٣٣ .

(١٩) د. أحمد حسن جودة ، ترجمة علي النجار، المصدر السابق ص ١٢٩ - ١٣٣ د. صلاح العقاد ، معالم التغيير في دول الخليج العربي ، المصدرالسابق ص ٢٦ - ٢٧ . د. محمد الرميحي ، حركة ١٩٣٨ الاصلاحية في الكويت بين الحربين، القاهرة ١٩٧٣ ص ٣١٥ ، ٣٢٩ . السيد خالد العدساني ،نصف عام من الحكم النيابي في الكويت (بدون تاريخ) ، راشد الفرحان ، مختصر تاريخ الكويت ، المصدر السابق .

الدكتور خليفة الوقيان ، القضية العربية في الشعر الكويتي ١٩٧٧ الكويت ص ٤٥ - ٥٢ .

(٢٠) دكتور صلاح العقاد ومعالم التغيير في دولةالخليج العربي ، المصدر السابق ٢٦ - ٢٧ .

(٢١) الاستاذ جاسم الصقر ، تطـور الحركة الديمقراطيـة في الكويت ، محاضرة القيت في رابطة الاجتماعيين ضمن الموسم الثقافي الثالث عشر للرابطة بتاريخ ١٩٨٢/٢/٨ م .

(٢٢) دكتور صلاح العقـاد / معـالم التغيير فيالخليج العربي ، المصدر السابق ص ٢٧ .

(٢٣) عبد الله الحاتم ، من هنا بدأت الكويت ، الكويت ص ٢ ٣ .

(٢٤) د. خليفة الوقيان ، القضية العربية فيالشعر الكويتي ، الكويت ١٩٧٧ م . ص ٧٧ - ٨٧، ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١٤٩ .

لقد كان لشعر الشعراء الكويتيين دور فيالوعي السياسي والتفاعل مع الاحداث العربيـة مثل : خالد الفرح ، عبد اللطيف النصف ، محمود الايوبي، صقر الشبيب ، عبد اللهالنوري، فهد العسكر .

(٢٥) يوميات اكـرم زعيتر ، الحـركة الوطنيـة الفلسطينية ١٩٣٠ - ١٩٣٩ ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ص ٣٠٢ .

(٢٦) مجلة المشرق عدد ١٠ أيار ١٩٠٤ ، دمشق . انظر أيضا : عبد العزيز رشيد ، تاريخ الكويت ، بيروت ١٩٧٨ م وص ٩١ . انظر أيضا : الدكتوره : زاهية قدوره ، تاريخ العرب الحديث ١٩٧٥ م ، بيروت ص ١٢٣ .
انظر ايضا : د. علي ابراهيم عبده ود. خيرية قاسمية ، يهود البلاد العربية ، دراسات فلسطينية ، بيروت ١٩٧٩ ، ص ١٥٨ .

(٢٧) يوميات أكرم زعيتر ، المصدر السابق ،ص ٣٠٢ .

(٢٨) روزماري سعيد زحلان ، الخليج والقضية الفلسطينية ٣٦ - ١٩٤٨ ، مجلة المستقبل العربي ٤ / ١٩٨١ م .

(٢٩) الدكتور / سيد نوفل ، المصدر السابق ، ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

(٣٠) الدكتور / سيد نوفل ، المصدر السابق ،ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

★ ★ ★

صفحات من تاريخ الجمعيات
في بلاد الشام
١٩٠٨ ـ ١٩٠٩م

د. سهيلة الريماوي

الجامعة الاردنية

ان سنة ١٩٠٨ تفرض نفسها بصورة موضوعية كنقطة بداية لمرحلة جديدة في تاريخ الامبراطورية العثمانية بشكل عام وتاريخ بلاد الشام بشكل خاص ، هي مرحلة ظهور الاحزاب وممارسة الحياة الحزبية ، بالاضافة الى ما يطلقه المؤرخون عـادة على هذه السنة من كونها (سنة اعادة المشروطية) أو سنة اعادة الدستور والحياة الدستورية للامبراطوريـة .

ان هذا التغيير الكبير في طبيعة نظام الحكم الذي شهدته الامبراطورية قد تحقق نتيجة انقلاب حزبي ، عرف بانقلاب المشروطية ، قام به حزب هو حزب الاتحاد الترقي ، الذي تكون ونما ، سراً ، في ظل حكم السلطان عبد الحميد رغم جواسيس السلطان وحكمه اللادستوري .

كما ان هذا التغيير الذي اعاد الحياة الدستورية من جهة ، والذي تـوج انتصارا حزبيا من جهة اخرى ، اتاح المجال لقيام حياة سياسية برلمانية نشطة ، وحياة حزبية علنية ومشروعة في الامبراطورية العثمانية ، بعد مرحلة الركود الطويل الذي اصاب الحياة السياسية في عهد السلطان عبد الحميد . وان هذا التغيير أقام حكما حزبيا في الامبراطورية العثمانية هو حكم حزب الاتحاد والترقي .

غير أن هذا الحزب الحاكم قد تعرض للاحزاب والجمعيات التي كانت قائمة في الامبراطورية العثمانية ، سواء كان ذلك بما وضعه مـن تشريعات دستورية وقانونية تتعلق بحرية تكوين الجمعيات ، التي تشمل الاحزاب ، أو كان بما ترتب على سياسته العامة من نتائج ، وبصفة خاصة تجاه القوميات وحقوقها وتنظيماتها الحزبيـة .

فقد كان الحزب الحاكم حزبا ديناميكيا ، لديه مخطط متحرك ونشيط لتنفيذ برنامجه الذي يرتكز على عدة نقاط رئيسية ، كان من جملتها تثبيت سيطرته كحزب حاكم ، عن طريق استقطاب الاحزاب التي وجدها قائمة امامه ، ومن هذا المنطلق الحزبي للاتحاد والترقي ، بدأت مظاهر الصراع المستمر بين الحزب الحاكم وبين احزاب القوميات الاخرى .

وتبرز امامنا معالم الصورة الحزبية في الامبراطورية العثمانية ــ وبلاد الشام جزء منها ــ غداة الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ ، على الشكل التالي :

١ ــ جمعية التشبث الشخصي واللامركزية الادارية ، ومركزها باريس .
٢ ــ جمعية الاتحاد والترقي ، ومركزها سالونيك .
٣ ــ جمعية الشورى العثمانية ، ومركزها القاهرة .
٤ ــ جمعية النهضة العربية ، ومركزها دمشق .

واذا كان الحزب الاول والثاني يضمان بعض اعضاء من العرب(١) فان الحزب الثالث والرابع كانا من اوائل الاحزاب عربية التكوين ، التي تأسست في الامبراطورية العثمانية(٢) .

ولقد طرأ على هذه الصورة الحزبية تغييرات كثيرة ، اثر انقلاب سنة ١٩٠٨ ، نوجزها على الشكل التالي :

آ ــ برزت جمعية الاتحاد والترقي ، فاستلمت الحكم وبقيت حزبا كبيرا حاكما مؤثرا حتى نهاية الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٨(٣) .

ب ــ اندثرت جمعية التشبث الشخصي واللامركزية الادارية ، وجمعية الشورى العثمانية ، بعد اعلان الدستور سنة ١٩٠٨ بمدة وجيزة .

ج ــ تطورت جمعية النهضة العربية تطورا شاملا وبقيت قائمة نشطة كجمعية ثقافية حتى بداية الحرب العالمية الاولى .

د ــ نشأت أحزاب وجمعيات كثيرة جديدة بعد سنة ١٩٠٨ تخطت من حيث التنظيم والفعاليات تلك الجمعيات السابقة ، قام على تأسيسها اعضاء القوميات التي تتشكل منها « الامة العثمانية » . فقد شكل الارناؤوط

والشركس والاكراد والروم والارمن ، وكذلك العرب ، الجمعيات والمنتديات في الاستانة وغيرها(٤) .

فقد اسس العرب عددا من الاحزاب ، العلنية والسرية ، العثمانية والقومية ، المدنية والعسكرية ، كما اشتركوا في تشكيل التكتلات البرلمانية داخل مجلس المبعوثان .

واذا كانت الاحزاب العربية القومية ، مثل العربية الفتاة ، قد اتخذت طابع السرية ، فان العرب قد اسسوا الاحزاب العلنية ذات المضمون القومي وان كانت تحمل اسماء تدل على الاخاء والائتلاف العربي العثماني ، وكان رائد هذه الاحزاب العلنية : **حزب الاخاء العربي العثماني .**

تشكل هذا الحزب في الخامس من شهر آب اغسطس سنة ١٩٠٨ في الاستانة. وبالرغم من ان اسمه كان (الاخاء العربي العثماني) ، الا ان مؤسسيه واعضاءه لم يكن فيهم احد من ابناء القوميات العثمانية الاخرى غير العربية ، وانتخبت هيئته الادارية من وجهاء العرب في جميع الولايات العربية على الشكل التالي :

صادق باشا المؤيد ، وشفيق بك المؤيد وندرة مطران	من دمشق (سورية)
شبيب بك الاسعد ، ومحمد باشا المخزومي	من بيروت (سورية)
شاكر افندي الآلوسي ، وعبد الله افندي الحيدري	من العراق
الشريف جعفر باشا (من الاشراف)	من الحجاز
يوسف بك شتوان	من طرابلس الغرب
شكري الحسيني	من القدس (٥)

ويقول السيد احسان الجابري احد معاصري الفترة في ظروف تأسيس هذا الحزب ما يلي :

« بعد يومين من اعلان دستور سنة ١٩٠٨ اجتمع عدد كبير من العرب الموجودين في الاستانة ، منهم شفيق المؤيد وعارف المارديني وعبد الحميدالزهراوي وغيرهم كثير ... وقرروا ان يوجهوا دعوة يطالبون فيها اخوانهم العرب عقد اجتماع في تياترو (الفاريتي) . وكان نص البرقية التي نشروها ووزعوها هو : اخوانكم العرب يرجون حضوركم من الساعة الحادية عشرة الى تياتروا الفاريتي .

ثم يضيف السيد الجابري قائلا : ولم ار في حياتي حشدا عربيا هائلا مثل هذا الحشد ، فقد لبى الطلب جميع ابناء العروبة ، وامتلأ (الفاريتي) الذي يسع اكثر من الفي شخص وقام السيد ندرة مطران وتكلم كلمة شكر فيها الحضور ثم قال:

لقد قررنا ان نشكل جمعية عربية نطلق عليها اسم جمعية الاخاء العربي العثماني

وتوالى الخطباء بعد ندرة مطران مؤيدين تشكيل الجمعية ، وكان منهم شفيق المؤيد وعبد الحميد الزهراوي ... وتعالت الهتافات من الجمعيع يؤيدون الفكرة ، وكأن اعلان الدستور قد كشف النقاب عن الروح الحزبية الموجودة عند العرب ...

ثم يتابع احسان الجابري كلامه مؤكدا « أن ما شاهدته في ذلك اليوم يفوق اي وصف ، ولاول مرة في حياتي سمعت الهتافات التي تعالت في ارجاء التياترو (فليحيا العرب) ، كنا نعرف اننا جميعا عثمانيون ولكن كانت هي المرة الاولى التي نقول فيها تحيا الامة العربية ، يحيا العرب » (٦) .

وعلى الرغم من ان حزب الاخاء العربي العثماني لم يعش الا فترة قصيرة ، فانه جدير بالتحليل الوافي لانه كان أول جمعية (عربية) رخصت بعد الدستور ، ولانه كان كذلك خطوة ظاهرة على طريق (الحزب العربي) بعضويته ومبادئه واهدافه ، ولانه كان فوق ذلك يعبر عن صيغة تنظيمية حزبية متقدمة .

مبادىء جمعية الاخاء العربي العثماني وأهدافها :

يمكننا ان نتبين مبادىء الجمعية واهدافها ، وان ندرك اهم معالم تنظيمها الداخلي من تحليل وثيقتين صادرتين عنها ، تحمل الاولى عنوان قانون جمعية الاخاء العربي العثماني ، وتحمل الثانية عنوان تعليمات مختصة بشعب جمعية الاخاء العربي العثماني (٧) .

ونستدل من دراسة الوثيقتين على أن جمعية الاخاء ، جمعية (قومية عربية) من ناحية التكوين ، والمبدأ ، والهدف .... !

آ ـ فقد نص قانون الجمعية على انها جمعية مؤلفةمن ابناء العرب العثمانيين على اختلاف مللهم وعملهم ومصادرهم ويحق لكل فرد من ابناء العرب ان يكون عضوا فيها ...

وعرفت العربي بقولها : « هو كل من انتسب الى العرب مولدا أو موطنا » فهي بهذا جمعية (قومية) من ناحية التكوين .

ب ـ ومما يلفت النظر ايضا ، ان الجمعية اكدت في دستورها ان هدفها هو المحافظة على الدستور اولا ، ثم المحافظة على وحدة الدولة العثمانية ثانيا حيث جاء في دستورها : « القصد من تأليف هذه الجمعية هو معاونة جمعية الاتحاد والترقي في سبيل المحافظة على أحكام **القانون الاساسي ، وجمع كلمة الملل** المختلفة العثمانية » .

أي أن الجمعية لم تتحدث عن اللامركزية أو الاستقلال ، ولم تطرح هذا المفهوم صراحة في دستورها .... الا ان دستور الجمعية تدارك مناديا « باعلاء شأن الامة العربية واتخاذ جميع الوسائط والتدابير لنشر انوار العلوم والمعارف بين ابنائها كتأسيس مدارس وطبع كتب ورسائل واصدار جرائد وغير ذلك» .

فاذا انتبهنا جيدا الى هذا التدارك ، الذي تؤكد فيه الجمعية ضرورة اعلاء شأن الامة العربية ، واضفنا الى ذلك ما أشرنا اليه من اشتراط الجمعية أن يكون اعضاؤها من « أبناء العرب » فاننا نستدل على انها كانت أول خطوة على طريق نشوء (أحزاب عربية) قومية التكوين والهدف .

ولاينفي ما نذهب اليه في هذه المسألة ، ان هذه الجمعية لم تطالب صراحة باللامركزية السياسية أو بالاستقلال أو بالانفصال ، واكتفت بتأكيد حماية الدستور والحريات ، بل واعلنت معاونتها لحزب الاتحاد والترقي في تحقيق هذا الامر ...

ذلك انه واضح بان جمعية الاخاء العربي العثماني كانت تؤمن بالدستور والحريات وبضرورة حمايتها ، كما كانت تجد في حماية الدستور والحريات السبيل السليم لتحقيق اعلاء شأن الامة العربية ، أما النص على معاونة حزب الاتحاد والترقي في حماية الدستور والحريات ، فيغلب ان يكون منبعه التقاء الحزبين على اعلان الايمان بهذه المبادىء ؟ وقد تكون كذلك نصا يقع في نطاق (تكتيك) حزبي قصدت به جمعية الاخاء ان تتاح لها فرصة العمل المرخص في ظل حزب حاكم كحزب الاتحاد والترقي الذي كانت الجمعية تقر انه لا يرحب بقيام حزب قومي عربي في الدولة حتى ولو كان حزبا ينادي بالاخاء العثماني .

النظـام الداخلـي :

ينص نظام الجمعية الداخلي على عدة نقاط هامة تؤكد على أن هذه الجمعية صيغة تنظيمية حزبية متقدمـة :

النقطة الاولى : **طريقة الانتساب** : وتبدأ بأن يقدم العضو الجديد طلبا تحريريا فقط ، اي دون ان يرشحه احد من الاعضاء ، وعندها يسجل كاتب الجمعيـة اسم العضو الجديد في دفتر السجلات ، مبينا تاريخ الانتساب ورقـم العضو الجديد بالنسبة لعدد الاعضاء ، ويأخذون عشرين قرشا رسـم دخـول .

النقطة الثانية :**تتعلق بمركز الجمعية** : وينص النظام الداخلي « مركز الجمعية في دار الخلافة » وينشأ لها فروع من سائر البلاد العربيـة ، وفي الممالك الاجنبية المحتوية على ابناء العرب ، ويجوز لابناء العرب ان ينتسبوا لجمعية الاخاء العربي العثماني المركزية اذا لم يكن للجمعية عندهـم فـرع منهـا » .

النقطة الثالثة : **التشكيلات الداخلية** : وتتكون هذه التشكيلات على الشكل التالي :

١ ـ الجمعية المركزية ، وهو ما تعبر عنه اليوم بالجمعية العمومية .

٢ ـ اللجنـة الاداريـة .

٣ ـ المفوض ، وكاتب اللجنة ، وامين الصندوق .

وتنتخب الجمعية المركزية بأكثرية الاصوات من اعضائها لجنة ادارية مـن ذوي اللياقة والاقتدار ولابد من اجتماعهم مرة واحدة كل سنة ،لانتخاب اعضـاء اللجنة الادارية والاطلاع على أعمال اللجنة السابقة وحساباتها ثم تضع برنامجـا جديدا ، تتبعه الجمعية في عامها الجديد ولها الحق في انتخاب أعضاء اللجنة السابقة أو بعضـا منهـم .

أما اللجنة الادارية فعليها انتخاب (العضو المفوض) لمدة ثلاثة اشهر كماتنتخب مـن أعضائها كاتبا وأمينا للصندوق لمدة عام ويجوز انتخابهم ايضا مرة ثانية .

وعلى اللجنة الادارية أن تصون حقوق افراد الجمعية وتنفيذ كل بند من بنودها فضلا عن المحافظة على حقوق الامةالعربية المتكفل بها القانون الاساسي ومعاونة العناصر العثمانية برمتها .

اما اجتماعاتها فهي مرة كل اسبوع ، واذا تغيب احد الاعضاء عليه ان يخبر اعضاء اللجنة بذلك واذا تكرر غيابه اربع مرات متوالية بدون عذر شرعي يعتبر مستعفيا وتكون اللجنة مخيرة في تعيين خلف له .

ويجوز للجنة الادارية دعوة اعضاء الجمعية المركزية الى اجتماع طارىء اذا اقتضى الامر ذلك على « ان تنبىء الاعضاء قبل ذلك الاجتماع بثمانية أيام أو تكتفي بأعلان النبأ في الصحف المحلية » .

ويحق للجنة الادارية ان تعدل في قانون الجمعية ، وعليها « ان تعرض ذلك على الجمعية المركزية للتصديق عليه » .

اماكاتب اللجنة الادارية ، فيسلم سجلات خاصة ، يسجل فيها محاضر الجلسات والمناقشات ثم القرارات التي تقرها اللجنة ممضاه من الاعضاء مع بيان اسماء الاعضاء المتغيبين واسباب تغيبهم .

ومما يلفت النظر في جمعية الاخاء العربي العثماني ، انه ليس لها رئيس وانما استعيض عن ذلك بما سموه « المفوض » ، ومدة انتخابه ثلاثة اشهر ، ومن الممكن تجديد انتخابه .

ويعهد اليه بدعوة اللجنة الادارية للاجتماع ، وله الحق في فض الرسائل والاوراق الواردة باسم الجمعية ، واللجنة ، ثم يعرضها على اللجنة في أول جلسة تعقد ، ثم يحرر بامضائه الاجوبة اللازمة وفقا لمقرراتها ، ومن خصائصه ايضا ان يمضي باسمه ايصالات الجمعية وشيكاتها مع أمين الصندوق .

النقطة الرابعة : **مالية جمعية الاخاء :**

وتتوفر الموارد المالية للجمعية من عدة سبل :

بعضها ثابت ، وهو المبلغ الذي يدفعه اعضاء اللجنة الادارية وقدره اثنتا عشرة ليرة عثمانية ..

وبعضها الاخر غير ثابت ، وهو المبلغ الذي يدفعه عضو الجمعية سنويا «كل حسب استطاعته ولا يجوز ان يكون دون العشرين قرشا» .

وكاتب الجمعية يصدر ايصالات بهذه المبالغ مختومة بختم الجمعيــة وممضاه من العضو المفوض ومن أمين الصندوق .

وتوضع المبالغ في احد البنوك الذي تعينه اللجنة .

ولا يجوز سحب أي مبلغ الا بموجب شيك ممضى من العضو المفوض وأمين الصندوق . هذا ويجوز ابقاء ثلاثين ليرة في صندوق الجمعية للمصاريف المستعجلة تحت اشراف العضو المفوض وأمين الصندوق .

وعلى أمين الصندوق ان يمسك دفاتر بالداخل والخارج من أموال الجمعية متقنة الضبط ، كما يحتفظ بصندوق الجمعية بختم مكتوب عليه عبارة « جمعية الاخاء العربي العثماني » ومركز الجمعية وتاريخ التأسيس ، ويكون محفوظا في صندوق الجمعيــة .

أما وسائل الجمعية فهي كالتالي :

أ ـ خولت الجمعية لجنتهــا الادارية حق فتح ناد يطلق عليه اسم (نادي الاخاء العربي) الا انه يمنع فيه لعب الميسر وشرب المسكر ، ويشترط للدخول به أن يكون الطالب عضوا مــن اعضاء الجمعية المركزية أو أعضاء الشعب ويقدم طلبه تحريريا ويتعلق اسمه في نادي الحزب مدة سبعة أيام متواليــة ثم يقترع عليه في اللجنــة الادارية فاذا نال الاكثرية قيد اسمه في عداد الاعضاء ، ويدفع ٥ ليرات رســم دخول ، واشتراكا قــدره نصف ليرة شهريا ، ويستثنى من ذلك : الاشراف أهــل البيت في الحجاز ، واعضــاء مجلس المبعوثان والاعيــان مــن ابنــاء العــرب ، فيقبل العضو منهم بمجرد طلبــه مع دفع رسم الدخول والاشتراك الشهري .

ب ـ كما نص قانون الجمعية على انشاء جريدتين تكون احداهما بالعــربية والاخــرى بالتركية لنشر آراء وافكار ونصائح جمعية الاخاء العربي العثماني وطلباتها من الحكومة ونشر الوقائع الرسمية والحوادث العامة وايجاد الصلة المتتابعة بين ابناء العرب الساكنين في دار الخلافة والمقيمين منهم في الولايات العثمانية وسائر البلاد العربية والاجنبية ، وكان اسم الجريدة « جريدة الاخاء العربي العثماني » وعلى اللجنــة الاداريــة توجيــه سياسة الجريدتين ومتابعــة ما يكتب وينشر بهما مع ادارتهما ، واقترح على اللجنــة الادارية ايضــا نشر جريدة باللغة الفرنسية لتكون لسان حال العــرب خصوصا والعثمانيين عموما تجــاه الاجانب .

ج ـ ولكي تضمن الجمعية انتشار آرائهـا وافكارها ، في البلاد العربية العثمانية والبـلاد العربية والاجنبية المحتوية على ابناء العـرب ، صرح قانون الجمعية بتأسيس شعب لها ، وكان قانون هذه الشعب هو قانون الجمعية نفسها ، واوصت هذه الشعب بفتـح المدارس ونشر العلـم بين اطفـال العـروبة « فيتخلصوا من تأثير الصبغـة الاجنبية ، وينتشئوا بحول الله على مبادىء الجمعية من حب الوطن الجامع العثماني وحب الدولة والامة والشعور مـع ذلك بأنهم كافة عرب تجمعهم الجنسية العربية واللغة العربية » .

د ـ ويكون الارتباط بين الجمعية المركزية والشعب عن طريق التقارير التي تقدمها الشعب كل ثلاثة أشهر تشرح فيها جميع اعمالها وما قامت به من الامور فترسل الشعب هذه التقارير الى الادارة المركزية ، مع دفتر اسماء الاعضاء الذين لحقوا بها في الثلاثة اشهر مع جدول متقن الضبط بين واردات الشعبة ومصاريفها عن المدة المذكورة .

هـ ـ وقد ختمت الجمعيـة تعليماتها للشعب بهذه العبارة « هذا وأن جميـع ما تقدم به انه من المقاصد الجايلة ، بل وجود الجمعية نفسها انما هو قائم بدوام الدستور المتكفل بالحرية الشخصية ... » (٨)

ومعنى هذا ان الجمعيـة كانت تدرك التطبع القومي العربي وتعتبر نفسها اداة لتحقيقه دون ان تلتزم بصبغة دستورية انفصالية أو استغلالية أو لامركزية سياسية .

حزب الاخاء العربي العثماني في المواجهـة :

بدأ حزب الاتحاد والترقي تطبيق سياسة الطـورانية ، وجوهرها محـاربة القوميات غير التركية بصورة عامة ، ومحاربة القومية العربية بصورة خاصة ، ولقد اتخذت هذه السياسة عدة اساليب في وقت واحـد نوجز منها الاساليب التالية :

أ ـ اسلوب المهاجمة الصحفية ، حيث اغتنمت بعض الصحف التركية اطـلاق حرية الصحافة في العهـد الجديد ، وأخذت تثير المشاكل العرقية ، وقد تولت هذه الحماية جريدة « طنين » شبه الرسمية .

ب ـ اسلوب « فصل » الموظفين بحجة انهم من رجـال العهد البائد ، وقد كان نصيب الموظفين العـرب الطـرد من الوظائف الحكومية الكبرى حتى لم يبق في وزارة الخارجيـة سوى عربي واحـد وقد فسر العرب هذا التصرف بتعصب الترك لقوميتهـم ، حتـى يحل الموظفـون الاتراك محـل الموظفين المفصولين (٩)

ج ـ اسلوب فرض اللغـة التركية على بقية العناصر وقد صدرت الاوامر الـى رؤساء المحاكم بأن تكون المرافعات باللغة التركية حتى ان « وزير العدل التركي نجم الدين منلابك طلب مـن كامل الصلح ان تكون المرافعات في المحكمـة بالتركية لان الحكومة ستترك العرب ....

كما اخبرت لجـان الاتحاد والترقي في الولايات العربيـة بأن تكون اللغـة التركية هي لغـة المخابرات بين الولايات والحكومة المركزية (١٠) .

وقد ادت هذه السياسة الى نتائج اخذت تتراكم فوق بعضها بعضا حتى جاءت حوادث الانتخابات لمجلس المبعوثان ، واصبحت المواجهة واضحة المعالم بين العرب والترك ككل ، وبين حزب الاخاء العربي العثماني وحزب الاتحاد والترقي ، وظهرت في ساحتين :

الساحة الخارجية : اي من معركة الانتخابات

والساحة الداخلية : اي داخل مجلس المبعوثان بعد الانتخابات

فقد صدرت الارادة السنية في ٢٤ تموز يوليو سنة ١٩٠٨ تدعو الى انتخاب اعضاء مجلس المبعوثين ودخل العرب معركة الانتخابات على امل ان تطبق بنود ومواد الدستور الاساسي المتعلقة بالانتخابات ... ويهمنا هنا المادة (٦٥) مـن الدستور ، وتنص على أن تكون اكثرية المبعوثين من العرب ثم من الترك باعتبار شخص واحد عن كل خمسين الف نفس (١١) وان يكون كل مبعوثي الولايات العربية مـن العرب حسب (المـادة ٧٢) اي من اهالي دائرة الولاية التي هم منهـا . ولكن الواقع كان غير ذلك ، فقد اعلن الاتحاديون على ان عدد النواب من جميع جنسيات الامبراطورية سيكون ٢٧٥ نائبا منهم ١٣٨ نائبا للعناصر غير التركية بمن فيهم العرب .

ولم يكن من احزاب في ارجاء الامبراطورية تود خوض المعركة سوى الاتحاديين والاخاء العربي العثماني هذا بالاضافة الى ان ثقة الامة بالاتحاديين الذين اعادوا الدستور كانت كبيرة ، وفروع جمعية الاتحاد والترقي بدأت تنتشر في ارجاء الامبراطورية ، وبالرغم من ذلك فقد اشترطت الدولة معرفة اللغة التركية للمرشح ، ولجأت الى تقسيم الدوائر الانتخابية تقسيما يضمن للعنصر التركي الفوز في اكثر المقاعد النيابية حسب تعداد السكان الذي افترضوه ايضا افتراضا .

ومع ذلك فقد بدأ ضغط الاتحاديين على عملية اجراء الانتخابات في البلاد العربية ، وظهر في الحوادث التالية :

١ ـ لم يكن للبلاد العربية احصاء صحيح ولذلك كان الاتحاديون يقدرون عدد النواب بحسب تقديرهم لنفوس المنطقة ، وعلى حسب تقدير الاتحاديين يبلغ عدد النواب العرب ٦٥ نائبا والاتراك ١٣٧ نائبا والالبان ٢٥ ، واليونان ٢٣ والارمن ١٢ ، والبلغار ٧ ، والاسرائيليين ٥ ، والصرب ٣ ، والفلاخ ١ ، اي ١٣٨ عضوا للعناصر غيرالتركية من اصل ٢٧٥ مجموع النواب . مع العلم ان عدد نفوس العرب يتراوح بين ٥ر١٠ مليون و ١٠ مليون ، بينما عدد نفوس الاتراك ٥ر٧ ـ ٨ مليون من ٢٢ مليون نسمة عدد نفوس الامبراطورية اي ٤ ملايين بقية الاقليات من اغريق والبان واكراد وغيرهما (١٢) .

٢ ـ لم يكتف الاتراك بتخفيض عدد نواب العرب الى ٦٥ فقط بل لجأوا الى ترشيح بعض الاشخاص الاتراك في دوائر الانتخابات العربية ، ولم يلجأوا لهذه الطريقة الا في هذه الدوائر ففاز ٥٠ مرشحا عربيا و ١٥ مرشحا تركيا منهم فؤاد خلوص (اتحادي تركي) نائبا عن طرابلس الشام ، والضابط التركي جامي بك عن اقليم الفزان وغيرهما .

٣ ـ جندت حكومة الاتحاديين انصارها من العرب، ليقفوا بجانب مرشحيها في الدوائر العربية ، وكان من هؤلاء الانصار رفيق العظم والشيخ رشيد رضا وشكري غانم وغيرهم . واخذ رشيد رضا يهاجم نواب البصرة وعلى راسهم طالب النقيب لمنافسته الاتحاديين (١٣) اما رفيق العظم فكان يدعو الى التمسك بالجامعة العثمانية التي تجمع المسلمين وغير المسلمين والترك وغير الترك ، دون ذكر العناصر والتحزب العنصري بينما ذهب شكري غانم يفسر اعمال الحكومة الاتحادية بتعلق الامة الاسلامية بالسيادة وعدم امكان تطبيق المساواة المطلقة خوفا من نشوب الاضطرابات في الاوساط الاسلامية ، ويراجع

نفسه قائلاً « وأن يكن عمل الحكومة فيه شيء من الخطأ الا انه لم يكن بالامكان عدم اقترافه (١٤) .

المعركة الانتخابية في دمشق :

في ضوء ما تقدم من استفزازات الاتراك للانتخابات في الدوائر العربية عامة يمكننا ان نتصور خطورة المعركة وكيف كانت حامية الوطيس في دمشق زد على ذلك ان حزب الاتحاد والترقي وجد نفسه أمام تنظيم حزبي يود منافسته على كراسي البرلمان ، ومن هنا كانت المعركة في دمشق تتميز بطابع الصراع الحزبي .

فقد اراد اعضاء حزب الاخاء العربي العثماني تطبيق برنامجهم الذي نص على حفظ حقوق العرب ضمن الرابطة العثمانية وصيانة حقوقهم من الغدر والاعتساف(١٥) ولذلك صمموا على أن يكون ممثلو دمشق في مجلس المبعوثين من ابناء دمشق المنتسبين للحزب وتولى أعضاء الجمعية وعلى رأسهم شفيق المؤيد وندرة مطران ورشدي الشمعة وغيرهم ، نشر اراء الحزب وموقفه من الانتخابات في صحيفة الاخاء العربي العثماني الناطقة باسم الحزب والتي كان شفيق المؤيد يتولى ادارة تحريرها .

وكانت صورة المعركة الانتخابية في دمشق على الوجه التالي :

١ ـ حزب الاخاء العربي العثماني يؤيده عدد كبير من الشبيبة العربية وخصوصا الطلاب وتؤازره الاقلام الشابة بدافع من الوعي القومي والوطني الذي تفتح بعد الانقلاب الدستوري ، أما جمعية « النهضة السورية » فكان اعضاؤها من أكبر المؤيدين لحزب الاخاء العربي العثماني في المعركة الانتخابية(١٦) دون خوضهم المعركة الانتخابية .

٢ ـ حزب الاتحاد والترقي يؤيده عدد كبير من شيوخ دمشق ووجهائها امثال عثمان العظم وشقيقه رفيق العظم والشيخ عبد الرزاق البيطار والشيخ جمال الدين القاسمي ، وكانوا مازالوا يثقون بالاتحاديين ويدعون الى الاتفاق معهم ويقول رفيق العظم في تفسير تأييده للاتحاديين ما يلي :

« على اني انا وكل الذين كانوا يؤيدون جمعية الاتحاد والترقي من العرب لم ننظر بعين الرضا الى ابناء العناصر في الاستانة في تأسيس الجمعيات مهما كان نوعها بسبب ان جمعية الاتحاد والترقي كانت لم تتم مهمتها بعد على وجه ثابت القواعد

ولذا كتبت يومئذ الى أحد مؤسسي جمعية (الاخاء العربي العثماني) وهو ابن عمي شفيق بك العظم المؤيد الومه والقائمين بها لوما شديدا على تعجلهم في هذا الامر »(١٧) .

وكان البعض من انصار الاتحاديين يطعن بجمعية الاخاء العربي العثماني وينسبون تأسيسها الى السلطان عبد الحميد بغية تحقيق رغباته في مقاومة الاتحاديين ، والبعض ينسب لندره مطران انه يحاول بذر التعصب الجنسي بين الترك والعرب ، وكان الشيخ رشيد رضا يقوم بجولاته في أحياء دمشق ومساجدها داعيا للاتحاديين والاخلاص لهم بداعي المصلحة المشتركة .

فتنة رمضان الحزبية :

تأثر شباب العرب ، اعضاء حزب الاخاء العربي العثماني وانصاره ، من هذه الحملات الانتخابية التي يقوم بها مواطنوهم العرب لصالح الاتحاديين وخصوصا حملات الشيخ رشيد رضا الى ان كان يوم من ايام رمضان والشيخ رشيد في الجامع الاموي يلقي درسا في الدين على المصلين خلاصته دعوة للعهد الجديد وتأييد الاتحاديين ، فما كان من اهالي دمشق المعارضين الا ان هجموا على الشيخ رشيد وكادت تقع معركة لولا تدخل اصدقاء الشيخ رشيد ومضيفيه من آل العظم ، الذين سحبوه من الاجتماع وتمكنوا من الخروج من الجامع الاموي ....

لم تقف الحادثة عند هذا الحد بل كادت تؤدي الى حوادث وخيمة العاقبة ، ذلك ان وكيل الشرطة اسعد الطرابلسي ، والبكباشي سليم الجزائري (وهما عربيان اتحاديان) اتخذا اجراءات مشددة ضد الشخص الذي حاول الاعتداء على الشيخ رشيد رضا مما دعا الوف الاهالي الى حمل السلاح والسير في مظاهرات تطوف الاسواق والشوارع ، فذهب قسم من هذه المظاهرات الى مجلس البلدية ، بينما ذهب القسم الاخر الى دار الحكومة هاتفين بسقوط مدير الشرطة وجمعيةالاتحاد والترقي . وكادت تؤدي هذه الحادثة المعروفة ــ بفتنة رمضان ــ الى فتنة حزبية لولا تدخل بعض الفضلاء من مؤيدي الاتحاديين العرب امثال الشيخ البيطاروالشيخ القاسمي وغيرهما فتداركوا الموقف واشاروا باطلاق سراح المتهم ، ويفيض الشيخ رشيد رضا في وصف هذه الفتنة ويعللها بأنها كانت مدبرة لاسباب تتعلق بانتخابات المبعوثين وان الحكومة بدات تتدخل في حرية الانتخابات بواسطة الضابطين اللذين ذكرتهما ولذلك امتعض وجهاء البلدة من جمعية الاتحاد والترقي وانصارها(١٨) .

فاز في نتيجة هذه الانتخابات عن دمشق اربعة نواب اثنان منهم من الاتحاديين وهما : عبد الرحمن اليوسف ومحمد العجلاني واثنان من الاخاء العربي العثماني وهما شفيق المؤيد العظم ورشدي الشمعة(١٩) .

ولم تكن معركة البصرة الانتخابية تقل عن معركة دمشق ، حيث قاوم الاتحاديون وانصارهم انتخاب طالب النقيب واخوانه بالرغم من ان النقيب كان من اعضاء جمعية الاتحاد والترقي ولكن الاتحاديين كانوا ، على ما يظهر من مقاومتهم له ، غير راغبين في انتخابه ونجاحه ، وبالرغم من ذلك فقد فاز هو وزميله احمد باشا الزهير رغم مهاجمة جريدة طنين التركية لهما(٢٠) .

كما فاز في هذه الانتخابات يوسف شتوان مبعوث طرابلس الغرب وهو من حزب الاخاء العربي العثماني ، وعبد الرحمن الزهراوي مبعوث حماه (اخاء) ونافع باشا الجابري مبعوث حلب (اخاء) كما فاز خليل غانم وسليمان البستاني واسعد الشقيري ، وهم من العرب الاتحاديين(٢١) .

ولقد نجح الاتحاديون في مخططهم تجاه معركة الانتخابات فلم ينجح من نواب الاتراك سوى ١٠ من المستقلين و ٢٦٥ من الترك الاتحاديين واخذوا عليهم تعهدات الى جانب قسم اقسموه بأن يلتزموا بالطاعة المطلقة للجمعية(٢٢) كما نجحوا في ان يكون اكثرية نواب العناصر الاخرى من جمعيتهم او المناصرين لهم ، كما نجح نائب واحد من حزب الاحرار .

الصراع الحزبي داخل مجلس المبعوثان :

اخذ اعضاء الاحزاب العربية في الاستانة يستعدون لاستقبال اعضاء (مجلس المبعوثان) من العرب ، فهيأوا المظاهرات الضخمة والهتافات القومية لاستقبالهم . واشترك في هذه المظاهرات كل من اعضاء جمعية النهضة العربية في استامبول ـ بعد ان اصبحت علنية ـ واعضاء حزب الاخاء العربي العثماني ، وانصارهم ، والطلاب العرب وخصوصا الطلاب الذين كانوا يتداولون في تشكيل الجمعية السرية الكبرى الا وهي جمعية (العربية الفتاة)(٢٣) .

وهنا لابد من الاشارة الى رايين متناقضين يأخذ المؤرخون بهما حول ظهور حقيقة أهداف الاتحاديين تجاه القوميات اخرى ، فالبعض يقول بأن الاتحاديين لم تكن قد ظهرت عليهم بعد سياستهم العنصرية ـ مثلما يقول رفيق العظم ورشيد رضا وغيرهما عند تأريخهما هذه الفترة ـ والبعض الاخر يقول بأن الاتحاديين

ظهرت خطوط سياستهم العريضة منذ اليوم الاول للانقلاب حتى ان بعض العرب توجسوا شرا من قيام الاتحاديين انفسهم بالانقلاب ، ومن هؤلاء رجال جمعية النهضة العربية محب الخطيب ، وعارف الشهابي والشيخ طاهر الجزايري وغيرهم(٢٤) .

أما احسان الجابري الذي عاصر الفترة وكان اخوة نافع الجابري احد المبعوثين العرب فيقول : كنت في هذه الفترة من انصار الاتحاديين بسبب وظيفتي (مفتش شرطة) وسأعرض امامك هذه الواقعة كما رايتها :

دعيت لحضور انعقاد الجلسة الاولى (لمجلس المبعوثان) حيث كان السلطان عبد الحميد سيدشنه ، ودهشت عند حضوري للمنظر الذي رأيت قبل الاجتماع ، فقد كان العرب متكتلين من ناحية واحدة ، والاتراك في ناحية ثانية (اي بدأ نوع من الانقسام القومي) وعرفت اثناء الحديث ان هناك اتجاها قويا للمطالبة بمطالب قومية ، فترجيت اخي نافع الجابري ان يدعوهم لاجتماع في مكان ما ليتمكنوا من وضع خطة يسيرون عليها اثناء الاجتماعات فابى لي طلبي .. وتابع قوله ليقول : اجتمعنا في بيت شفيق بك المؤيد ، اجتمع ما يقارب ثمانين شخصا من النواب العرب وانصارهم ، وكان بينهم اسعد الشقيري وكانت المناقشات تدور حول مصالح العرب في اطار ان الدولة دولتنا واننا مطيعون لها ولكن يجب ان لاتسمع لبعض موظفيها بالشذوذ تجاه العرب وعلينا ان نوحد الكلمة .. الخ ..

وهنا قام اسعد الشقيري ليتكلم فامتدح الدولة العثمانية وخيراتها وقال انا لا اطمئن لكثير منكم وان اكثر المجتمعين سيذهبون عند طلعت بك وسينقلون اليه ما دار في اجتماعنا هذا ... ولذلك الفت نظركم واحذركم من هذا الاجتماع وابين لكم مخاطره واطلب منكم ان لا تضعوا اي برنامج خطي .. وهنا ثار عليه اكثرية الحضور (فبهدلوه وخرج ..)(٢٥) .

نستدل من كل ما تقدم ان في هذه الفترة لم يكن هنالك ازمة بين الاتحاديين والعرب ولكن كان هنالك ريبة وعدم ثقة ، او بالاحرى صراع من وراء ستار .. كشفت عنه الحوادث تحت قبة البرلمان . على الوجه التالي :

فبالرغم من النجاح العظيم الذي حققه الاتحاديون في هذه الانتخابات لم يتناسوا ان دمشق والبصرة وليبيا قد اخرجت للمجالس بعض المبعوثين من حزب غير حزب الاتحاد والترقي لذلك طعنوا في شرعية انتخاب شفيق المؤيد واتهموه بأنه من صنيعة عزت باشا العابد ، وطعنوا في شرعية انتخاب يوسف شتوان وانه من

الجواسيس كما طعنوا في شرعية انتخاب نائب البصرة طالب بك النقيب وانه من مهربي الاسلحة ، وعندما اراد يوسف شتوان اعلان رايه قام في وجهه النواب الترك وطردوه من المجلس دون الاستماع الى دفاعه ، واخذت اصوات موزعي الجرائد التركية تثير العرب ، وهم يصيحون « ايكى عرب مبعوثك طردي » أي طرد مبعوثين عربيين(٢٦) .

وعندما انسحب يوسف شتوان من المجلس انسحب معهالنواب العرب وآزرهم عدد من النواب الاغريق واحرار الترك احتجاجا على الغاء انتخاب يوسف شتوان(٢٧)

تنبه الاتحاديون الى تكتل العرب وبقية القوميات داخل البرلمان فتساهلوا في تثبيت انتخاب شفيق المؤيد وطالب النقيب وكانت هذه اول بوادر التفاهم المؤقت بين العرب والترك تحت قبة البرلمان (٢٨) . وبالتالي تفاهم حزب الاتحاد والترقي مع حزب الاخاء ...

في هذه الاثناء كانت المظاهرات الطلابية تطوف في انحاء العاصمة والطلاب يلقون الخطب على الجماهير ويوزعون المنشورات التي تبين صحة انتخاب يوسف شتوان وتشرح الموقف على حقيقته حتى تمكنوا من تثبيته ايضا في المجلس(٢٩) .

ويحق لنا ان نتساءل عن موقف الاتحاديين من القوميات الاخرى ، ففي داخل البرلمان لم تقف حكومة الاتحاديين من نواب اية قومية اخرى كما وقفت وشككت في صحة انتخاب النواب العرب بالرغم عن ان نواب القوميات الاخرى قد التفوا حول النائب الحزبي الوحيد الذي نجح عن حزب الاحرار وكونوا كتلة قوية معارضة لحزب الاتحاديين داخل البرلمان .

الصراع الحزبي خارج البرلمان :

أما خارج البرلمان فام يكن موقف الاتحاديين من القوميات الاخرى افضل من موقفهم تجاه القومية العربية ، ولكن موقف العرب تجاه الاتحاديين كان افضل من موقف القوميات الاخرى بدليل الحوادث التالية :

الحادث الاول : تشكلت في باريس بعد اعلان الدستور بنصف سنة جمعية اطلقت على نفسها اسم (الجمعية السورية) برئاسة نخلة ورشيد مطران ، واذاعت هذه الجمعية منشورا جاء فيه : ان جلالة السلطان قد احسن على المملكةبالدستور فكلنا في شكر النعمة وانتظار الرحمة ، فنحن ننتظر اليوم ، يوم الفصل بنفاذالصبر .

ان ما كان لسوريا من المجد فيما سلف وماجعل الله لها من علية المركز واهمية الموقع ، ثم فيما نعلمه من يقيننا بالفريضة الوطنية المقدمة والذمة التابعة بأن لنا عهدا صحيحا لاستيفاء ما نستوجبه من الحق لحياة الوطن فيه **نطلب منح الاستقلال الاداري** .

اننا نرضى القوانين العثمانية سواء ، ونرضخ لما يسن منها ، الا ما كان مجحفا ، « بالصالح السوري » ، اذ ذاك يثبت عندنا بأن البلاد ومن عليها للعلا ترتفع حتى تبلغ شأوها الذي وجدت لاجله ثم شأنها الذي ستحيا لاجله .

ان مجلس نواب الامة يقدر الحق فيما يرجوه ، ويعلم ان ذلك لابد منه لحياة سوريا ومن ثم لعمران وصلاح الدولة العثمانية» .(٣٠)

هاجم هذه الجمعية ومنشورها ، العرب في باريس وكان اشد المهاجمين شكري غانم وسايمان البستاني (٣١) كما هاجمها حقي العظم ورفيق العظم الذي اطلق على هذه النزعة اسم النزعة الفاسدة(٣٢) واذا كان هؤلاء العرب من المؤازرين للاتحاديين ، فما قولنا بالاحتجاج الشديد الذي ارسله ندره مطران شقيق رشيد مطران – واحد مؤسسي حزب الاخاء العربي العثماني ، – في برقية ارسلها الى جريدة (استنبول) يعلن معارضته لميول شقيقه ويستنكر بشدة ضلاله السياسي المشؤوم ويعلن تمسكه بالدولة العثمانية(٣٣) .

وفي داخل البرلمان ابرق حزب الاحرار المعارض ضد هذه الجمعية ومنشورها والتف العدد الاكبر من ممثلي الامة العثمانية حول راي حزب الاحرار ، واعلن اعضاء المجلس عطفهم على الاحتجاجات وكانت القاعة تدوي بالتصفيق كلما قرئت برقية تأييد للوحدة العثمانية ... (٣٤) .

الحادث الثاني : موقف العرب تجاه اسقاط كامل باشا الصدر الاعظم ووزارته ، وملخصها ان ابناء القوميات غير التركية التفت حول الصدر الاعظم كامل باشا الذي رفض الاذعان لسياسة الاتحاديين التعسفية ، ولم ينفذ لهم رغباتهم ، وتجرأت صحف اليونان والالبان واخذت تهاجم الاتحاديين وتتهمهم بالاستبداد والدكتاتورية ، ولم ترق في اعين الاتحاديين هذه الوحدة بين الصدر الاعظم وابناء القوميات الاخرى فعملوا على تنحيته وحملوا عليه حملة صحفية وحملة برلمانية ، ولكنهم واجهوا مقاومة قوية من نواب القوميات التي كانت تشكل المعارضة ، ولكن الاتحاديين تمكنوا من اسقاط الوزارة عندما عرضت على التصويت وكان موقف

النواب العرب كالاتي : ٢٢ منهم اسقطوا الصدر الاعظم ضمن ال ١٩٦ نائبا الذين صوتوا ضده ، في حين وقف على الحياد من النواب العرب ٤٠ نائبا من مجموع ٨٠ نائبا وقفوا على الحياد ، واثنان من نواب العرب صوتوا الى جانبه(٣٥) و في مقدمتهم اعضاء حزب الاخاء العربي العثماني .

الحادث الثالث : شنت صحف المعارضة ــ جرائد اقدام وأستقلال ــ هجوما عنيفا على حكومة الاتحاديين واستبدادهم ، وتكتل نواب المعارضة في المجلس بعد سقوط كامل باشا حول حزب الاحرار الذي ارتفع عدد اعضائه من ٨ الى ٥٠ عضوا في فترة وجيزة (٣٦) ، فوقف النواب العرب بعيدا عن هذا الصراع واتخذوا موقف الحياد ولم يسمع لهم اي صوت بتهديد أو وعيد ، كما فعل مثلا النائب ورتاكسي الارمني ، عندما هدد بمناسبة بحث قانون الصحافة انه ارسل في العهد الحميدي الى تركيا ٦٠ قنبلة وانه الان يعد القنبلة ال ١٦ لمن يتجرا على مس حرية الصحافة(٣٧)

الحادث الرابع : عندما شنت صحف المعارضة هجوما شديدا على الاتحاديين على صفحات جرائد « برودوس » « نيولوغوس » و « وسريستي » و « وعثمانلي » وغيرها وقفت الصحف العربية موقف الحياد حتى صحيفة حزب الاخاء العربي العثماني ، على الرغم من مهاجمة صحف الاتراك للعرب ، مثل صحيفة طنين وغيرها واكثر من ذلك ، كتب رفيق العظم حول ما اشارت اليه بعض الصحف عن تحامل بعض الاتحاديين واساءة الظن بالامة العربية ، ونشر مبادئهم القومية التركية قائلا : كل هذه ظنون لم تبلغ مبلغ الحقيقة ، وحكم ليس هذا اوانه ، لنسجله على اخواننا الترك ، حتى لو صح ما ينسب من المقاصد والاعمال الى بعض افراد جمعية الاتحاد والترقي ... وانه لا ريب في الامر سوء تفاهم واقع بين العرب وبعض افراد الجمعية من الغلاة في حب الجنسية التركية (٣٨) .

الانقلاب المضاد « ٣١ مارث » :

هذه الحوادث ، تدلنا على ان العرب ــ حتى هذا التاريخ ــ كان موقفهم من الاتحاديين وطريقة حكمهم ، وموقفهم من القوميات ، اقل وطأة من موقف ابناء القوميات الاخرى ، وبقي وضع العرب هكذا حتى الانقلاب المضاد الذي حصل في (٣١ مارث)(٣٩) وعودة الاتحاديين الى الحكم في ١٣ ابريل .

ويمكننا القول ، ان الفئة الوحيدة من العرب التي ساهمت بهذا الانقلاب هي فئة العلماء حيث انضم عدد منهم الى جمعية (اتحاد محمدي) التي تأسست

برئاسة احد الشيوخ المتعطلين واسمه (درويش وحدتي) وانشأت جريدة باسم (دولقان) لمهاجمة الاتحاديين . وكانت الجريدة تصف الاتحاديين بالملحدين والماسون ويقول كرد علي في خطط الشام ان الذين دخلوا الجمعية في دمشق يقارب عددهم سبعين الفا ، ويعلل دخولهم بسلامة نية ..

وعندما قتل حسين فهمي بك رئيس تحرير جريدة (سريستي) الناطقة باسم حزب الاحرار ، في ١٧ مارس ١٩٠٩ ، نسب هذا الاعتداء الى جمعية الاتحاد والترقي ، ودفن القتيل بمشهد حافل ومظاهرة اكبيرة ضمت كثيرا من الاهالي ، وجاء طلاب مدرسة الحقوق الى مجلس النواب ، يطلبون القاء القبض على القاتل ، وعلى الرغم من مناقشة النواب مليا بهذا الخصوص الا ان القاتل اختفى .

وفي ٢٣ منه احتشد بعض الجنود ولفيف من الاهالي .. فقتلوا ناظم باشا ناظر العدلية كما قتل الامير محمد ارسلان مبعوث اللاذقية لشبهه بحسن مجاهد صاحب جريدة طنين الاتحادية ، ونسف الثوار مركز جمعية الاتحاد والترقي ومكتب جريدة طنين وشوارى امتي(٤٠) .

زحف الفيلقان الثاني والثالث (فيلق سالانيك ومانستر) نحو الاستانة بقيادة محمود شوكت باشا العراقي العثماني(٤١) وكثير من القادة العرب في مقدمتهم عزيز علي المصري الذي كان على راس الكتيبة الاولى لجيش سالانيك(٤٢) .

وهكذا فشل الانقلاب المضاد وعاد الاتحاديون الى الحكم في ١٣ ابريل اكثر قوة واعمق خبرة ، فتمكنوا من خلع السلطان عبد الحميد ، في ٢٧ نيسان (ابريل سنة ١٩٠٩) ليبدعوا سياسة جديدة نحو الامبراطورية عامة ونحو الاحزاب العربية بصورة خاصة . فكاناول عمل لهم تجاه العرب حل الحزب العربي الوحيد وهو حزب الاخاء العربي العثماني ، وتعطيل الجريدة العربية الناطقة باسمه واغلاق النادي الذي يحمل اسمه بعد ان وجهوا للحزب تهمة الاشتراك في الانقلاب المضاد لتغيير صورة الواقع الحزبي تغيرا جذريا في الامبراطورية لعثمانية ، وبلاد الشام جزء منها .

* * *

الحواشي :

(١) مثل : رفيق العظم ، وحقي العظم ، عزيزالمصري ، العلايلي وغيرهم .

(٢) راجع العدد السابع من مجلة دراسات تاريخية .

(٣) هناك فترة بسيطة حكم فيها حزب الحرية والائتلاف من ١٩١٢/٧/١٠ — ١٩١٣/١/٢٣ .

(٤) من مجموعة آثار رفيق العظم بتصرف .

(٥) احمد عزت الاعظمي ، القضية العربية ، ص ٢ ، ص ٩٨ و ١٠٢ .

(٦) من أوراق الدكتورة سهيلة الريماوي ،مقابلة شخصية مع احسان الجابري .

(٧) أوراق محب الدير الخطيب .

(٨) لقد اخذت الدراسة الوثائقية لجمعية الاخاء من الوثيقتين السابقتين : أ — قانون الجمعية ، ب — تعليمات مختصة بشعب الجمعية وهمامن اوراق محب الدين الخطيب .

(٩) أمين سعيد ، الثـورة العربية الكبرى ، جـ١ ، ص ٤

(١٠) د. شهبندر ، المذكرات — الثورة السورية الوطنية ، ص ٢ — ٣

(١١) ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، نص الدستور من ص ٢٥٧ — ٢٧٨ .

(١٢) المؤيد ١٩١١/٧/٩عن جريدة الحضارةلصاحبهاالمبعوث عبد الحميد الزهراوي .
Corres. d'Orient, 2eme ann., N.7, P. 218.

(١٣) الهلال ، سنة ١٧ ، (أول نيسان ابريل سنة١٩١٩ ، ص ٤١٥ — ٤١٧ .

(١٤) Corres. d'Orient, 2eme ann., N. 7, (Jan. 1900).

(١٥) برنامج الحزب .

(١٦) حديث خاص مع محب الدين الخطيب .

(١٧) رفيق العظم ، آثاره ، ص ١٣٠

(١٨) المنار م ١١ ، ٢٢ يناير ١٩٠٩ ، ص ٩٣٦ وما بعدها .

(١٩) الهلال ، سنة ١٧ ، ج ٥ ، شباط سنة ١٩٠٩ ، ص ٣١١

(٢٠) المقتبس ، ١٩٠٨/١٢/٢٦

(٢١) حدث خاص مع احسان الجابري .

(٢٢) Corres. d'Orient, 2eme ann., N. 8,. (15-1-1909), P. 251.

(٢٣) د. احمد قدري ، مذكراتي عن الثورة العربية ، ص ٤

(٢٤) من حديث خاص مع محب الدين الخطيب يؤيده : الشهابي ، القومية العربية ، هامش ص١٣ قدري قلعجي ، السابقون ، ص ٢٦

(٢٥) من أوراق الدكتورة سهيلة الريماوي ، حديث خاص مع احسان الجابري .

(٢٦) المقتبس ١٩٠٩/١/١ .

(٢٧) Corres. d,Orient, 2eme ann., N. 7, P. 203.

(٢٨) الاهرام ، ١٩٠٩/١/١١ .

(٢٩) أحمد قدري ، مذكراتي عن الثورة العربيةالكبرى ، ص ١٠

(٣٠) المؤيد ، ١٩٠٩/١/١٧ .

(٣١) Corres. d,Orient, 2eme ann., No 8, (15-1-1909)

(٣٢) الاهرام ، ١٩٠٩/١/١٨ ، مقال لرفيق العظمبعنوان ما هذه النزعات الفاسدة .

(٣٣) المؤيد ، ١٩٠٩/١/٢٥ .

(٣٤) Corres. d,Orient, 2eme ann., No 11, (1-3-1909)

(٣٥) الاهرام ، ١٩٠٩/٤/٦ من رسالة لابراهيم سليم النجار مراسل الاهرام بالاستانه .

(٣٦) الاهرام ، ١٩٠٩/٣/١٦ .

(٣٧) الاهرام ، ١٩٠٩/٤/٧ .

(٣٨) الاهرام ، ١٩٠٩/٣/١٥ من مقالة بقلم رفيق العظم .

(٣٩) ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ١١٠ .

(٤٠) جريدة العرفان ، م ١ ج ٤ ، ص ١٨٠ ـ ١٩٠

(٤١) عزت دروزه ، حول الحركة العربية الحديثة ، ج ١ ، ص ١٨ .

(٤٢) صلاح الدين القاسمي ، اثاره ، ص ١٥٧ .

فصل من تاريخ سورية الحديث

صور من حوران في القرن التاسع عشر

د. ليندا شيلشر
D. L. Schatkowski Schilcher.

تتقصى هذه الدراسة تاريخ ريف سورية المهمل نسبيا ، فهي تركز على حوران تلك المنطقة الزراعية الجافة المكونة من التلال والسهول جنوب واحة دمشق ، الواقعة بين الروافد الشمالية لنهر الاردن والصحراء الشرقية(١) . ومع ان حوران لم تعد اليوم ذات أهمية اقتصادية لسورية كما كانت ذات مرة ، فهي مهمة من الناحية التاريخية لانها كانت أول مناطق سورية الريفية النائية التي اندمجت في اقتصاد الشرق الاوسط الحديث النامي(٢) .

فضلا عن ذلك فان حوران ذات أهمية لانها شغلت وضعا في الاقتصاد السياسي لسوريه يحمل سمات تشغلها مناطق داخلية صغيرة الان . ان أوجه الشبه بين حالة حوران عندئذ وبين شمال وشمال شرق سورية الان كثيرة . لقد كانت حوران في القرن التاسع عشر مع هذه الاقاليم المذكورة اليوم مناطق تموين داخلية هامة توفر الاقوات للتجمعات المدنية الكبيرة . وكانت هذه المناطق مكرسة بالدرجة الاولى كمصدر لكسب العملات الاجنبية ، وتوجد فيها شبكة اقليمية هامة من الطرق التجارية . كذلك كانت تجذب اهتمام أصحاب الاعمال في المدن ، بالاضافة الى انها مناطق هجرة واستيطان جديدين تجذب اليها الناس من الجبال والسهول ، وكذلك البدو ، فهي مناطق يعني التطور فيها اندماج المنطقة الريفية في اقتصاد قومي كبير .

---

* نشر هذا البحث بالانكليزية في مجلة دراسات الشرق الاوسط Int. J. Middle East Stud. 13 (1981), 159-179, U.S.A. التـي تصـدر في الولايات المتحدة الامريكية بعنوان :
Thr Horan Conflicts of The 1860s : A Chapter in The Rural History of Modern Syria. للباحثة الالمانية الدكتورة ليندا ساتكوفسكي شيلشر L. Schatkowski Schilcher استاذة التاريخ الحديث في جامعة Johannes Gutenberg - Mainz المانية الغربية .

وقبل ان نتنا ول كل هذه الاعتبارات من الضروري ان نركز على مجرى الاحداث وطبيعة النزاعات التي تتخللها ، ، واتجاهاتها . وتحاول هذه الدراسة ، باستخدام مصادر ومراجع عديدة ، اعادة بناء تاريخ عدد من الاحداث التي وقعت في حوران في الستينات من القرن الماضي(٣) .

حتى منتصف القرن التاسع عشر لم تكن منطقة حوران موضع اهتمام مباشر من الحكومة المركزية العثمانية ، الا في اثناء فترة الحج الى مكة فقط . فخلال مدة تراوح بين الثلاثين والستين يوما في العام كان الحج يمر عبرها ، وبعد أن تنفذ التزامات السلطان في تنظيم وتقديم المؤن لهذا العمل الجبار تركن حوران الى حالة من الحكم الذاتي حتى موسم الحج القادم .

ان عدم اهتمام العثمانيين بحوران قد يبدو متناقضا ، نظرا لا نهذه البلاد الخصبة كانت فعلا تابعة للدولة ، وسكانها مجبرين نظريـا على دفع الضرائب وتقديم انفسهم للتجنيد الالزامي . فقد افترض نظام الولايات العثماني في ذلك الوقت ان بالامكان الاعتماد على أصحاب النفوذ في دمشق « ليحكموا » حوران ، كما هو الامر في عدد من المقاطعات النائية في سورية الكبرى . واتيح للزعماء المحليين ، أو(الاغوات) الذين يعيشون في دمشق ويسيطرون على جماعات صغيرة متحركة من الخيالة ، اتيح لهم شغل مناصب في حوران ذات نفوذ اقتصادي وسياسي وذلك لقاء خدمات للدولة ، كالشرطة وعمليات الحرس وجمع المؤن للحج . وبما ان العثمانيين لم يكن لهم غنى عن هؤلاء الاغوات فان التقييد الوحيد لسلطتهم ومركزهم كان مدى فعاليتهم السياسية بين سكان حوران نفسها . وبالمقابل تطلب هذا قدرتهم علـى القيام بالوساطة الناجحة بين الجماعات المستقرة والمهاجرة في حوران وبين الغرباء . هذا النظام السياسي في المناطق الداخلية كا نله ضوابطه الداخلية ، وكذلك مصادرتوتره ولكن يبدو انه قد استمر طويلا بقدر مناسب من التوازن . فقلة عدد السكان بالنسبة لمساحة الاراضي ، والاقتصاد الطبيعي الذي وجد بين السهوب والسهول المستثمرة وبين المدن والارياف ، قد أسهم نسبيا في هذه الحالة الثابتة .

اضطرب هذا التوازن المحلي في النصف الاول من القرن التاسع عشر بسبب تضافر ثلاثة تأثيرات خارجية كبيرة . كان أولها تأثير سياسة الحكومة المراكزية(٤) فقد اقتضى الامر اعادة تنظيم ادارة الولايات واصلاحها بقصد اتاحة درجة كبيرة من السيطرة العثمانية المركزية لتجديد الامبراطورية . ونظرا للضرورات الادارية لبرامج الاصلاح هذه ، وبسبب الحاجة المتزايدة للاموال ، عمل العثمانيون على مد سيطرتهم الفعالة من المدن السورية نحو المناطق الداخلية . ولم يكتف العثمانيون بأخذ المزيد

من الضرائب والمجندين للجيش من مناطق حوران ، بل اعتقدوا انه يمكن تثبيت عدد من الموظفين المدنيين والدرك الحديث في المناطق الداخلية لتنفيذ هذهالخطوات . وأمل العثمانيون باستبدالهم بالاغوات المحليين وجماعاتهم من القوات غير النظامية . وأملوا أنه بالادارة الحازمة والمركزية ، يمكن لمناطق مثل حوران ان تقدم في اخر الامر دخلا كافيا للدولة ، ليس مقابل هذه التحسينات فحسب ، ولكن من اجل تكاليف الحج أيضا ، كما يمكن ان تسد العجز في الميزانية في أجزاء اخرى من الدولة ، او حتى في ميزانية الامبراطورية .

كذلك ظهر عند منتصف القرن التاسع عشر تأثير اخر كان في طريقه للتطور بطريقة هامة . فقد اخذت انكلترة وفرنسة وقوى اوربية اخرى في ذلك الوقت بتعزيز مصالحها الاقتصادية والسياسية في سورية . فالمناطق الداخلية السورية كانت ذات اهمية بالنسبة للدول الاوربية لانها تنتج محاصيل جاهزة للتصدير من جهة ، وسوق واسع لبضائع اوربة والمستعمرات من جهة اخرى ، واكثر من ذلك ، كان انتاج هذه المناطق يعتبر دخلا اضافيا تعتمد عليه الدولة المركزيةوالادارات المحلية في ضمانة قروضها من المصادر الاوربية الخاصة ، والمصادر التي تقع تحت حماية اوربية . ففي الوقت الذي ازدادت فيه المنافسات الاوربية في شرق البحر الابيض المتوسط ، والتي تطورت الى نزاعات كحرب القرم ، كان ينظر الى سورية أيضا على انها أحد المصادر البديلة الهامة للحبوب وخاصة لمناطق جنوب روسية التي اصبحت بعيدة المنال . لقد كانت دوافع الاوربيين الاقتصادية كبيرة ، فبينما كان المنتجون في حوران يجذبهم — من جهة — نقل حبوبهم الى الساحل لتنال أسعارا اعلى بقليل مما يعرض عليهم بدمشق ، الا ان انتاجهم ظل يحصل على اربعة اضعاف المعدل السوري ، في المبادلات مع اوربة الغربية . أما الدوافع الاضافية للتاجر الاوربي ، فهي تعرفة التصدير العثمانية المنخفضة ، بالاضافة الى ان الحبوب السورية التي تحصد في أيار وحزيران ، تصل الى السوق العالمي قبل منافساتها الاوربية .

هذه التطورات جميعها في تجارة حبوب حوران ادت الى تعقيدات خطيرة لدمشق وللعثمانيين . فتحول تجارة الفائض من الحبدب الى الساحل للتصدير ، عرض للخطر ابناء دمشق وامدادات الحج ، كما رفع اسعار الاستهلاك المحلي . يضاف الى ذلك ان البضائع المصنوعة في اوربة ، وخاصة المنسوجات ، كانت تغري أهل حوران ، الذين كانوا يشترون تلك البضائع مباشرة بالفضة التي يتقاضونها ثمنا للحبوب على الساحل أو قد يتقايضون مع تجار الاستيراد والتصدير ، فيتبادلون الهدايا او يتواعدون على المحصول القادم مقابل بضائع مستوردة . وادى هذا الى

الاستغناء عن البضائع والمنسوجات المنتجة محليا ، وهو أمر بدا مهددا بصورة خاصة لمركز اهل دمشق الاقتصادي ، كما أدى الى تدخل مباشر في شؤون حوران ، من قبل الفعاليات المصرفية الاوربية ، وخطوط الملاحة ، ومؤسسات الاستيراد والتصدير الاوربية .

والعامل الخارجي الثالث أوجدته هجرة دروز لبنان ، المتزايدة الى حد كبير ، نحو حوران ، وخاصة عقب احداث ١٨٦٠ ، وما تبع ذلك من مصادرة اراضيهم . وقد استوطن هؤلاء الدروز في التلال التي تقع شرق وجنوب سهل حوران ، وهذا ما رفع من عدد القرى الدرزية الصغيرة القائمة في المنطقة منذ القرن السابع عشر .

وقبل الخوض في أحداث حوران والتي اخذت اتجاها مهما في عام ١٨٦٠ ، نجد من الافضل ان نستعرض اهم الفئات السياسية وزعاماتها .

موظفو الحكومة المركزية :

مع ان البرامج الاصلاحية للحكومة المركزية كانت قد بدات قبل جيل تقريبا في سورية ، الا ان حوران لم تتأثر كثيرا بها ، ولكن الحالة تغيرت بشكل مفاجيء نتيجة لاحداث تموز ١٨٦٠ في دمشق .

وقد تركز ثقل التغلغل الاوربي الاقتصادي والاصلاحات العثمانية بشكل رئيسي على المناطق الساحلية السورية وعلى مراكز الولايات . وتوج هذا بسلسلة خطيرة من الثورات في حلب ولبنان ودمشق ، ففي ثورة دمشق وقع الالاف من مسيحيي دمشق وما جاورها ضحايا لاعمال العنف التي قام بها جنود ساخطون ودروز محاربون وعناصر عديدة من سكان المدن المسلمين . واتخذت الحكومة المركزية اجراءات سريعة تصحيحية . وارسل فؤاد باشا — وكان من ابرز الشخصيات الاصلاحية العثمانية — الى دمشق بصلاحيات استثنائية ، وكان في ذلك الوقت وزير خارجية الامبراطورية ولكنه ترقى بعد اقامته القصيرة في سورية ليصبح أحد أهم رؤساء الوزارة العثمانيين في القرن التاسع عشر . وقد استخف العثمانيون بآراء فؤاد باشا الاصلاحية الجذرية واعتبروها تنازلا للاوربيين . وفي الحقيقة كان فؤاد باشا يبدو اوربيا ، فهو يلبس كأوربي ويوزع عباراته اللاذعة والذكية بالفرنسية في الحفلات الباذخة في ذلك العهد . ولكن جهود فؤاد باشا في سورية كان يمكن ان تؤول كذلك على انها تهدف الى صد التدخل الاوربي (وكان الفرنسيون لتوهم قد احتلوا لبنان) والى بسط يد الحكومة المركزية على ولايتها لارساء الاصلاح فيها

بشكل ثابت ونهائي . واتخذ (فؤاد) عملا تأديبيا في دمشق فاعتقل واعدم ونفى الكثيرين ممن وجدهم مدانين باعمال العنف ، وادخل الجزء الاكبر من الشباب المسلمين في الجيش ، كما فرض غرامات على السكان غير المسيحيين وخصص منازل لاغاثة واسترضاء من عانى من الاحداث . وبعد أن ثبت سيطرته في دمشق التفت فؤاد باشا في كانون الاول الى المشاكل التي كانت تدبر في حوران ، وهنا قام بأول الاجراءات الهامة لدمج هذه المنطقة في دائرة الحكومة المركزية .

وعندما استدعي فؤاد باشا الى استانبول في كانون الاول ١٨٦١ ليكون رئيسا للوزراء ، سار كثير من الموظفين الذين اعقبوه على نهج سياسته في حوران ، بمن فيهم (حليم باشا) و (رئيس باشا) و (رشدي الشيرواني) و (أسعد مخلص باشا) وجميعهم تناوبوا في فترة تقل عن عشر سنوات . وكان القليل منهم يملك الوقت والامكانات ، أو القرار ، لتثبيت السياسة العثمانية بقوة كما فعل فؤاد باشا . وكانت محصلة جهود هؤلاء تقرر الى حد ما بالتأثيرات الخارجية ، والاطراف المتنافسة ، بالاضافة الى السياسة العثمانية . وقد تم حسم عدد من القضايا الهامة المتعلقة بحوران في عامي ١٨٦٦ ـ ١٨٦٧ في عهد ادارة رشيد باشا .

الاغوات :

واجه الاغوات المحليون تحديات متعددة ، كان الاصلاح العثماني أحد جوانبها فقط . فمن المؤكد ان التهديد بالتدخل المباشر للقوات الحكومية كان امرا مثيرا للخشية ، ولو أن جيش محمد علي ـ الاكثر قوة ـ كان قد فشل في محاولته اخضاع حوران قبل جيل تقريبا . وشكل تدفق الدروز وكذلك تغلغل المصالح التجارية الاوربية الى سهل حوران ، تحديا اخر لاغوات ستينات القرن التاسع عشر . ولم يستطع هؤلاء القيام بعمل متماسك لان الدسائس ذات الصبغة السياسية المحلية كانت قد فرقتهم منذ زمن طويل ، لذا توجب عليهم أن يقاوموا هذه التحديات من أجل الحفاظ على مصالحهم الخاصة . وفي بعض الاحيان كان يمكن ادراك المعاني السياسية لهذه التغيرات التي تجرى ، ويرتبط بها تماما ذلك الصراع من اجل الحفاظ على دور الاغوات الراسخ في حوران .

كان أحمد آغا من أبرز الاغوات الذين ادركوا أهمية التغيرات السياسية التي تحدث ، وكان في العقد السابع من عمره ، وزعيم اسرة كردية دعيت فيما بعد (آل يوسف) ، عاش أحمد آغا اليوسف في دمشق وشارك في السياسة المحلية العاصمة . وكان بنظر السلطات العثمانية والسكان المحليين احد أعيان دمشق

المهمين . وقد سمي (قائدا) لقافلة الحج ، وعين فيما بعد حاكما اقليميا في حوران، وتمكن ان يجمع خلال مهامه املاكا شخصية ومواشي في حوران .

والى جانب أحمد آغا ، ابرز الرؤساء المحليين ، كان هناك عديدون : رسول آغا ، شمدين آغا ، أحمد آغا بوظو ، محمد آغا اجليقين وهولو آغا العابد . ويمكن أن نضم الى هذه المجموعة الامير عبد القادر الجزائري ، البطل الجزائري المنفي في دمشق منذ ١٨٥٦ ، والذي سلك سلوكا يمكن مقارنته باسلوب الزعماء الاخرين ، على الاقل في القضايا المتعلقة بحوران . وعاش جميع هؤلاء كأحمد آغا اليوسف ، في دمشق وتدخلوا في سياسة المدينة التي قسمتهم الى فئات . مثال ذلك ان اليوسف كانت لهروابط مع اعيان المدينة العريقين ، وهم عادة اعضاء المجلس الاداري المحلي، وهو المؤسسة المالية المحلية الرئيسية . وكانت عائلته كعائلات الاغوات : شمدين وبوظو واجليقين ، من الاكراد وعاشت في ضواحي المدينة الشمالية الغربية ، ولذلك كانوا على تنافر مع أغوات عائلة العابد وغيرهم الذين كانوا يعيشون في الميدان ، الحي الجنوبي الذي كانت له روابط اقتصادية واجتماعية عديدة مع حوران . وزاد في تعقيد الصورة ان الامير عبد القادر الجزائري ، القادم الجديد ، لم ينتم الى أي من الاطراف ، بل كانت له صلات مع القنصلية الفرنسية ، ومع عدد من الاعيان الذين برزوا في دمشق نتيجة لتغلغل النفوذ الاقتصادي الاوربي وبرامج الاصلاح العثمانية .

زعامة حوران الخاصة : زعماء السهل :

استقر سكان سهل حوران في عدد من القرى كانت كل واحدةمنها محاطة بأراض يعاد توزيعها سنويا . وفي كل قرية كان في مركز القيادة أسرة أو اثنتان ، تبعالعدد أفراد الاسرة ، او تضامنها ، أو بسبب القدرة الانتاجية والثروة الناجمة عن ذلك . فأسر (المقداد والحريري) في بصرى ، و (الشريدة) في الكوره في عجلون و (المجالي) في الكرك ، وكذلك (الترك)* كانت لهم مكانتهم بين سكان السهل في حوالي منتصف القرن التاسع عشر .

وكانت هذه الاسر تعتبر الناطقة بلسان سكان السهول في تعاملهم مع العالم الخارجي ، ولم يكن لديهم على ما يبدو سلطة كبيرة على سكان القرى المجاورة ولذا لم يكن بامكانهم ان يمثلوا مصالحها عند التعامل مع الغرباء .

---

* لا يوجد عشيرة بهذا الاسم .

زعمـاء قبائل الدروز :

وعلى النقيض من زعامة سكان السهل الهادئة على ما يبدو ، فقد تولى زعامة دروز حوران رؤساء ميالون للقتال . وباستثناء قلة من الاسر الدرزية العريقة التي جهدت لابعاد نفسها عن النزاعات السياسية من أجل المحافظة على مصالحها الاقتصادية ، والتي كانت تشبه الى حد كبير مصالح سكان السهل ، فان معظم الدروز كانوا على صلة باحدى العشائر الدرزية في لبنان ، التي يمكن ان يركن اليها بتقديم العون المسلح في أوقات النزاع .

اعتبر دروز حوران قبل ١٨٦٠ عشيرة (حمدان) العشيرة المقدمة بينهم . ولكن هجرات ونزاعات الستينات انهت تفوق عشيرة (حمدان) وابرزت عشيرة (الاطرش) . في هذا الوقت كان هناك صراعات داخلية سياسية فيما بينهم ، ولكن العشائر المختلفة حافظت على مكانة قبيلة الاطرش ضمن التجمع الدرزي . بوجه عام كا نالامر الاكثر أهمية ان اكل دروز حوران كانوا يحاولون مد سيطرتهم الاقتصادية الى سهل حوران . ويدفعهم لذلك ازدياد عددهم ورغبتهم في زراعة السهل الخصيب من مواقعهم الجبلية المنيعة كما فعلوا في لبنان . واضافة الى تلبية حاجاتهم يبدو انهم قاموا بالاتجار مع لبنان ومع تجار دمشق حيث عرف عنهم في ذلك الحين انهم كانوا يسيرون قوافل الحبوب لكلا المنطقتين .

شيوخ البـدو :

كان البدو ثالث مجموعة من سكان ريف حوران ، فقد وفر سهل حوران المراعي لقطعانهم ومواشيهم خلال الصيف حين تنضب الاعشاب في الصحراء . وكان يخيم في حوران في الربيع حوالي مئة الف من البدو ، ويمكثون حتى امطار الخريف. وخلال هذه الفترة كانوا يبادلون الحبوب بالحيوانات وباللحوم ، ويشترون سلعا أخرى من القرويين أو الباعة المتجولين الذين يأتون بالسلع من دمشق او من الساحل . كما كانوا يضربون خيامهم في حوران اثناء موسم الحج ، الذي يقع حسب التقويم القمري الاسلامي في أوقات مختلفة من السنة . وقد استفاد البدو كثيرا من موسم الحج بتقديم اللحم والنقل والايواء والحماية .

كانت قبيلة (اولاد علي) وقبيلة (الرولة) اكثر قبيلتين فعالية في حوران في منتصف القرن التاسع عشر ، وقد اسندت الحكومة الى (اولاد علي) تنفيذ أعمال الحج واستبعدت قبيلة الرولة ، ولذا كانت هذه تسبب متاعب (لاولاد علي) ومن

يساهم معهم وخاصة في السنين التي يقل فيها المحصول ، وما يرافق ذلك من ضغط على امدادات الطعام . وكان يزيد حدة المنافسة بين هاتين القبيلتين استثمار الاغوات لها ، نظرا لما يشكله البدو جميعا من تحد لمركز الاغوات ، فقد كان بامكان البدو مثلا التحالف مع سكان حوران او مع الدروز ضد الاغوات . وبتقسيم البدو الى جماعات متنازعة اعطي الاغوات الشرعية لمكانتهم امام الحكومة المركزية واصحاب النفوذ في دمشق ، على انهم المهدئين للحالة في حوران . وكان يتزعم (أولاد علي) في هذا الوقت الشيخ (محمد الدوخي) ، في حين تزعم الرولة الشيخ (فيصل الشعلان) .

اضافة الى اولاد علي والرولة ، كان يتواجد في حوران كثير من القبائل الصغيرة ، وقد ظهر منها القليل في احداث الستينات من القرن الماضي ، كقبيلة (السردية) و (سرحان) و (سلط) . وكانت قبيلتا (السردية وسرحان) كأولاد علي والرولة أصحاب قطعان أغنام وجمال ، بينما بقيت قبيلة (سلط) ثابتة في المنطقة الصخرية المجدبة من حوران وهي (اللجاه) ، وغالبا ما تحالفت مع الدروز الذين اوكلوا لهذه القبيلة رعي قطعانهم .

الاوربيــــون :

لابد ان نذكر اخيرا الاوربيين الذين تورطوا في نزاعات حوران في ستينات القرن الماضي ، ويمكن ان نصنفهم في ثلاث مجموعات : اولا : كان هناك التجار الاوربيون والقناصل الذين يمثلون مصالحهم . وقد أبدى قنصل فرنسة (هيكارد Hecquard) اهتماما شديدا بحوران وكان يسعى لحماية التجار الفرنسيين والمرتبطين معهم في تجارة الحبوب . كذلك أظهر السيد (روجرز Rogers) قنصل بريطانية والسيد (ويكبكر Weckbecker) قنصل النمسة ، اهتماما كبيرا بحوران وبجمع الضرائب هناك في ذلك الوقت ، على الرغم من انهما كانا منشغلين بالصعوبات المالية لبعض سكان دمشق المتمتعين بحماية حكومتيهما الذين كانوا دائنين للخزانة المحلية. وقد بعث القنصل الروسي السيد (وتزتشاين Wetzstein) بتقارير كثيرة عن حوران وحصل على بعض الفوائد الشخصية عن الاراضي هناك ، كما فعل ويكبكر .

ثانيا : المجموعة الثانية من الاوربيين تكونت من اشخاص يزورون سورية كرحالة وعلماء مرتحلين وارساليات ، بالاضافة الى قلة من المستوطنين . وقد قدم هؤلاء الى سورية لمتابعة « الاستشراق » أو لاهتمامهم بالحفريات ، واحيانا كانوا ينشغلون في معاملات تجارية او يقومون بمهمة المخبرين أو الوكلاء لحكوماتهم .

ويمكننا الافتراض ان التقارير القنصلية كانت تقوم غالبا على المعلومات التي ينتقيها القناصل من المقارنة بين مصادر هؤلاء ومصادرهم المحلية . وقد نشر ما تجمع لدى هؤلاء الاوربيين من تجارب وخبرات من استطلاعاتهم في سورية ، وحظي باهتمام القراء في اوربة(٦) .

والصنف الثالث والفريد كان ذلك الشخص الايرلندي (يوجين اوريلي O'reilly) الجندي الثري ، والذي عمل تحت الاسم المستعار (حسن بك) ، قائدا لقوات الدرك العثمانية التي تشكلت حديثا ، ولعب دورا كبيرا في جهود العثمانيين لاخضاع الاغوات .

ولنعد الان الى خلافات حوران في الستينات من القرن الماضي لتتبع الاحداث كما تطورت ، ويمكن ان نصورها في أربعة ادوار .

حوران ١٨٦١ - ١٨٦٧

الدور الاول : النجاحات الاولى للحكومة المركزية في حوران :

في كانون الاول ١٨٦١ وصلت الى دمشق تقارير تفيد بأن عددا من زعماء الدروز في منطقة التلال الشرقية قد نجحوا في مد نفوذهم في سهل حوران . وقد أرسل فؤاد باشا قوة من (٨٠٠) جندي الى قرى منطقة دمشق المحاذية لحوران في محاولة لمنع تقدم الدروز اكثر من ذلك وتبع ذلك عدد من الصدامات بين العثمانيين والدروز . وبهذا اظهر الدروز عسكريا انهم يستطيعون بسهولة وقف تقدم العثمانيين جنوبا في حوران(٧) .

زاد فؤاد باشا القوات الى (٢٠٠٠) بسبب اقتراب موسم الحج والحصاد . ولكن الدروز في هذه الاثناء كانوا قد هيأوا انفسهم لمصادمات اكثر خطورة ، فأرسلوا مخزونهم الى ارض اللجاه المنيعة واستعدوا لارسال عائلاتهم لمسيرة يومين في الصحراء ، بينما ابقوا قطعانهم والمؤن لحاجاتهم الضرورية(٨) .

ومع قدوم اشهر الجفاف والحصاد تحرك الى حوران ما يقدر عدده بحوالي مئة الف بدوي وضربوا خيامهم ، وبقيت علاقاتهم مع الدروز وسكان حوران هادئة ، بينما اشيع في دمشق انهم قد وافقوا على التحالف مع الدروز ضد العثمانيين ، ان جرد هؤلاء حملة الى حوران . وقد حدثت مناوشة بين الدروز والبدو حول حقوق الرعي ولكن سرعان ما زال النزاع عندما رضخ الدروز للبدو(٩) .

وبالمقابل ، وبشكل يناقض الحالة الهادئة في حوران ، كان هناك نزاع دائم في القرى القريبة من دمشق حيث عسكرت القوات العثمانية(١٠) . وحاولت هذه القوات كسب مساعدة القرويين عن طريق اعادة الاغنام الضالة والمسروقة خلال اضطرابات الشهور السابقة . وعندما بدأوا بجمع الضرائب عرضت قوات الاغوات المشتتة وغير النظامية العثمانيين للخطر مؤملة ان تستأنف اعمالها في المنطقة(١١) .

وخلال صيف ١٨٦١ دفع القرويون في دمشق خمسة آلاف كيس من المال لصالح الخزينة العثمانية(١٢) ، بينما افلت اهل حوران من الضرائب تماما . ولاشك ان بروز الدروز اثار سخط فؤاد باشا ، ولكنه تردد في شن حملة كبيرة ضدهم ، وكان يقال انه خشي من ان يؤدي ازدياد النزاع في المنطقة الى تأخير جلاءالقوات الفرنسية عن لبنان ، التي كانت هناك منذ احداث تموز ١٨٦٠(١٣) . وبدلا عن ذلك تدبر فؤاد باشا امر الحصول على منحة خاصة من استانبول تعادل سبعة آلاف كيس(١٤) . كان هذا المبلغ والضريبة التي جبيت من قرى دمشق كافيين لتغطية نفقات الحج ، مما جعل جمع الضرائب من حوران أمرا لا ضرورة له . وانقضى موسم حج ١٨٦١ دون أن يعكره حادث خطير .

وقد تدهورت الحالة بالنسبة للعثمانيين في ١٨٦٢ حين عين حليم باشا قائد القوات العثمانية حاكما مؤقتا بعد ان غادر فؤاد باشا دمشق في كانون الاول ١٨٦١ . وكان حليم باشا احد الذين يميلون الى القيام بحملة ضد الدروز . وقد وجد العديد من فئات دمشق ، والذين تهددت مصالحهم في حوران ، اذنا صاغية لدى حليم باشا . كما ان النقص في اعتمادات الحج كان دافعا للسلطات الى موقف عسكري ضد الدروز . وباءت المحاولات المتكررة لاعتصار الدخل الحكومي من قرى دمشق بالفشل ، ولم يبد أن منحة خاصة ستأتي من استانبول في عام ١٨٦٢ ، واكثر من ذلك ، وبما أن الحج سيحل قبل اسبوع حسب التقويم ، جندت كل المهام لتوفير المؤن لان موسم الحصاد كان قد جمع لتوه .

وقد طلب حليم باشا من الدروز اولا مجندين اجباريين ، وهي خطوة اعتبرت دعوة مقنعة (للبدل) ، الضريبة كانت تدفع في سورية للاعفاء من التجنيد . فأجاب الدروز مباشرة بانهم نالوا تأييد بدو حوران وانهما معا سيقاومون كل محاولة للتجنيد الاجباري او جمع الضرائب في حوران(١٥) .

هنا تقدم أحمد آغا اليوسف من الحاكم بخطة(١٦) تقضي بأن يرسل ابنه محمد آغا اليوسف الى بصرى ، مكان اجتماع رؤساء سهل حوران ، ليفاوض من

اجل عقد ميثاق بينهم وبين العثمانيين . ومع ان اليوسف كان له ـ كمعظم الاغوات ـ مصالح شخصية في حوران من حيث الاراضي والمواشي(١٧) ، فقد كانت حاجته لكسب نجاح للعثمانيين في حوران ، بقصد الحفاظ على مكانته السياسية ومكانة الاغوات في دمشق ، اهم من مصالحه الشخصية . وكان العثمانيون قد بدأوا في الوقت نفسه بتشكيل الدرك تحت امرة حسن بك (اوريلي)(١٨) ، هذه القوة التي تستطيع تقويض نفوذ اليوسف السياسي تحت شعار عدم قدرة قوات الاغوات غير المنظمة والآيلة الى الزوال .

قبلت خطة اليوسف ولكن عندما لم ينجح ولده في المفاوضات مع زعماء سهل حوران تقدم أحمد آغا بنفسه للقيام بالمهمة ، ونجح بتحقيق اتفاق مع زعماء السهل على البنود التالية(١٩) : يقدم القرويون في حوران المجندين الاجباريين ولكن يمكنهم دفع بدل يصل الى ٣٢ الف مكيال من القمح(٢٠) كذلك طلب من أهالي حوران تزويد الجيش المتمركز في حوران بالقمح . والضريبة الثانية كانت تعتبر جزءا من العشر السنوي الذي كان على القرويين في اراضي الدولة ان يدفعوه ، واقترح اليوسف ان يوضع الف من قوات الاغوات وبدو (الرولة) في حوران لحماية القرويين من الاغارة عليهم حين قيامهم بالحصاد وتحميل القوافل . وقد حصل اليوسف على موافقة الزعماء الحاضرين وعددهم ستة وعشرون ، واعلن الحاكم في دمشق حليم باشا هذا النجاح الرائع مع الرضا بلا شك .

ولسوء حظ حليم باشا واليوسف لم يقتنع فلاحو حوران بالاتفاق كما فعل زعماؤهم . وعندما علموا بما خطط لهم حدث شيء غير عادي ، فقد هاجموا خيمة اليوسف واخرجوه ، من بصرى ، ولكنه نجا بجروح طفيفة ولجأ الى مزيريب ، وهي بلدة جنوب حوران حيث بدأ تجمع قافلة الحج ، مع بعض القوات الحكومية(٢٠)

استمرت مناورات اليوسف حادة مع تلك النكسة . فقد نجح في زرع الشقاق بين القبيلتين الرئيسيتين في حوران . فقد اقنع المجلس الاداري في دمشق بتحويل الدعم الى قبيلة (الروله) برئاسة فيصل الشعلان بدلا من قبيلة (أولاد علي)برئاسة محمد الدوخي . وبذلك آلت حقوق الرعي في الحقول الخصبة في مرج الغوطة في واحة دمشق ، وحق حماية قرى حوران وما رافق ذلك من فرض الخوة ـ وهي ضريبة للبدو مقابل الحماية والعمل المربح من مرافقة الحج ـ كل هذه الحقوق انتقلت من الدوخي الى فيصل . وقيل ان اليوسف تلقى مقابل ذلك عشرين حصانا ومبلغا كبيرا من المال من فيصل(٢١) . ولكن اليوسف أمل ان يكسب سياسيا وماديا

بدعمه لفيصل والروله ، وبهذا اثار منافسات جديدة وهدد بتقويض التحالف الذي كان يشكله الدروز بين فئات حوران .

في هذا الوقت كان اسماعيل الاطرش زعيم الدروز قد تفوق على اليوسف ، عندما نجح في التوسط بين رئيسي قبيلتي اولاد علي والروله ، وحقق اتفاقا بأن يقفا معا في وجه اية حملة عثمانية في حوران(٢٢) . ومع نهاية ايار ١٨٦٢ كانت اسرة الاطرش قد نظمت عمليا كل فئات حوران ضد العثمانيين(٢٣) . فالادارة المحلية المفلسة لم تستطع الحصول على الجمال والمؤن للقافلة التي انطلقت من دمشق بالحيوانات المصادرة بالقوة(٢٤) . ولم تكن مفاجأة أن الحج هوجم لحظة ان دخل حوران . وقد أحاط كلا من (أحمد الترك) احد زعماء السهل و (البكرطان Bakratan) رئيس التحالف بين الاطرش وقبائل السلط ، أحاطا بالقافلة عند طريق خان ذنون(٢٥) . واستمر الحصار طيلة حزيران ولم تنجح القوات الجزائرية الفعالة وغير النظامية ، التي ارسلت من دمشق لنجدة اليوسف في مزيريب ، في عبور الطريق . وقامت جماعات داخلية اخرى بالهجوم عند نقاط اخرى . كما شكلت عمليات السلب التي قام بها بدو (عنزه) في الصحراء الوسطى السورية للقوافل بين بغداد ودمشق ضربة اخيرة للطريق التجاري الصحراوي(٢٦) . وقام فيصل زعيم الروله بتدبير هجوم على تجار دمشق العائدين من حوران على الطريق الشرقي لتجنب طريق خان ذنون(٢٧) .

في هذا الموقف الصعب دبر احمد آغا اليوسف مكيدة اخرى . فقد نجح في اثارة النزاع بين انصار الاطرش في قرية تكا والقرويين في بصرى ، وعندما وصل الدرك الذي تشكل حديثا لاستغلال هذه الثغرة طوى القرويون خلافاتهم وردوا الدرك معا(٢٨) .

واخيرا حول رجال رسول آغا ، لا رجال اليوسف ، الامور لمصلحة العثمانيين واليوسف . ففي أواخر ايار هاجم رجال رسول آغا خان ذنون ونجحوا في التغلب على بدو السلط وقتلوا زعيمهم (بكرطان) وحملوا رأسه الى دمشق حيث عرضوه(٢٩) وتبع ذلك ضربة ناجحة للدرك عندما فاجأوا خيام بدو سرحان والسردية ، اللتين انضمتا الى تحالف حوران كما يبدو ، فقتلوا (٢٠) بدويا وعادوا برؤوسهم الى دمشق(٣٠) . بعد هذا تمكنت قافلة الحج من التقدم الى مزيريب حيث قدم الدروز الذين عوقبوا الفي مكيال من الحبوب(٣١) (وهذا مقدار زهيد عندما يقارن بـ ٣٢,٠٠٠ مكيال طلبها اليوسف) وبهذا كما نعتقد تدبر امر الحج عام ١٨٦٢ .

عند عودة احمد آغا اليوسف الى دمشق عرض ان يقوم العثمانيون بحملة كبيرة في حوران وهو واثق من ان التحالف الذي يقوده الدروز سيتحطم الى الابد ، ونالت مشورته كل الاهتمام . وشنت حملة بقيادة رئيس باشا مؤلفة من عشرة آلاف رجل تشتمل على ٩ كتائب مشاة وواحدة من الخيالة وواحدة مدفعية مع ٢٤ مدفعا(٣٢) وخطط اليوسف لتدبر الامر مع الدروز بنفسه .

وقد عبر الدروز عن عدم رغبتهم بالتفاوض وقاموا فجأة بضربة للعثمانيين المعسكرين في (لاجامار) وبصرى . كانت هذه الصدامات خطيرة واستعملت فيها المدافع ولكن ما تمخضت عنه لم يكن حاسما . مع ذلك استطاع رئيس باشا ان يعسكر برجاله في (عرى) التي كانت تحت نفوذ آل الاطرش(٣٣) .

واخيرا بدات محاولات احمد آغا اليوسف لتفتيت التحالف الواهي بين (اولاد علي) و (الروله) . وقبل ان تتاح الفرصة لآل الاطرش بالتوسط بينهما هاجم الدوخي فيصل . ولم تحارب القوات المتمركزة في حوران الى جانب الدوخي كما كانت تفعل عادة بل بقيت موالية لفيصل ، الشخص الجديد المفضل لدى العثمانيين . وقامت هذه القوات ، باحتجاز بعض قريبات الدوخي لتستثيره لمهاجمتها ، ولكنه لم يفعل كي يقدم دليلا على حسن نيته نحو الحكومة المركزية . بعد ذلك وثب فيصل على الدوخي واجبره على التراجع الى اللجاه(٣٤) . وكان الامر التالي هو هجوم الدرك الناجح على الدروز(٣٥) .

ونظرا لبدء انهيار تحالف الدروز مع جماعات حوران تحت ضغط هزائم عديدة ، وافق الاطرش على المفاوضات مع الحكومة المركزية . وكانت الاتفاقية التي تم التوصل اليها في ١٨٦٢ حدا فاصلا في تاريخ حوران . فقد وافع الدروز التابعين للاطرش ان يجمعوا من اهل حوران كل الضرائب المتأخرة والغرامات المستحقة للحكومة منذ احداث ١٨٦٠ في دمشق وما جاورها ، كما وافقوا على ان يدفعوا البدل عوضا عن الخدمة الالزامية(٣٦) . وعرف حينئذ المبلغ الذي وعدوا به ، فقد وصل دمشق بعد ذلك بوقت قصير مئتا الف قرش تركي وكمية كبيرة من القمح والشعير ، مع التعهد بان باقي المبلغ المتفق عليه سيرسل خلال شهرين . وعندما اشتكى سكان حوران في شهر آب من التواجد المستمر للقوات النظامية وغير النظامية رتب محمد آغا اليوسف انسحابها شريطة ان يرسل آل الاطرش بعض اقربائهم الى دمشق كرهائن حتى تسدد كل الضرائب(٣٧) . فضلا عن ذلك ، واثناء هذه الترتيبات ، هاجم الدرك بنجاح فئة من الدروز يقودها (خطار بك العماد)

المعارض البارز لآل الاطرش في تجمعات حوران الدرزية . وقتل خطار بك في هذه الحملة ، التي كانت خسارة سهلت صعود آل الاطرش .

بالنسبة للبدو فقد عادوا الى الصحراء مع قدوم امطار الخريف ، وحطمت العداوات كلا من فيصل الذي قتل ولده والدوخي الذي كان مختبئا في اللجاه . وبقي الزعيمان في منطقة حوران بينما تحركت القبيلتان باتجاه الشرق والجنوب نحو الصحراء لرعي مواشيهم . وبما ان دمشق اغلقت بوجهيها فقد بقيا في حوران الى ان تقرر الحكومة وضعهما(٣٨) . وفي الاسبوع الاول من تشرين الاول كان آل الاطرش قد نجحوا في جباية ما يقدر بربع الضرائب التي وعدوا بها ، ومع ذلك اعلن رسميا ان حليفهم الدوخي متمرد(٣٩) ، وبقي فيصل الشخص المفضل لدى العثمانيين . وقد استنكر الدوخي هذا وأرسل ابن عمه (صال الطيار) ليلتمس تدخل القنصل الفرنسي لدى السلطات العثمانية في دمشق ، وتأجل تنفيذ الاعلان حتى الربيع على ان يسمح له بدخول دمشق خلال هذه المدة ، ولكن الحكومة لم يكن لديها نية بالتراجع عن قرارها(٤٠) . وسخر أحمد آغا اليوسف من الدوخي أمام المجلس الاداري في دمشق وكشف ان علاقته بالفرنسيين هي التي افقدته تأييد الحكومة له(٤١) . وطلب الدوخي ، حين فقد كل أمل ، من القنصل الفرنسي ان كان بامكانه ان يرسل هدية من خيوله الى الامبراطورة الفرنسية(٤٢) .

ان التسويات التي تحققت في حوران مع نهاية ١٨٦٢ وخلال هذا الدور الاول من النزاع كانت علامة بارزة في تاريخ المنطقة . فالتفاهم المتبادل الذي توصل اليه احمد آغا اليوسف واسماعيل الاطرش كان مؤشرا لعدد من التغييرات ، فللمرة الاولى ومنذ زمن طويل نجح العثمانيون في انتزاع كمية كبيرة من الضرائب ليس فقط من اهالي حوران ولكن ايضا من الدروز وحتى من بعض البدو . وطبقا لقائمة الضرائب التي أفاد بها القنصل الفرنسي عام ١٨٦٣ فان المناطق الموحدة جنوب دمشق (وهي تشمل سهل حوران ، جيدور ، عجلون ، جبل الدروز ، واللجاه) قد قدمت ثلاثة ملايين قرش(٤٣) .

وفي حين لم تتح هذه التدبيرات عودة الادارة المباشرة لحوران الا انها انهت حالة حوران القريبة من الحكم الذاتي ، فعشيرة الاطرش التي وافقت على مناصرة السياسة العثمانية في حوران دعمت نفوذها بين الدروز وجماعات اخرى في حوران . وايدت الحكومة المركزية الاطرش ومنحت زعماء العشيرة الالقاب ومهام الموظفين الرسميين . وعندما كانت الحكومة المركزية ترغب بين حين واخر القيام بخطوات اكبر في حوران كانت تلجأ الى عشيرة الاطرش ، متحدية اياها احيانا ، وخاطبة ودها في اكثر الاحيان .

الدور الثاني : محاولات الحكومة المركزية للتخلص من الاغوات :

على الرغم من ان احمد آغا اليوسف قد اعطي لقب باشا وعين حاكما لمنطقة حوران فان العثمانيين لم يرضوا تماما عن دسائسه بين البدو ، وعن القوات غير النظامية الموجودة باستمرار تحت امرته وامرة اغوات اخرين . ففي كانون الثاني ١٨٦٣ اعلن رشدي شيرواني باشا الحاكم الجديد في دمشق ان قوة يشكلها حسن بك (اوريلي) ستحل محل القوات غير النظامية(٤٤) . وكانت قوات (حسن بك) فعالة ووقفت عادة ــ ولكن ليس دائما ــ الى جانب الحكومة في احداث ١٨٦٠ ، الا انها كانت تعاني صعوبات مالية في ذلك الوقت . كان على (اوريلي) ان يشكل قوة كاملة من الشرطة الحديثة والدرك معا ، وان يغري رجال الاغوات بالانضمام اليها ، وحتى الاغوات انفسهم كان عليهم ان يعملوا كقواد في هذه القوة(٤٥) .

استقال أحمد آغا اليوسف مباشرة من منصبه كحاكم لمقاطعة حوران ، لاعتقاده انه لا يستطيع ان يحقق السيطرة بدون أن تكون القوات غير النظامية تحت امرته . كذلك رفض اليوسف فكرة امكان محافظة قوات الدرك الجديدة على اتفاقيات الرعي مع البدو دون أن تكلف نفقات كبيرة غير ضرورية للخزينة(٤٦) . وكما لو كان الامر بيانا لوجهة نظره ، ظهر فجأة بدو (الروله) في حوران ، على الرغم ان وقت الصيف أو الحج لم يكن حان بعد ، وتبع ذلك قدوم منافسيهم(اولاد علي)(٤٧) .

واستمرت الاضطرابات مع البدو مادامت قوات الاغوات مشتتة . فاستدعت السلطات الدوخي الى دمشق ولكنه رفض الحضور دون منحه تعهدا للمرور بأمان ، وقام القنصل الفرنسي بترتيب ذلك . وصل الدوخي ومعه عدد كبير من المرافقين فقام اليوسف باعتقاله في حين وقفت السلطة موقف المتفرج(٤٨) . واطلق سراح الدوخي بعد ذلك بوقت قصير ، وتلقى امرا بترحيل قبيلته في الحال من حوران . واثار هذا سخط الدوخي الشديد فأخذ رجاله بعيدا نحو الجنوب الى البلقاء ،حيث قرروا ان يغلقوا طريق قافلة الحج(٤٩) . واحبطت محاولات الحكومة للتصالح مع الدوخي عندما قتلت قوات الاغوات رسولا من اقربائه كان يحمل له اذنا بالمرور بأمان(٥٠) . ولم تعد في مزيريب جمال او حرس للحج ، وتضاءل عدد الحجاج الى ما دون المئتين . وهاجم البدو قافلة مؤنهم عند العودة(٥١) . وبقي البدو وعدد من زعماء الريف في نزاع مكشوف طيلة شتاء ١٨٦٣ ــ ١٨٦٤ .

ان محاولات الحكومة لخلق قوة شرطة ودرك جديدة محلية قد اعاقتها كذلك صعوبات عدة ، جميعها من نسج اليوسف . ولم يتلق حسن بك (اوريلي) أية

اجور من الخزينة المحلية لجنوده ، وترتب عليه ان يدفع لهم من جيبه الخاص ولشهور عدة وهو ينتظر المال(٥٢) . ثم حولت فرقتان من احسن قواته الى امرة (علي بك) الذي يعتبره حسن بك (تركيا لا ينافس)(٥٣) . واخيرا استدعي حسن بك الى استانبول ليجيب على تهمة اشتراكه في مؤامرة تهدف لاحلاله محل العثمانيين(٥٤) . وبهذا اختفى حسن بك والدرك الحديث عن الاحداث لعدد من السنين ، وعندما عاد اوريلي الى سورية في ١٨٦٨ على راس مجموعة من الرجال المسلحين كان قد استأجرهم لامر يتعلق بمؤامرة مصطفى فاضل باشا المطالب بعرش مصر(٥٥) ، لم يكن خصمه احمد باشا اليوسف على قيد الحياة ليرفع دعوى الخيانة ضده .

وهكذا ففي الوقت الذي استمرت فيه اتفاقات ١٨٦٢ مع الدروز فان الاغوات والبدو بقيا مشكلة للحكومة المركزية خلال عام ١٨٦٤ مما اضطر العثمانيين الى موقف مسالم نظرا لنقص الاموال وفقدان قوتهم . ومع أن احمد باشا اليوسف الطاعن في السن قد توفي في ١٨٦٤ فقد استمر اولاده واغوات اخرون باظهار المعارضة لاضمحلال نفوذهم السياسي .

وبالنسبة للحج عام ١٨٦٤ فقد تم بفضل جهود عبد القادر الجزائري الذي قدم فرقة مسلحة من رجاله . ولم تعان الحكومة من غارات محرجة لها(٥٦) .

وقد اعاق وباء الكوليرا وبلاء الجراد ومرض القطعان اي نشاط في سورية عام ١٨٦٥ ، ولكن النزاعات القديمة برزت ثانية عام ١٨٦٦ .

الدور الثالث : المواجهة الصريحة بين المصالح المحلية والاوربية :

في كانون الاول ١٨٦٥ حل اسعد باشا مخلص محل رشيد شيرواني باشا كحاكم في دمشق ، وقد وجد القنصل البريطاني السيد (روجرز) اسعد مخلص وسياساته بشكل خاص امرا بغيضا ، وكعادة القناصل في الازدراء كتب : « من الصعب للباب العالي ان يختار حتى من ادنى المرؤوسين الذين هم تحت تصرفه شخصا غير مناسب و ... اكثر خطرا لمنصب حاكم عام »(٥٧) . واكثر ما ازعج روجرز ان الحاكم الجديد قد اعاد امر فرض الضرائب في دمشق وما حولها الى ماكان عليه سابقا ، بوضعها بايد « فاسدة » ، (اي من خلال المجلس الاداري المحلي) ، كما اعاد (تدبير امور حوران) ثانية الى ايدي الاغوات . ومع ان التقارير القنصلية لم تشر بوضوح الى صراع المصالح بين التجار الاوربيين وبين جباة الضرائب الرسميين

والاعيان ، لان كلا الطرفين اكان يهمه السيطرة على انتاج حوران الفائض ، الا اننا يمكن ان نرى في ملاحظات روجرز دليلا على ذلك .

ومع ان ابن احمد باشا اليوسف وهو محمد آغا لم يعين حاكما لمقاطعة حوران كما كان متوقعا ، الا ان والد زوجته محمد سعيد شمدين وهو آغا آخر من دمشق نال هذا المنصب(٥٨) ، فنهج نهج اليوسف وكان لـه نفوذ سياسي كبيرفي دمشق وخاصة في المجلس الاداري . وبذلك نالت قبيلة (الروله) ثانية مباركة الحكومة ، وطرد (اولادعلي) من مناطق رعيهم(٥٩) . وارسلت قوات الاغوات الى حوران لجمع الضرائب عن الماشية ، وطلب الى زعماء الدروز ان يساعدوا فقط في المحافظة على توطيد الامن حين اجراء هذه العمليات(٦٠) .

وفي هذا الوقت كان الوفاء بالعقود التجارية مع حوران قد حان ، تلك العقود التي ترجع الى الخريف الماضي ، والتي ابرمت ايام رشدي شيرواني . وقد ضمنت القوات الموجودة في حوران مشكلة انتقال التجار الاوربيين واصحاب العقود المرتبطين بهم . وكانت هذه العقود قد ابرمت في وقت كان سكان حوران فيه بحاجة ماسة الى التمويل نظرا لتردي محصولهم الصيفي وانتشار الاوبئة وفقدان الكثير من حيواناتهم ، وجاءت بنودها وفقا لمصلحة الدائنين(٦١) . يضاف الى ذلك ان المحصول لم يكن مهددا بسبب امطار الشتاء أو وجود كوارث طبيعية . وسر مصدرو الحبوب من ارتفاع اسعار القمح في الاسواق العالمية . ففي الوقت الذي كان فيه الطن من القمح يباع في حوران بجنيهين ونصف (استرليني)(٦٢) ارتفع في لندن الى اكثر من عشرة جنيهات للطن (٦٣) .

ولكن ما سبب الذعر للمصدرين ان اسعد باشا اتخذ خطوة مهمة ، فقد اعلن ان الاتفاقات المبرمة سابقا قد الغيت رسميا وان محصول حوران يجب ان يدخل مخازن الحكومة المخصصة لذلك(٦٤) . واخبر القنصل الفرنسي ان نحو الف من الدمشقيين المنشغلين بتجارة الحبوب سيقضى عليهم نتيجة لهذا الاجراء . واجتمع القناصل الاوربيون وقدموا احتجاجا الى الوالي : « لن نسمح بفرض أي امر بصدد تجارة الحبوب يؤثر على البضائع المقررة لبلادنا ، والتي تكون مستحيلة في مثل هذه الشروط »(٦٥) وقد نقل هذا الاعتراض عبر القنوات الدبلوماسية الىاستانبول واتخذ قرار في الحال باستدعاء والي دمشق اسعد مخلص باشا ، وارسل مكانه رشيد باشا(٦٦) . مما يدل على مدى تأثير الاوربيين على الدولة العثمانية في الستينات من القرن الماضي .

كان محمد رشيد باشا أحد أعمدة الاصلاح . وطيلة بقائه في دمشق كانت حوران تحت سيطرة الحكومة المركزية ،وجرى الحج دون حادث يذكر . اعلن رشيد باشا لدى وصوله الى دمشق انه سيعيد السيطرة العثمانية المباشرة ، لذلك لم تكن مفاجأة انه بدأ بالقاء القبض على محمد سعيد آغا شمدين (٦٧) ، وأخذ على عاتقه شخصيا التوسط لتحقيق توازن القوى في حوران فاستدعى عددا من زعماء بدو حوران وزعماء الدروز وتفاوض معهم على تقسيم مقبول للامتيازات والوظائف(٦٨). ومنذ ذلك الحين كان لاولاد علي والروله أراض مناسبة للرعي ، وبالنسبة لآل الاطرش فقد اختارهم لمناصب ادارية في نواح رئيسية في حوران . وارسل رشيد باشا موظفا عثمانيا تركيا يدعى كامل باشا لم يسبق أن كان له روابط في دمشق ليكون حاكما لمنطقة حوران مؤيدا بعدد كبير من القوات النظامية (٦٩) . ولانهاء الحظر الذي كان أهل حوران قد بدأوا بفرضه أيام اسعد باشا مخلص احتجاجا على الاحتكارات الحكومية ، واستمروا به خلال شهر تشرين الثاني ، للاحتجاج على وجود القوات الحكومية ، عرض رشيد باشا تخفيضات ضريبية .ولكن القوات بقيت(٧٠) .

بالنسبة للموضوع الشائك الخاص بالمصالح التجارية الاوروبية في سورية ، فقد كانت الحكومةالمركزية مجبرة علىتجنب مواجهةشاملة مع الاوربيينبسببديونها المالية الثقيلة . لهذا بقي الاوربيون ضالعون في التجارة مع سورية طالما كانت هناك ارباح كبيرة يجنونها . ولم يكن هناك ما تفعله الحكومة المركزية أو الدمشقيون أو أهل حوران في هذا المجال .

الدور الرابع : زرع سياسة وطنية متنورة بين الفئات المحلية .

كان رشيد باشا يدرك ان سيطرة الحكومة المركزية في حوران لن تستمر لحظة انسحابه هو وقواته ، وهو أمر لا يمكن تجنبه وتمليه مشاكل الامبراطورية في أماكن أخرى . كما كان يتوقع ايضا ان الفئات المحلية ستستمر بالاقتتال وتؤخر اندماج هذه المنطقة في الامة المتجددة . لذلك تركزت سياسته على الفوز بدعم الفئات المحلية ، وذلك بطرحه الفكرة التالية : هل من حاجة للتشاحن بشأن المناطق الداخلية في سورية في الوقت الذي تتوفر فيه مصادر كثيرة للاستثمار ؟ لنبدأ بالسيادة على هذه الارض معا ، واذا كنتم مستاءين من تدخل الاوربيين ، فمن المؤكد أنه يمكننا صدهم ونحن مجتمعون خيرا منا منقسمين . وكما عبر عن ذلك السيد ريتشارد وود Richard Wood) القنصل البريطاني ابان ذلك :

« كان رشيد باشا يعلم بأن سكان سورية ينظرون الى حكومته على انها اجنبية وحاول جذبهم الى جانب السلطة بازالة الانطباع بأنهم محكومون بقصد زيادة الدخل الحكومي وتقديم الجنود فقط . ودون ان يتشاور معهم بشأن المكاسب التي يتوقعونها من الحكومة فقد قام سعادته بالكثير لكبح الفساد والظلم ، ولا يزال هناك مجال واسع للتحسين ... واذا ثابرت السلطات المحلية بطاقة متزايدة للتحسين فانها لن تفشل في اقناع الناس بمجتمع له مصالحه المادية والسياسية والاجتماعية - أي روح قومية - وعندها تعبر الدولة أسمى تعبير عن هذه الروح » (٧١) .

افتتح رشيد باشا مجلسا اداريا جديدا وكذلك مجلسا بلديا (٧٢) . ولكن يبرهن عن حسن النية نحو زعماء دمشق ذوي النفوذ عين عددا كبيرا منهم في هذين المجلسين وفي مناصب ادارية هامة اخرى ، (٧٣) كما أحدث منصبا جديدا براتب لامير الحج ، وضمن بقاء هذا المنصب لدمشقي .

وكتعويض للاغوات وفر لهم رشيد باشا مجالا جديدا للعمل ، وذلك باستعمال الاقوياء منهم في مد سلطة الحكومة جنوبا نحو البلقاء ، حيث فرضت الضرائب لاول مرة صيف ١٨٦٧ ، والتي من المحتمل انها لم تجب . وقد أذن رشيد باشا لمحمد سعيد آغا شمدين بالاشراف على هذا العمل (٧٤) ، بينما عين أغوات اخرين مثل محمد آغا اجليقين واحمد آغا بوظو في وظائف اخرى كأمراء للحج (٧٥) . بعد ذلك عهد رشيد باشا الى آغا دمشقي آخر هو هولو آغا العابد (٧٦) بادارة حوران . وعلى الرغم من استعمال رشيد باشا لهؤلاء الاغوات الا أنه بقي يدير الامور باحكام وينفذ معظم العمليات شخصيا ، فيقود رجاله في جولات في حوران والبلقاء ، وفي مناطق حول حمص وحماه . وشجع رشيد باشا رأس المال المحلي على الاستثمار في الاراضي متمشيا مع تنفيذ قانون الاراضي العثماني لعام ١٨٥٨ ، فعرض مساحات شاسعة من أراضي الروله في البقاع وحوران للبيع بالمزاد العلني* واتخذت خطوات متقدمة لتسجيل الملكيات الواسعة وخلق بعض النظام في فوضى ملكية اراضي الريف (٧٧) . وفي حالات كثيرة قدم رشيد باشا مصالح اصحاب رؤوس الاموال في المدن على مصالح الفلاحين ، الى حد الاضرار بهم (٧٨) وهذا الامر يتطلب تقصيا اكثر كي نتمكن من التعميم فيما يتعلق بملكية الاراضي الكبيرة عامة في هذا الوقت .

من الطبيعي انه لم يكن كل دمشقي في وضع يمكنه من الافادة من الفرص التي قدمها رشيد باشا . كان هناك مسألة الاعتمادات المالية المناسبة ، لذلك تسارع هذا

---

* لم يكن للبدو ملكية في حوران ، ولكن هناك مناطق لهم افضلية الرعي فيها (المجلة)

الاتجاه وتحول كثير من المال بعد ركود التجارة في سبعينات القرن الماضي من رأسمال تجاري الى استثمار الاراضي . اذ ان الصعوبات التي عاناها الفلاحون في السبعينات من القرن الماضي بسبب الجفاف والاوبئة والطاعون اضعفت جميعها من قدرتهم على المساومة . وكانت هذه الصعوبات عاملا حاسما في ظهور عدد من اصحاب الملكيات الخاصة (٧٩) . وقامت الحكومة من جانبها بالمحافظة على النظام والقانون في المناطق الداخلية لضمان الاستثمارات هناك .

بدأ المجلس الاداري بدمشق والمعين حديثا نقاشا حول امكانية بناء طرق وجسور جديدة للوصول الى المناطق الريفية وتشجيع توسع الزراعة . وقد تقدم عدد من اعيان المدينة ، ومنهم الامير عبد القادر الجزائري وبعض الشخصيات البارزةمن زعماء المسلمين والمسيحيين (٨٠) من القنصل البريطاني باقتراح ، وكما أفاد القنصل: « طلبوا مني بجد ان الفت انتباه الراي العام البريطاني الى انشاء شركةلبناء سكة حديدية عبر سورية حيث ان هذا هو الوسيلة الوحيدة التي تبني حضارة بلادهم (٨١) » .

يبدو أن الدمشقيين قد ساروا الى آخر المطاف في مشاريع رشيد باشا التوسعية . وفي الحقيقة فان سياسة الحكومة المركزية التي اكان يحددها تقديم فرص للانتعاش الاقتصادي والتقدم والدفاع ضد تدخل اوروبي اكبر في سورية ، هذه السياسة كان لها تأثير على اندماج بعض الفئات السياسية في دمشق في صفوة عثمانية مالكة للارض ، بيروقراطية ، خلال سبعينات القرن الماضي . وكسبت الحكومة العثمانية تأييدا أوسع لاضافتها اصلاحات في التعليم ووضعها المؤسسات الدينية من جديد ضمن برامج الحكومة المركزية .

كان دفاع الحكومة المركزية العثمانية ضد التدخل الاقتصادي الاوربي ضعيفا بشكل واضح . وقد أعلن عن افلاس الامبراطورية أمام دائنيها الاوربيين عام ١٨٧٥ ، ووقعت المقاطعات العثمانية في شمال افريقية في أيدي فرنسة وانكلترة في الثمانينات . وقد بدا من الصعوبة بمكان وقف العملية التي أخذ فيها الاقتصاد السوري يندفع نحو مزيد من الاعتماد على رأس المال الاوربي وعلى أوضاع السوق العالمي . فعندما تدنت الاسعار العالمية للحبوب في الثمانينات والتسعينات وتضاءل الاهتمام بالحبوب في سورية لم يكن المتنفذون والمتسلطون في كل من دمشق وحوران مستعدين لاغاثة مزارعي حوران الذين كانوا يعانون منذ أمد بعيد . وعلى النقيض من ذلك ، ورغم ان المزارعين في حوران قد قاوموا بشجاعة فقدان استقلالهم الريفي ، الا انهم سرعان ما انهاروا حين استغلت الحكومة المركزية الانقسام الذي اوجده التغيير الاقتصادي

بين عامة الشعب وبين بعض زعاماتهم . وقـد قللت الكوارث الطبيعية ومصائب الصحة العامة في حوران في السبعينات ، قللت الى حد بعيد قدرة المزارعين علـى مقاومة الخضوع الاقتصادي والسياسي . انه لمن السذاجة ان نتخيل الامور تحدث عكس ذلك اذا ما تأملنا حجم الضغوط الخارجية وانعدام السيادة أو حتى الاستقلال المحلي . ويجب ان نتذكر احوال المزارعين في مناطق ريفية عديدة من الامبراطورية العثمانية أو حتى في اجزاء من اوربة وامريكة في ذلك الوقت ، والتي لم تكن أحسن مما كانت عليه في حوان .

لا يمكننا ان نصل بكل ما سبق الى تقييم صحيح لتاريخ حوران ، فالتطورات لم تتوقف في السبعينات من القرن الماضي بل بقي أهل حوران خلال اواخر القـرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين يضايقون وحتى يدبرون الهجمات ضد المصالح المشتركة للحكومة المركزيـة ، والمصالح التجارية الاوبية ومصالـح بعض الزعماء في دمشق او في القرى ، أو بين الدروز والبدو وزعماء القرى . فالجمعية الفلاحية التي تشكلت في السويداء عام ١٨٨٩ هي مثال مثير على هذه الاعمال المنظمة (٨٢) . ويمكن أن نفسر معالم الثورة السورية ضد الحكومة الانتدابية الفرنسية في حوران عام ١٩٢٠ ضمن هذا الاطار .

★ ★ ★

الحواشي :

(١) تضم هذه المنطقة ، بالاضافة الى سهل حوران ، المناطق المتاخمة له مثل : جبل العرب (جبل حوران او جبل الدروز كما يدعى أيضا) والصفا ، واللجاه ، وجيدور ، والجولان ، والى حد ما البلقاء في شرقي الاردن . وهذه المناطق جميعها كانت موضع التطورات في القرن التاسع عشر.

(٢) على الرغم من ان حوران لاتزال ((تطعم)) دمشق ، الا ان مناطق اخرى قد فاقتها اهمية في الاقتصاد الوطني . وهي مناطق نمت حديثا ، في حماه وحمص وحلب ، وفي الاراضي الشاسعة في الشمال الشرقي من سورية . ان امكانية حوران في الاسهام في التطور الاقتصادي لسورية محدودة ، لاعتمادها اساسا على الامطار والمياه الجوفية . كما ان حوران قد عانت ، اقتصاديا ، بسبب مرور الحدود الدولية عبر اراضيها ، التي يرتبط بعضها مع البعض الاخر ويعتمد عليه ، كما عانت من خسارة فلسطين كسوق بديل لدمشق ، ومن خسارة حيفا كمنفذ اقتصادي على المتوسط .

(٣) جذبت حوران اهتمام الكثيرين عن الرحالة والمعلقين ، ومؤرخي الفترة العثمانية المتاخرة • الا انهم لم يبحثوا بتعمق احداث الستينات من القرن الماضي ، ولم يعالجوا الدور الذي لعبته المصالح الاقتصادية الاوربية ، ومصالح الدمشقيين في ذلك الوقت . ويمكن ان نشير الى ما يلي :

- شبلي العيسمي ، داود نمر وحمود الشوفي ، محافظة السويداء ، دمشق ١٩٦٢ .
- عبد الله حنا ، القضية الزراعية والحركات الفلاحية في سورية ولبنان بين ١٨٢٠ ، ١٩٢٠ ، بيروت ١٩٦٨ .
- عمر رضا كحالة ، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، بيروت ١٩٦٨ .
- صفوح خير ، اقليم الجولان ، دمشق ١٩٧٦ .
- احسان النمر ، تاريخ جبل نابلس والبلقاء ، نابلس ١٩٦١ .

Gertrude Bell, **Syria : The Desert and the Sown** (London, 1907); Lady Ann Blunt , **the Bedouin Tribes of the Euphrates** (New york , 1879) ; R.E. Brunnow and A. Von Domaszewski, **Die Provincia Arabia, Bd. 3, Der Westliche Hauran,** (Strassburg, 1909); Richrad F. Burton and F. Trywitt Drake, **Unexplored Syria** (London, 1872); E. M. Delbet, « paysans en communauté et en polygamie de Bousrah », in Le play, **Les Ouvriers de L'Orient** (Tours, 1877), pp. 304-397; G.R.Lees «Across Southern Bashan, **Geographical Journal,** 5 (1895) 1-27; David Mc Dowell, The Druze Revolt of 1925 and its Background in the Late Ottoman Period, « unpublished B. Litt. Thesis (Oxford, 1972); Joyce Laverty Miller, «the suyrian Revolt of 1925, « **in International Journal of Middle East Studies,** 8 (1977) 545-563;

Jean-paul pascual,«Environnement et alimentation dans la Hawran au XIX eme siecle », unpublished French version now available in Arabic translation in **al-Mu'tamar ad-Dauli ath-Thani li Tarikh Bilad ash-Sham,** vol. 1 (Damascus, 1980) 415-428; J. L. porter, **The Giant Cities of Bashan** (London, 1867); Max von Oppenheim, **Die beduinnen** (Leipzig, 1943) and his **vom Mittelmeer zumm persischen Golf** (Berlin, 1899); Anon., **rambles in the Deserts of Syria** (London, 1864); Emanuel Guillaume Rey, **voyage dans le Hauran et aux Bords de la Mer Morte,** (paris, 1860); G. Schumacher, **the Joulan** (London, 1888); J.G. Wetzstein, **Reisebericht uber den Hauran und die Trachonen** (Berlin, 1960).

(٤) لمزيد عن السياسة العثمانية وخاصة فيما يتعلق بسورية ، انظر :
ـ عبد العزيز عوض ، الادارة العثمانية في ولا يات سورية ، القاهرة ١٩٦٤ .
ـ بعض ملامح الحكم العثماني في سورية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر : الاصلاح ، الاسلام ، الخلافة ، بطرس ابو منة ، (رسالة دكتوراه غير منشورة ، اوكسفورد ١٩٧١) .
Moshe Ma'oz, **Ottoman reform in Syria and Palestine**, 1840 - 1861. (oxford, 1968).

(٥) انظر : دور التجارة الخارجية في التنمية الاقتصادية في سورية ، محمد سعيد القلا (رسالة دكتوراه غير منشورة ، الجامعة الامريكية ، وا شنطن ١٩٦٩) *
Schatkowski - Schilcher, « Ein Modellfall indirekter wirtschaftlicher Durchdringung: Das Beispiel Syrien, » **Geschichte und Gesellschaft**, 1 (1975) 482 - 505.

(٦) للرجوع الى العديد من تقارير الرحالة انظر رقم ٣ اعلاه .

(٧) رنتش (٢) ١٠ كانون الثاني ١٨٦١ Fo 195/677 ، (٣) ٢٤ كانون الثاني ١٨٦١ Fo 195/677 (٧) ٢٥ شـباط ١٩٦١ Fo 195/677 (ان المواد الواردة هنا من الارشيف الاوروبي ماخوذة من مراسلات القناصل في دمشق والمتوفرة الان في المكتب البريطاني للسجلات العامة سلسلة F. O. 195 « وترد هنا F O 195 » وماخوذة من ارشيفات وزارة الشؤون الخارجية : مراسلات سياسية وتجارية لقنصلية دمشق وترد هنا « AEPol, AECom » وماخوذة ايضا من الارشيف الموحد للقسطنطينية « AEARC » ان الاشارة الى هذه الاراشيف يعطي اسم القنصل المرسل ، رقم وتاريخ رسالته ، والارشيف المرجع فرنسيا أم بريطانيا .

(٨) رنتش (١٠) ٤ نيسان ١٨٦١ FO 195/677

(٩) المرجع نفسه

(١٠) عسكرت القوات العثمانية في : عين الطيبه ، جديدة ، الاشرفية ، هيجانة ، حرجلة ، عرطوز ، دير مبية ، بيت صادر ، الكسوة ، قطنا ، اوتري (٢٩) ٣٠ كانون ثاني عام ١٨٦١ .

(١١) رنتش (٩) ٢٠ اذار ١٨٦١ FO 195/677 يشير القناصل الاوروبيون الى قوات الاغوات باسم « باش بزق » وهم اناس مزدرين اخذهم الاتراك اثناء حرب القرم . كتب روجرز : « ان الضباط قادة هذه القوات هم عادة من اصحاب السمعة السيئة ، مغامرون عسكريون أو زعماء لمقاطعات مولعون بالحرب . وهم اما بالوراثة او عن طريق تهديد واخفافة الناس نالوا سمعة في الشجاعة في منطقتهم . كان لضابط الباش بزق انصاره بين قبائل العرب يعلن الحرب عليهم او يسالمهم حسب مايرى ذلك يخدم مصالحه أو عظمته الشخصية . وهو ظاهريا خاضع للسلطة المحلية » .
(روجرز (٣٧) ٢٠ آب ١٨٦١ FO 195/677

(١٢) رنتش Wrench (٩) ٢٠ آذار ١٨٦١ FO 195 / 677 و (١٢) ٩ نيسان ١٨٦١ FO 195 / 677

(١٣) اوتري Outrey (١٢٩) ٣٠ كانون الثاني ١٨٦١ AEARC / 93 / 4

(١٤) رنتش (١٢) ١٩ نيسان ١٨٦١ FO 195 / 677

(١٥) لانوس (٣) ٢٧ آذار ١٨٦٢ AEARC / 93 / 5 روجرز Rogers (٢٣) ٣١ تموز FO 195 / 677

(١٦) للمزيد عن حياة احمد آغا اليوسف وعائلته انظر : « الكواكب الدرية في تاريخ عبد الرحمن باشا اليوسف » لعبد القادر بدران (دمشق ١٩٢٠) ، « منتخبات تاريخية » قسطنطين الباشا (حريصا بلا تاريخ) ص ١٧٧ و ٢٣٥ - ٢٣٦ و ٢٤٠ ، « كتاب منتخبات التواريخ لدمشق » محمد تقي الدين (دمشق ١٩٢٧) ص ٨٥١ - ٨٥٣ وكتاب محمد جميل الشطي « تراجم اعيان دمشق في نصف القرن الرابع عشر الهجري ١٣٠١ - ١٣٥٠ » (دمشق ١٩٤٨) ص ٥٩ - ٦١ .
R. Tresse, Le Pèlerinage Syrian, Paris 1937, PP. 85 - 86

(١٧) هيكارد Hecquard (١) ٤ كانون الثاني ١٨٦٣ AEPol / 7

(١٨) انظر السابق ص ١٤٤ ، ١٤٧

(١٩) هيكارد (١) ١٠ نيسان ١٨٦٢ AEARC / 93 / 5 و (٣) ١٧ نيسان ١٨٦٢ AEARC / 93 / 5 و (٢) ٢١ نيسان ١٨٦٢ AEPol / 6

(٢٠) هيكارد (٧) ١٥ حزيران ١٨٦٢ AEPol / 7 اذا عنى المقياس هنا « كيلة القسطنطينية » وهو المقياس المعتاد في ذلك الوقت فهذا يساوي عشرة الاف طن متري وهي كمية كبيرة اذا تأملنا معدل التصدير لكل الساحل السوري في الستينات من القرن الماضي والذي كان عشرة الاف طن .

(٢٠) مكرر راجع (٨) ٣٠ حزيران ١٨٦٢ AEPol / 7 (٩) ١٠ تموز ١٨٦٢ AEPol / 7
(١١) ١١ حزيران ١٨٦٢ AEARC / 93 / 5 (١) ٤ كانون ثاني ١٨٦٣ AEPol / 7

(٢١) راجع (٧) ١٩ آذار ١٨٦٣ AEPol / 7

(٢٢) راجع (٧) ١٥ حزيران ١٨٦٢ AEPol / 7 (٤) ٦ يـار ١٨٦٢ AEPol / 7

(٢٣) راجع نفس المصدر

(٢٤) راجع (٢) ٢١ نيسان ١٨٦٢ AEPol / 7

(٢٥) راجع (٢) ٢١ نيسان ١٨٦٢ AEPol / 7 (٦) ٣١ أيـار ١٨٦٢ AEPol / 7

(٢٦) راجع نفس المصدر.

(٢٧) راجع (٦) ٣١ أيار ١٨٦٢ AEPol / 7

(٢٨) المرجع نفســه

(٢٩) المرجع نفسه

(٣٠) راجع (٧) ١٥ حزيران ١٨٦٢ AEPol / 7

(٣١) راجع (١٤) ٣ تموز ١٨٦٢ AEARC / 93 / 5

(٣٢) راجع (٧) ١٠ تموز ١٨٦٢ F O 195/727 هيكارد (٩) ١٠ تموز ١٨٦٢ AEPol / 7
(١٠) ٢٤ تموز ١٨٦٢ AEPol / 7 (١١) ٢٧ تموز ١٨٦٢ AEPol / 7

(٣٣) هيكارد (١٠) ٢٤ تموز ١٨٦٢ AEPol / 7

(٣٤) المرجع نفسه (٧) ١٥ حزيران ١٨٦٢ (١١) ٢٧ تموز ١٨٦٢ AEPol / 7

(٣٥) ساندوز Sandwith (١٣) ١٢ حزيران ١٨٦٢ F O 195/727 روجرز (١٩) ٢٨ تموز ١٨٦٢
F O 195/727

(٣٦) ساندوز (١٢) ٢٩ ايار ١٨٦٢،(١٣) ١٢حزيران١٨٦٢ F O 195/727 هيكارد (١٦) ٢٥ آب١٨٦٢
AEPol / 7

(٣٧) هيكارد (١٦) ٢٥ آب ١٨٦٢ AEPol/7

(٣٨) روجرز (٢٦) ٦ تشرين أول ١٨٦٢ F O 195/727 هيكارد (٢١) ٢٠ تشرين أول ١٨٦٢ AEPol/7
روجرز (٢٢) ٤ تشرين ثاني ١٨٦٢ Fo 195/727

(٣٩) هيكارد (٢١) ٢٠ تشرين أول ١٨٦٢ (٢٤) ٢٤ تشرين ثاني ١٨٦٢ AEPol/7

(٤٠) المرجع نفسه (٢٣) ١٠ تشرين ثاني ١٨٦٢ AEPol/7

(٤١) المرجع نفسه (٢٤) ٢٤ تشرين ثاني ١٨٦٢ AEPol/7

(٤٢) المرجع نفسه .

(٤٣) المرجع نفسه (٢٣) ٢٦ تشرين أول ١٨٦٣ AECom / 4 وفيما يخص جباية الاطرش للضرائب نظر روجرز (٢٦) ٦ تشرين أول ١٨٦٢ F O 195/727 هيكارد (٢١) ٢٠ تشرين اول ١٨٦٢ AEPol/7

(٤٤) هيكارد (١) ٤ كانون ثاني ١٨٦٣ AEPol/7

(٤٥) روجرز ١٥ كانون ثاني ١٨٦٣ Fo 195/760 هيكارد (١) ٤ كانون ثاني ١٨٦٢ AEPol / 4

(٤٦) هيكارد (١) ٤ كانون ثاني ١٨٦٢ AEPol/4

(٤٧) المرجع نفسه (٦) ١٦ تشرين ثاني ١٨٦٣ AEPol/7

(٤٨) المرجع نفسه

(٤٩) المرجع نفسه

(٥٠) المرجع نفسه (٩) ٢٧ نيسان ١٩٦٣ AEPol/7

(٥١) المرجع نفسه (١٧) ٥ آب ١٨٦٣ AEPol / 8 (٢١) ٢١ آب ١٨٦٣ AECom/4

(٥٢) روجـرز ١٥ كانون ثانـي ١٨٦٣ ، (٣٤) ٢٤ حزيران ١٨٦٣ Fo 195/760

(٥٣) هيكارد (١٢) ٢٥ ايار ١٨٦٣ AEPol/7

(٥٤) المرجع نفسه (٢٠) ٤ ايلول ١٨٦٣ AEPol / 8

(٥٥) بالنسبة لدسائس مصطفى فضيل باشا والتي تورط فيها – اوريلي – باعترافه . انظر اقوال اوريللي في F O 195/806 وفي Gay de Tunis ١٢ ايلول ١٨٦٨ AEpol/10

(٥٦) هيكارد (١٤) ٢٤ حزيران ١٨٦٤ AEPol / 8

(٥٧) روجرز (١١) ٢١ آذار ١٨٦٦ F O 195/806

(٥٨) هيكارد ٢٠ تموز ١٨٦٦ AEPol/9

(٥٩) روجرز (٣٣) ٢٢ حزيران ١٨٦٣ Fo 195/760

(٦٠) هيكارد (١٥) ١١ حزيران ١٨٦٦ AEPol/9

(٦١) المرجع نفسه (٢٢) ٥ تشرين اول ١٨٦٣ AEPol/8 ايلدردج (٥٢) ٢٨ ايلول ١٨٦٤ FO 195/787

(٦٢) روسو Rousseau (٣٤) ٢٧ شباط ١٨٦٠ AECom/4

(٦٣) كانت التقارير القنصلية تفيد بانتظام عـن اسعار الحبوب السورية ، وبالنسبة للاسعار الاوروبية انظر :
Die Getreidepreise in Deuschland seit dem ausgang des 18, Jahrunderts (Berlin 1935)

(٦٤) هيكارد ١١ حزيران ١٨٦٦ AECom/4 و (١٩) ١١ حزيران ١٨٦٦ AEPol/9

(٦٥) المرجع نفسه .

(٦٦) المرجع نفسه (١٧) ١١ تشرين اول ١٨٦٦ AECom/4

(٦٧) المرجع نفســه (١٧) ٢٠ تمـوز ١٨٦٦ و (١٩) ١ ايلول ١٨٦٦ AEPol/9

(٦٨) المرجع نفسه (٢٠) ١ ايلول ١٨٦٦ AEPol/9

(٦٩) برتراند (١) ٢١ تشرين ثاني ١٨٦٦ AEPol/9

(٧٠) المرجع نفسه (٢) ١ كانون اول ١٨٦٦ AEPol/9

(٧١) وود Wood ٢٦ تشرين اول ١٨٦٩ FO 195/927

(٧٢) هيكارد (١٩) ١ ايلول ١٨٦٦ AEPol/9

(٧٣) رنتش كانون ثاني ١٨٦٤ FO 195/806

(٧٤) روستان Roustan (٧) آذار ١٨٦٩ AEPol/ 10

(٧٥) روسو (١٥) ٢٨ ايلول ١٨٦٧ AEPol/9 وود (١٥) ٢٨ ايلول ١٨٦٩ FO 195/927

(٧٦) برتراند (٥) ٢١ كانون ثاني ١٨٦٧ AEPol/9 روستان (٨) ٢٠ آذار ١٨٦٩ FO 195/927

(٧٧) هيكارد (١٧) ٢٠ تموز ١٨٦٦ AEPol/9 روجرز (٢٧) ٧ ايار ١٨٦٧ FO 195/806
ايلدردج (٦٤) (من بيروت) ٣٠ ايلول ١٨٦٨ FO 195/903

(٧٨) ايلدردج (٦٤) ٣٠ ايلول ١٨٦٨ FO 195/903 (وتقاريره من بيروت) (٢٩) ٢ آب ١٨٦٩ (٣٠) ٢ آب ١٨٦٩ FO 195 / 927 وود (٥) ١٠ نيسان ١٨٦٩ FO 195/927
وتقارير ايلدردج (٧) (من بيروت) ٥ نيسان ١٨٧٠ (١٧) ٢١ ايار ١٨٧٠ ، (٢٧) ١١ آب ١٨٧٠ (٣٠) ٢٧ آب ١٨٧٠ ، (٤١) ٥ تشرين ثاني ١٨٧٠ ، (٤٩) ١٦ كانون اول ١٨٧٠ FO 195/965 « جرين »
(٥٩) ١٢ كانون اول ١٨٧٣ FO 195/1027 ايلدردج (١٨) ٤ أيار ١٨٦٤ FO 195/1047 و (٣١) ٢٠ حزيران ١٨٧٤ FO 195/1047 و «روبن» (١) ١٨ نيسان ١٨٧٢ AECom/5

(٧٩) انظر المصادر الواردة في : ٧٣ ، ٧٤ .

(٨٠) وود (٢٠) ٢٦ تشرين اول ١٨٦٩ F O 195/927 وقد ذكر القنصل بين هؤ لاء الزائرين مفتي دمشق وبعض الاعيان الذين كانوا قد نفوا نتيجةلاحداث ١٨٦٠ ولكنهم عادوا الىدمشقمرة ثانية .

(٨١) المرجع نفسه .

(٨٢) انظر شبلي العيسمي واخريـن « محافظـــة السويداء » ص ٦٥-٧٤ عبد الله حنا « القضيـــة الزراعية » ص١٧٥-١٨٣ ، دافيد ماكدويل « ثورة الدروز » ص ٦١-٦٩.

المستشرقون

وبعض قضايا التاريخ العربي الإسلامي

د. نبيه عاقل

وكيل جامعة دمشق للشؤون العلميــة

المستشرقون ، كما هو معروف ، هم الفئة من الباحثين والمؤلفين الاوربيين الذين تناولوا بعض قضايا التاريخ واللغة والادب العربي والدين الاسلامي بالدراسة والبحث وابداء الرأي ، كما أن بعضهم ساهم مساهمة طيبة في نشر كتب التراث وطباعتها بعد تحقيقها ، تحقيقا كان بعضه أمينا ودقيقا ، وبعضه الاخر جانبته الدقة والامانة . وطبيعي أنا نعتبر المستشرقين فئة واحدة من فئات أخرى غير مسلمة بحثت في التاريخ العربي الاسلامي وطرقت العديد من أبوابه منذ قرون طويلة ،ولكن هذه الفئات الاخرى لم تشكل تيارا متصلا وحركة لها سماتها المميزة ، كما هــو الحال مع حركة الاستشراق التي ستكون موضع اهتمامنا في هذه الدراسة .

وقبل الدخول في هذا الحديث الذي أردناه عن المستشرقين وبعض قضايــا التاريخ العربي الاسلامي ، وحتى نضع حركة الاستشراق في موضعها الصحيح من حركة الكتابة التاريخية عموما ، وضمن المسار العام لهذه الحركة ، لابد لنا مــن التذكير بأن موضوع نظرة المؤرخين غير المسلمين الى الاسلام والحضارة الاسلامية يشمل كتابات هؤلاء المؤرخين في القديم والحديث عن الاسلام وحضارته . وضمن فئة المؤرخين غير المسلمين الذين كتبوا في القديم عن الاسلام يمكننا ان نميز نوعين من المؤرخين : مؤرخون غير مسلمين عاشوا وكتبوا على أرض الاسلام وفي ظل دولته ، ومؤرخون أجانب لم يعيشوا على أرض الاسلام ولكنهم كتبوا عنه ، اما لاهتمامهم بالتاريخ العام أو لبحث العلاقات التي قامت بين دولهم والدولة العربية الاسلامية المعاصــرة لهــم .

وللتعريف بما قصدنا بأفراد الفئة الاولى يمكننا أن نذكر اسما واحدا من بين كثرة لا يتسع المجال لتعدادها ، هو اسم أبي الفرج غريغوريوس بن أهرون الملطي ، الذي ينسب الى (ملاطية) في الاناضول ، وهو من رجال الكنيســة اليعقوبيــة

المشهورين . كان أبوه طبيبا يهوديا ، أما هو فقد تنصر ولقب بابن العبري Ban Hebraeus وعرف بهذا اللقب بين العرب . وقد عاش ابن العبري في القرن السابع الهجري (٦٢٤ – ٦٨٥ هـ) ، وبدأ حياته بدراسة الطب كأبيه ، ولكنه ما لبث أن انصرف لدراسة العلوم العقلية في الكتب العربية . واستقر مع أبيه في مدينة انطاكية ، حيث تنصر واعتنق الرهبنة وتقلب في مناصب اكنسية عديدة حتى وافته المنية في مدينة مراغة في اقليم اذربيجان . وقد ألف ابن العبري كتبا كثيرة في علوم شتى كاللاهوت والفلسفة وقواعد اللغة السريانية . كما ألف كتابا في التاريخ هو « مختصر تاريخ الدول » ، الذي كتبه باللغة السريانية ، وبحث في جزئه الاول التاريخ العام السياسي للعالم منذ الخليقة حتى أيامه . وقد استقى ابن العبري معلوماته عن تاريخ العرب والاسلام من مصادر عربية وفارسية ، أما معلوماته عن فترة حكم التتر للبلاد الاسلامية فقد أخذها عن مؤلف فارسي . وأعد ابن العبري ترجمة عربية لذلك الجزء من تاريخه العام ، مضيفا الى الترجمة العربية زيادات اقتبسها من الكتاب المقدس لم يذكرها في النسخة السريانية لافتراضه أنها معروفة في التاريخ السرياني . ومعلوم أن ابن العبري عاش في عهد الغارات الصليبية والمغولية واتصل بزعيم المغول (هولاكو) الذي عينه رئيسا لاساقفة السريان اليعاقبة في الولايات الشرقية . فعمل على نشر المذهب اليعقوبي ، وساهم في تأسيس العديد من الكنائس ، كما يذكر في كتاب له عنوانه « تاريخ الكنائس السريانية » . ويعتمد ابن العبري في كتابه « مختصر تاريخ الدول » على النقل والتلخيص المشوه عمن سبقه من مؤرخين عرب وغير عرب . وليس لكتابه قيمة تاريخية حقيقية ، وفيه دس متعمد من بينه فريته المشهورة بأن عمر بن الخطاب أمر بحرق مكتبة الاسكندرية . وسنعود للحديث عن ابن العبري هذا في فقرة لاحقة . وليس ابن العبري مثالا فريدا على هذه الفئة من المؤرخين ، فهناك العديد من أضرابه الذين كتبوا عن الاسلام في ظل دولته وكرعايا له وهم من غير المؤمنين به .

أما الفئة الثانية ، فئة المؤرخين الاجانب الذين كتبوا عن الاسلام من على أرض غير اسلامية ، فهي أيضا تضم اسماء اكثيرة ، ولعل هيرودوت الذي لقب بأبي التاريخ كان أول من كتب عن امم ودول غير أمته ودولته ، وكان للعرب من كتاباته نصيب ، كما هو معلوم . ومن أشهر المؤلفين البيزنطيين الذين تناولوا العرب في تواريخهم هو المؤرخ ثيوفانس الذي عاش بين سنتي ٧٥٨ – ٨١٨ م ، وعمل في السلك الكهنوتي واهتم بالاخبار منذ شبابه . وتعتبر حوليته التي دونها بين سنتي ٨١٠ – ٨١٨ م من أشهر حوليات المؤرخين البيزنطيين وتغطي الفترة الواقعة بين ٢٨٤ – ٨١٣ م . ورغم ما يأخذه البعض على حولية ثيوفانس هذه من افتقار

الى الدقة العلمية وبعد النظر وحياد المؤرخ النزيه ، فانها ذات قيمة كبيرة ولا سيما بالنسبة لاخبار القرنين السابع والثامن الميلاديين لان مؤلفها اعتمد على مصادر قديمة ، فقدت ولم يصلنا منها الا ما نقله عنها هو . وأهم ما يميز حولية ثيوفانس النظام الزمني الدقيق ، فالاخبار عنده مرتبة حسب السنين ، وحين يتحدث عن امبراطور من أباطرة بيزنطة يتناول بالبحث من كان يعاصره من حكام دولة الاسلام وفارس من قبلها . وعنه نستطيع استقاء اخبار مهمة تتعلق بالعصر الاموي خاصة، لما كان بين بلاد الشام وبيزنطة من صلات(١) . وهذه الاخبار يعتبرها بعض المؤرخين المحدثين أقرب الى وجهة نظر أهل الشام من أحداث هذه الفترة ، لان ما جاء في المصادر العربية عن خلافة بني امية كتب زمن العباسيين الذين كانوا لا يكنون ودا كبيرا للبيت الاموي . في حين أن ثيوفانس استقى معلوماته ، على أغلب الظن ، من مصادر أو روايات شامية باعتبار أنه كان يعيش على أرض بيزنطة التي لا تبعد عن بلاد الشام كثيرا ، وليس غريبا أن يكون تأثره بهم أكبر من تأثره بأهل العراق والخلافة العباسية . واذا اضفنا الى ذلك الفترة الزمنية التي عاش خلالها هذا المؤرخ وألف منها حوليته لوجدنا ما يبرر اعتقادنا هذا . وكما كان ابن العبري مثلا واحدا على أفراد الفئة الاولى من المؤرخين غير المسلمين الذين كتبوا عن تاريخ العرب والاسلام ، كذلك ثيوفانس ، ليس الا مثلا واحدا على أفراد الفئة الثانية . وذكرنا لاسمه وحده لا يعني انه الوحيد بين المؤرخين الاجانب الذين كتبوا عن دولة الاسلام فهناك العديد من أضرابه ممن سبقوه أو جاؤوا بعده ، بيزنطيين وغير بيزنطيين . فهل يعقل مثلا أن تمر العلاقات البيزنطية الفارسية غير ملحوظة في كتابات من كتبوا قبل ثيوفانس ، كما أنه هل يمكن أن يمر موضوع العلاقات العربية البيزنطية دون أن يحظى باهتمام من تلوا ثيوفانس من مؤرخين بيزنطيين . واذا صح هذا على المؤرخين البيزنطيين فانه يصح بنفس القدر على المؤرخين الفرنجة الذين كانت تربط دولتهم روابط من حرب وسلم وسفارات لا تكاد تنقطع يوما مع دولة الاسلام في المشرق والمغرب ، في دمشق وبغداد والاندلس على حد سواء . وحين نصل الى الحروب الصليبية ، هذا الحادث الذي كان بالغ الاهمية في حياة الغرب المسيحي ، والذي فتح أمام الجماهير الاوربية عوالم جديدة تختلف عن عالمهم اختلافا جذريا في أكثر مناحي الحياة ، فانا نقف أمام أكداس من الكتابات التاريخية لمؤرخين غير مسلمين كتبوا عن أحداث وثيقة الصلة بالتاريخ العربي الاسلامي . وذلك لان الحملات الصليبية لم تكن صداما عسكريا بين الغرب والشرق لتحقيق اهداف دينية وسياسية واقتصادية لصالح الغرب فحسب ، بل كانت مخاضا حضاريا وثقافيا أخذت بعده اوربة سمتا جديدا في مسيرتها التاريخية وانطلقت لتخط الصفحة الهامة في سفر حضارتها الحديثة التي تدين بالشيء

الكثير لما نقلته عن الشرق العربي المسلم حين احتكت به ابان الحروب الصليبية وبعدها . وقد ظهرت آثار دهشة اوربة من الرقي والتقدم الذي اكان يحياه مشرقنا العربي المسلم في تلك الفترة ، في العدد الضخم من الرسائل والتقارير التي أرسلها الصليبيون الاول الى أهلهم وذويهم وحكوماتهم في الغرب . ويبدو أن الرسائل والتقارير لم تشبع نهم الغرب الى معرفة المزيد عن حضارة الشرق وتاريخه ، فأخذ الكثيرون منذ الايام الاولى للحملات الصليبية ، بتدوين الكتب التي تبحث في تاريخ وجغرافية وحضارة المشرق آنذاك . ولعل كتابات ريمون ايفيل Raymond d'Aiguilhe وفوشيه شارتر Foucher de Chartres أو فولبر Fulbert وايكهارد اورا Ekkehard of Aura وغيرهم من مؤرخي الحروب الصليبية خير شاهد على اهتمام مؤرخين غربيين بتاريخ العرب والاسلام في هذه الفترة وعلى الاسلوب والمنهج الذي اتبعوه في معالجة أحداث هذا التاريخ ونظرتهم الى معطيات الحضارة العربية الاسلامية . وأود في هذه العجالة أن أقف وقفة قصيرة عندكتابات واحد من مشاهير مؤرخي الحروب الصليبية ، ألا وهو وليام الصوري William of Tyre الذي يحتل مكانة فريدة بين مؤرخي هذه الحروب ، لان كتاباته تعتبر أول تاريخ شامل لها . ولد وليام هذا حوالي سنة ١١٣٠ م في بيت المقدس ، طهر الله ثراها من رجس الصهاينة الطغاة ، من أبوين نزحا من الغرب الى القدس حيث استقرا وولد لهما أولاد من بينهم وليام . ورغم صعوبة امكان الادلاء برأي قاطع حوله أصله ، فقد يكون من أصل ايطالي . وكان يعرف الى جانب اللاتينية الفرنسية واليونانية والعربية والعبرية والفارسية . وليس يهمنا أن ندخل في تفاصيل حياة هذا المؤرخ ، ويكفي أن نذكر انه في حوالي العام ١١٦٣ م أضحى قساً ومن أعضاء الكاتدرائية المسؤولين في مدينة صور . وقد عينه أموري الاول ملك القدس (حكم بين سنتي ١١٦٣ — ١١٧٤ م) رئيسا للشمامسة ومؤرخا خاصا له . ويجمع المؤرخون على أن أموري هو الذي اقترح على وليام الصوري كتابة تاريخ شامل لمملكة بيت المقدس منذ قيامها . وقرر وليام أن تكون نقطة البداية في تاريخه مجمع كليرمون الذي عقد سنة ١٠٩٥ م ، أو سنة ١٠٩٤ ، وهي السنة التي يقال ان بطرس الناسك حج فيها الى بيت المقدس . وسار وليام قدما في تحقيق مشروعه وأخذ يجمع كل ما وقع اليه من مصادر مكتوبة أو روايات شفهية وأخذت فصول كتابه تظهر تباعا . وزار أموري في هذه الاثناء مصر وشاهد مظاهر الحضارة الاسلامية الرائعة فيها ، فشعر أنه بحاجة الى اكتاب في التاريخ يشرح له ماضي العالم العربي الاسلامي . لذا زود وليام الصوري بالمصادر العربية التي كان قد استلبها من مكتبة أسامة بن منقذ ، وطلب اليه ان يكتب له تاريخا عن أمراء الشرق . وهكذا غدت مهمة وليام مزدوجة وأوكل اليه أموري اكتابة تاريخين

احدهما : « تاريخ مملكة بيت المقدس » Gesta Regnum ، وثانيهما : « تاريخ أمراء المشرق » Gesta orientalium principum . وتشاء الاقدار ان يتوفى آموري في هذه الفترة وأن يقع الاختيار على ريمون الثالث أميرطرابلس ليغدو وصيا على العرش وذلك سنة ١١٧٤ م . وفي سنة ١١٧٥ عين ريمون الثالث وليام الصوري رئيسا لاساقفة صور وسلمه منصب مستشار المملكة ، ففدا يجمع في شخصه منصبين رفيعين احدهما سياسي والاخر ديني . رقد شغلته السياسة والمناصب الكنسية الرفيعة ردحا من الزمن ، عاد بعده لانجاز كتابيه في التاريخ . واستطاع وليام أن ينجز كتابه « تاريخ امراء المشرق » Gesta orientalium principum الذي كتبه بناء على طلب أموري ، كما ذكرنا آنفا ، ولكن ، وللاسف الشديد ، ضاع هذا الكتاب ولم يصلنا منه الا نتف واشارات نقلها عنه مؤرخون اخرون : على أننا نستطيع القول من خلال معرفتنا بكتابه Historia rerumin Partibus Transmarinis Gestarum وهو الذي ترجمه بابكوك Babcock الى الانكليزية بعنوان A History of Deeds Done byond the Sea « تاريخ الاعمال التي انجزت وراء البحر » (طبع جامعة كولومبيا سنة ١٩٤٣ في جزئين) ، أنه أفاد من المصادر العربية التي قدمها له اموري . ويقول الدكتور السيد الباز العريني عن وليام هذا ما يلي : « ويبدو من الفقرات التي أوردها وليام عن التاريخ الاسلامي أنه لابد انه استمد معلوماته في هذه الناحية من روايات شفوية ، ومن نقوش مدونة على العمائر . على أن ما أورده عن بعض الامور في التاريخ الاسلامي ، تختلف في صورتها عما ورد في المصادر التي اعتمد عليها ، أو انها تتطلب مزيدا من البحث ... والراجح أن وليام لم يجد عناء في أن يلتمس من علماء العرب أو المصادر العربية ما يحل مشاكله »(٢) . ولكن الواقع أنه لم يفد افادة كاملة من كل المصادر العربية التي وقعت له أو انه اكتفى في أغلب ما كتب بالنقل عن سعيد بن البطريق فقط . وهناك فارق كبير بين المعلومات التي يوردها في تاريخه عن الفترات التي سبقت عصره والمعلومات المتعلقة بعصره . فهو حين يكتب عن عصره يتناول الاحداث باسهاب وتفصيل ، ولاسيما حين يتحدث عن فترة حكم اموري نراه يسهب في وصف أحوال مصر والخلفاء الفاطميين وأصلهم وأخبارهم ، كما يولي أمر جغرافية مصر والنيل وبرزخ السويس عناية خاصة ، ويرجع بأبحاثه الى العصور القديمة .

★ ★ ★

بعد هذه الامثلة التي لا أدعي لها الكمال والتي قصدت منها فقط أن اقدم شواهد على بعض مما كتبه مؤرخون غير مسلمين عاشوا في القديم عن الاسلام وحضارته ، أود أن أقول ان هذا الشق من الكتابة التاريخية التي خطتها أيد غير

عربية أو مسلمة عن العروبة والاسلام والحضارة العربية الاسلامية ليس ما أنوي عرضه في بحثي هذا . واني انما اريد أن أسلط بعضا من ضوء على الاستشراق كحركة في التأليف التاريخي وجهت عنايتها الى تاريخنا وتناولت احداثه بالدراسة والبحث وكان لها أهدافها وغاياتها وأساليبها في عرض هذه الاحداث ، كما كان لها مواقف لا تخلو من شبهات من رجالات هذا التاريخ ومنجزاتنا الحضارية . فالمستشرقون مؤرخون أوربيون خصوا العرب والاسلام وسواهما من شعوب الشرق وحضاراتها بكل جهدهم ، وكانت لهم أدوار لها سلبياتها وايجابياتها ، تستحق وقفة نحاول من خلالها أن نستذكر معا تاريخ هذه الحركة وتطورهاوأهدافها ونضرب بعض الامثلة على مواقف رجالاتها . واني أقر سلفا بأن هذه الدراسة بعيدة كل البعد عن الاحاطة والشمول ، وانها ليست الا محاولة للتذكير باليسير مما هو معروف عن هذا الموضوع .

واذا أردنا لقصة الاستشراق من بداية فلابد من أن نذكر أن رسالة محمد بن عبد الله (صلعم) لم تقف عند حدود تبليغ الوحي والتبشير بدين الله ، بل اكانت نقطة الانطلاق لامة العرب في مسيرتها الرائعة لبناء دولة وحضارة خلدت خلود الابد وأينعت ثمارا أمدت الانسانية بما لا يفيه وصف أو تقدير . وطبيعي أن يقلب هذا الدين وما تبعه من انطلاقة العرب الفاتحين في ارجاء المعمورة موازين القوى في عالم القرون الوسطى وأن يغدو التحدي الرهيب للوجود السياسي والعقائدي لدول ذلك العالم من غير العرب . وقف عالم الفرس والروم ومن جاء بعدهم من دول وامبراطوريات وقفة المدهوش الذي أذهله تهاوي عروش وتيجان ، وزحف أمم وشعوب للانضواء تحت لواء دين بشر به رجل لفحته شمس الحجاز بهجيرها ، وبات على الطوى أياما وليالي ، وقيل عنه انه أمي لم يمسك بقلم أو قرطاس وانه ملاذ المستضعفين وموئل الذين لذعت ظهورهم سياط الظلم والعبودية . وكانت خلافة الراشدين من بعده فانساح العرب في الارض فاتحين ، وقامت دولة بني أمية بعدهم لتحمل الرسالة عربية صافية الى الهند والصين والى افريقية واوربة ، وبكلمات قليلة استيقظ المارد العربي ، ليحتوي بيديه القويتين عالم القرون الوسطى وليوحده في دولة كبرى تمازجت بها العروبة بالاسلام وتحققت على يديها حضارة ماتزال مبعث فخارنا نحن عرب اليوم وموضع اعجاب العالم . ولم تكن دولة بني العباس في المشرق ، أو خلافة بني امية في الاندلس لترضيا بدور أقل من دور سالفتيهما ، فحملتاالامانة وأديتا الرسالة خير ما يكون الاداء . وكانت ردة فعل القوى المضادة عنيفة بقدر ما كان التحدي العربي الاسلامي عنيفا وجبارا ، واذا كان الاسلام هو الحافز والمحرك لنهضة العرب وانطلاقتهم ، واذا كان محمد بن عبد الله هو صاحب الرسالة التي أقامت للعرب امبراطوريتهم وحضارتهم ، فقد كان من

الطبيعي أن يكون محمد والاسلام محور الهجوم المضاد وموضع نقمة الذين أرهبهم التحدي وأخذ بمقاتلهم . ان التحدي العربي القادم من صحراء الجزيرة العربية والذي انتقل ليستقر في قلب أوربة ، والذي أخضع شبه الجزيرة الايبرية لسلطانه وسيادته ، ودق بيديه القويتين أبواب فرانسا والمملكة الفرنجية أكثر من مرة ، كان لابد وأن يقرع نواقيس الخطر في أوربة والعالم الغربي جميعا . وان كان لي أن أذكر بشيء ، فليس أجدى من أن نستذكر الحركة المعادية للايقونات Iconoclasm التي قامت في الامبراطورية البيزنطية زمن الامبراطور ليون الثالث (٧١٧ — ٧٤١ م) والتي دامت ما يزيد على القرن من الزمن والتي يعتبرها الكثيرون أهم حصيلة للتحدي الفكري العربي الاسلامي الذي انسرب الى داخل العقيدة المسيحية(٣) .

ان معارضة تقديس الايقونات مرتبطة الى حد بعيد بالاتصال الذي تم بين العالم العربي الاسلامي وبيزنطة ، والاثر الذي تركه هذا الاتصال في تغيير نظرة مسيحيي بيزنطة نحو هذه الايقونات . وقد نسب اكثر من مؤرخ موقف الامبراطور ليون الثالث الذي كان أول امبراطور بيزنطي يقود حركة المعارضة لعبادة الايقونات الى تأثره بالافكار الاسلامية . فقد جعلته صلاته بالعالم العربي الاسلامي واحتكاكه الفكري بمن اعتنقوا الاسلام يتأثر بالثقافة والفكر الجديدين وبالتالي ساعدت على وقوفه موقفا عدائيا من قضية تقديس الايقونات والصور . ومن الطريف أن نذكر أن معاصري ليون الثالث كانوا يلقبونه بالامبراطور « ذي العقل العربي » . وطبيعي أن العرب الذين هاجموا آسية الصغرى خلال سنوات طويلة واحتلوا اجزاء منها لم يحملوا معهم الى هذه البلاد السيف فحسب ، بل حملوا معهم أفكارهم وحضارتهم وكرههم لتمثيل الجسد البشري بصور وتماثيل وما شابه . وهكذا قامت أزمة الايقونات التي كانت من أهم الامثلة على الحقيقة القائلة بأن التحدي العربي لبيزنطة لم يكن تحديا عسكريا فحسب ، بل كان تحديا فكريا برزت آثاره واضحة في العقيدة المسيحية نفسها حين ثارت الازمة العاصفة حول استعمال الايقونات في الكنيسة ، وقدسية هذه الايقونات . ويؤكد المؤرخ البيزنطي ثيوفانس Theophanes هذه الحقيقة ويذكر أن اول قرار حفظه لنا التاريخ ضد عبادة الايقونات لم يصدر في القسطنطينية ، بل في دمشق حاضرة الخلافة الاسلامية . ففي سنة ٧٢٣ م ، على حد زعم هذا المؤرخ ، أصدر الخليفة الاموي يزيد بن عبد الملك أمرا يقضي برفع الايقونات من جميع الكنائس الموجودة في أراضي امبراطوريته . وفي نفس الوقت كان في بيزنطة حزب قوي يعادي الايقونات مركزه الرئيس في آسية الصغرى ، كانت فريجيا Phrygia من مدن آسية الصغرى أقوى مراكز معاداة الايقونات . وكان على رأس الحزب المعادي للايقونات أشخاص كنسيون من ذوي المراكز العالية من أمثال توماس رئيس أساقفة كلوديوبوليس Claudiopolis ، وقسطنطين اسقف ناكوليا Nacolea وغيرهما من الاباء الكنسيين .

واذا تركنا قضية عبادة الايقونات والحركة المعارضة لها كمظهر من مظاهر التحدي العربي الاسلامي للغرب آنذاك ، وانتقلنا الى حركة الاستخفاف التي قامت في الاندلس لوجدنا في هذه الحركة مظهرا اخر من مظاهر الخطر الذي كان يمثله العرب المسلمون في مجالات العقيدة والفكر والحضارة بالنسبة للغرب في القرون الوسطى . فقد حاول بعض دارسي هذه الحركة أن يظهروها بمظهر رد الفعل الذي كان لابد منه ازاء الاضطهاد الديني الذي لاقاه المستعربون (سكان الاندلس المحليين الذين لم يعتنقوا الاسلام) من العرب المسلمين . كما حاول آخرون أن يجدوا في النظام الضريبي الذي كان يخضع له المستعربون سببا لهذه الحركة . ولعل أبسط ما يرد به على الادعاء الاول القائل بأن سبب حركة الاستخفاف هو الاضطهاد الديني ، هو أن ما لدينا من وثائق ومعلومات لا يرقى اليها شك تثبت أن المستعربين كانوا يتمتعون في ظل الدولة العربية في الاندلس باستقلال ذاتي ، اذ كانوا من الناحية الادارية يخضعون لرئيس عام تعينه الحكومة المركزية يدعى « قمص » Comes وهو منهم ، وله وكلاء في المناطق الاخرى يطلق على الواحد منهم اسم المستخرج . وأما من الناحية القضائية فقد كان لهم قاض خاص يدعى بقاضي النصارى أو قاضي العجم يحل ما يقوم بينهم من نزاعات حسب شريعتهم الخاصة ، ولا يخضعون لحكم قاض مسلم أو لاحكام الشريعة الاسلامية الا عندما يقوم نزاع بينهم وبين المسلمين . ولعل المنشور التالي الذي أصدره الوالي العربي لمدينة قلمرية Coimbra خير دليل على ما نقول . فقد جاء في هذا المنشور ما يلي : « يكون على مسيحي قلمرية قمص يلي أمورهم ويحكم فيهم بالسداد وكما كانت عادة المسيحيين في الاحكام وله أن يفصل في الخصومات التي تقع بينهم ،ولكنه لا يقدر أن يحكم على أحد بالقتل الا بعد موافقة قاضي المسلمين .. ويكون لكل مدينة من المدن الصغيرة قاض خاص بها يحكم فيها بالعدل ويكف المنازعات . وان أهان مسيحي مسلما عومل بشرع المسلمين »(٤) .

أما عن الادعاء الثاني الذي يجعل النظام الضريبي الذي كان يخضع له المستعربون سببا لقيام حركة الاستخفاف ، فيمكن القول أيضا أن هذا السبب لا يستقيم على محك النقد ، ولعل أبسط ما يرد به عليه هو أن زعماء هذه الحركة وقادتها الكبار كانوا من رجال الدين وهم معفون من دفع الضرائب ، كما أن غالبية المشاركين فيها كانوا من الرهبان ورجال الاديرة أي أبعدهم عن الاهتمامات الدنيوية . ومن ناحية أخرى فقد كانت هذه الضرائب مفروضة منذ أوائل عصر الامارة في الاندلس ، فلماذا لم تقم الحركة الا اعتبارا من عام ٢٣٥ هـ/٨٤٩ — ٥٠ م في عهد عبد الرحمن الثاني . ثم ان الضرائب كانت واحدة على عامة المستعربين في جميع أنحاء الاندلس فلماذا تمركزت الحركة في قرطبة بالذات ؟؟

ان السبب الحقيقي لقيام حركة الاستخفاف يكمن في رأينا في الانهيار الذي أصاب الحضارة اللاتينية في شبه الجزيرية الايبرية ، هذا الانهيار الذي تجلى في جميع النواحي : الفكرية والاجتماعية ، واللغوية والدينية ، وانهزام هذه الحضارة وذوبانها التدريجي في الثقافة العربية الاسلامية في الاندلس وانصراف الناس عنها الى الحضارة والثقافة واللغة العربية . والامثلة على هذا الانهيار كثيرة وتحفل بها المصادر والمؤلفات الاسبانية الحديثة . فهذا R. Menendez Pidal ينقل لنا في كتابه El Idioma Espanol (ص 32) قول أحد زعماء حركة الاستخفاف : « لا نكاد نجد في جماعة المسيحيين كافة رجلا من ألف رجل يستطيع ان يستفسر عن صحة صديق بعبارات واضحة جلية ، وانت واحد بين جمهرة السوقة والعامة أشخاصا لا يحصى عددهم ، يحيطون احاطة تامة بالعبارات الفصيحة التي خلفتها اللغةالعربية في عصورها الذهبية ، حتى لقد استطاعوا أن ينظموا القصائد المقفاة .. بل لقد كان بعضهم أمهر من العرب انفسهم في قرض الشعر » . واذا انتقلنا الى الناحية الدينية فانا نرى ان الاسلام لا يكتفي بضم اعداد متزايدة من غير المسلمين الى حظيرته يوما بعد يوم ، وانما غدا الفكر الاسلامي يشكل خطرا على سلامة العقيدة الدينية عند من بقوا على دينهم ، وفي صفوف رجال الدين بالذات . فقد ظهرت هرطقات جديدة داخل الكنيسة متأثرة بنظرة الاسلام الى الله . وقد رفض مستعربو اشبيلية الاحتفال بعيد ميلاد السيد المسيح على الشكل الذي اوصى به مجمع « نيقيه Nicea » ، وعد أسقفها من الهراطقة . وقام Elipando أسقف طليطلة يقول ان المسيح مادام انسانا فلا يمكن أن يكون بابن طبيعي لله ، وانماهو ابن متبنى. وانخرط رجال الدين المسيحي في شبه الجزيرة الايبرية عامة ، وبتأثير اسلامي ، في نقاش حاد حول حرية الارادة والقدر وغير ذلك من أمور .

ان هذه الحركة التي كانت تهدف الى اظهار الاسلام بمظهر السخف وتصوير الرسول الكريم على شكل ساحر أو دعي ، والتي كانت تباهي بشتم الرسول والدين الاسلامي الى حد الشطط والفجور ، ما هي الا مظهر من مظاهر الشعور بالخطر الكبير الذي كان يمثله الاسلام ورسوله العظيم بالنسبة لمن كانوا يناصبون الاسلام العداء . وتمثل هي وحركة معاداة الايقونات التي اسلفنا ذكرها الحد الذي وصل اليه الخوف من الدين الجديد وما حمله من أفكار ، وضرورة العمل لايقاف انتشاره وكسر شوكته ومهاجتمه في صلب عقيدته وتراثه ومعطيات حضارته ، ومن هنا كانت بداية الاستشراق .

ولست أريد لهذه الدراسة أن تدخل في متاهة تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ، فهذه العلاقات قديمة ومتشابكة وكان لها أكثر من وجه خلال عصور

التاريخ القديم . ولما جاء الاسلام ، وغدا العرب سادة الشرق وبناة مجده ، شعر الغربيون بخطر عقائدي وفكري الى جانب الخطر العسكري والسياسي يتهدد وجودهم وأسس حضارتهم ، ولم يعترف الغربيون ، كما يقول الدكتور كامل عياد(٥) « بأن الاسلام انما اراد اتمام ما بدأته الديانات السماوية السابقة ،ونسوا أن المسيحية نفسها كانت قد جاءت اليهم من الشرق ، فاعتبروا الدين الجديد مظهرا للثورة الكبرى تقوم بها آسيا ضد سيطرة اليونان والرومان ، وصاروا منذ ذلك الوقت يصورون الاختلاف بين الشرق والغرب كصراع بين الاسلام والمسيحية » . وغدا عندهم حصار العرب للقسطنطينية زمن معاوية والوليد وسليمان بن عبد الملك وحملات عبد الرحمن الغافقي وعملياته العسكرية الناجحة داخل حدود فرانسة ، تحديات بربرية قوبلت من الغرب بردود قاطعة لانقاذ الحضارة الغربية . كذلك كانت الحملات الصليبية التي قادها رجال من الغرب تحت ستار العقيدة الدينية ، ولكنها كانت في الحقيقة وسيلة لتحقيق مطامع استعمارية واقتصادية . واذا كان للحملات الصليبية من نتائج في ميدان الفكر والثقافة ، فقد كان من أهم هذه النتائج شعور رجالات الغرب الصليبي الذين قدموا الى المشرق العربي بأن حضارة الشرق تفوق حضارة الغرب ، وامتزج خوفهم من هذه الحضارة وبغضهم لها ، بشيء كثير من اعجاب بها ورغبة في الاقتباس منها . كما لاحظ رجال الكنيسة الغربيون الذين رافقوا هذه الحملات الصليبية أو اطلعوا على نتائجها أن معرفتهم بالعقيدة الاسلامية معرفة سطحية وغير واضحة ، وأنه لابد لهم من ترجمة القرآن والاحاديث النبوية ودراسات الفقهاء والعلماء المسلمين ليستطيعوا الرد عليها ومحاربتها ومنعها من الانتشار بين صفوف اتباعهم وبالتالي تهديد ايمان اتباعهم . ولعل خير دليل على صحة دعوانا هذه أن المجمع الديني الذي عقد في فيينا عام ١٣١١ ــ ١٣١٢ م حث رجال اللاهوت المسيحي على الرد على آراء الفقهاء المسلمين . واذا كانت الحملات الصليبية على المشرق هي من أهم حوافز نشأة الاستشراق ، فانه كانت هناك مراكز اخرى من الغرب لعبت دورا هاما في تنشيط الدراسات الاستشراقية لانها كانت الجسور التي عبرت عليها الثقافة العربية الاسلامية الى الغرب المسيحي ، وأهم هذه المراكز : الاندلس وصقلية . فقد كانت طليطلة ، كما هو معلوم ، من أكبر حواضر العلم عند العرب المسلمين في الاندلس ، ولما سقطت في يد الاسبان عام ١٠٨٥ سارع اليها طلاب العلم من جميع انحاء اوربا ، وقام رئيس أساقفتها ريموند (١١٣٠ ــ ١١٥٠) فأسس فيها مدرسة للترجمة عملت على نقل تراث العرب في العلوم من العربية الى اللاتينية وكانت المنهل الذي عب منه جمع غفير ممن تبوأوا المراكز العلمية العالية في الغرب في القرون التالية . ولن ننس في هذه العجالة أن نذكر الدور الذي لعبه الملوك النورمانديون في صقلية منذ زمن الملك روجر في

جمع العلماء العرب المسلمين في بلاطاتهم وترجمة المؤلفات العربية في مختلف العلوم والفنون لتدريسها في الجامعات التي احتذوا في تأسيسها النمط المتبع في المدارس العربيـــة . .

وهكذا ، بدأت الدراسات الشرقية « على أساس غير صحيح ، لانها كانـت منذ بادىء الامر خاضعة لفكرة الجدل الديني »(٦) .

وحين داهم الاتراك عالم الغرب بعد قيام السلطنة العثمانية وقاموا بالاطاحة بالامبراطورية البيزنطية واحتلال القسطنطينية ، كان طبيعيا أن يرافق الخوف من الاتراك حقد على الدين الذي رفع الاتراك الى منزلة رفيعة وأمدهم بقوة خارقـة مكنتهم من تحقيق منجزات سياسية وعسكرية رائعة ، فقام الكتاب الاوربيون في القرنين السادس عشر والسابع عشر يسمون الرسول الكريم بنبي الاتراك ، وأخذوا في مهاجمة صاحب الرسالة ظنا منهم أنهم بذلك انما يتهجمون على الاتراك الذيـن أوقعوا بهم الذل . ثم كانت بعد ذلك المحاولات المختلفة التي قام بها الغرب لاستعمار أجزاء الوطن العربي الامر الذي زاد في اهتمام الغرب بالشرق ، وغدت مبررات هذا الاهتمام سياسية واقتصادية الى جانب المبررات العقائدية . ونستطيع القـول بكل تأكيد أنه خلال جميع مراحل العمليات الاستعمارية ، لعب المستشرقون دورا أساسيا في التمهيد للتوسع الاستعماري ولتوطيد سيطرة الغرب على الشرق .

وكما كان الفاتيكان أكبر المراكز الدينية واكثرها اهتماما بالاستشراق ونشره ، فقد كان هذا المركز المعين الذي أمد طلائع الاستشراق بأوائل رجالاته . فقد كان رجال الدين يؤلفون الطبقة الاكثر تنورا في أوربة ، وكانت مهمتهم الدينية تقتضي عدة أمور منها ارساء نهضة الكنيسة على أساس من التراث الانساني الذي تمثل الثقافة العربية الاسلامية جزءا أساسيا منه ، كما كان من واجبات الكنيسة اعداد جماعة من المفكرين يستطيعون مقارعة فقهاء المسلمين ومجادلتهم ببراهين مـن كتبهم وتعاليمهم . هذا فضلا عن اهتمامهم بتدريب أدلاء يعرفون العربية ليقوموا بخدمة الحجاج المسيحيين القادمين من مختلف الاصقاع الى الاراضي المقدسة . لذا نرى البابوات يكلفون جماعة الفرنسيسكانيين بالاهتمام بمن يغدون الى فلسطين من المسيحيين ، والدومينيكانيين بمن يقصدون سورية ومصر . وكان من الوسائل التي اعتمدها الفاتيكان في سبيل ذلك تعليم العربية واللغات الشرقية في بعض المدارس والاديرة من اسبانيا والجامعات في فرنسا وايطاليا منذ القرن الحادي عشر الميلادي . وقد ساعد وجود المطابع على تحقيق هذا الهدف وأخذ الاستشراق يسير في طريق صاعدة تحقق تقدما مستمرا لتحقيق الاهداف التي قام من أجل خدمتها .

ويعتبر البعض أن جربر دى أورالياك Jerbert de Oraliac الذي تبوأ منصب البابوية باسم سلفستر الثاني (٩٩٩ – ١٠٠٣) والذي هو من أصل فرنسي من طلائع المستشرقين ، فقد امر بعد أن اعتلى السدة البابوية بانشاء مدرستين عربيتين في روما ورانس Reims ، كما نشر الارقام العربية في أوربة وترجم بعض كتب الرياضيات والفلك وغير ذلك . وتبعه عدد آخر من المستشرقين كان من بينهم قسطنطين الافريقي Constantinus Africanus (توفي عام ١٠٨٧) واوغو دي سانتالا Ugo Di Santalla (حوالي ١١١٩) . واخذت الاسماء بعد ذلك تتوالى(٧) ولم يعد الاستشراق حكرا على بلد ، بل غدا له رجاله في المانيا وهولاندة وبريطانيا وايطاليا وفرانسا وروسيا وغير ذلك من دول الغرب آنذاك ، وأخذت اكتابات المستشرقين ومؤلفاتهم تتزايد وتتسع حتى شملت آفاقا عديدة من عوالم العرب والاسلام في المشرق والمغرب على حد سواء .

★ ★ ★

ولابد لنا ونحن في هذه المرحلة من حديثنا ان نتوقف لنستعرض العوامل التي دفعت بالاستشراق في معارج التطور . وكنا قد ذكرنا أن اهتمام الاوربيين بالتراث واللغات الشرقية كان مبعثه ونقطة انطلاقه الغرض الديني بشكل رئيس . فالرد على المسلمين ومجادلتهم ، والدعوة الى المسيحية والتبشير بها بين المسلمين وغير المسلمين من شعوب آسية وافريقية الذين دخلوا أو خطط لدخولهم في تبعية الدول الغربية المستعمرة ، اكانت كلها من بين العوامل التي دفعت عجلة الاستشراق الى الامام . والذي يؤيد زعمنا هذا هو أن الكثيرين من الذين احترفوا الاستشراق وبرزوا في ميادينه بدأوا حياتهم العلمية بدراسة اللاهوت قبل التفرغ لميدان الدراسات الاستشراقية ، وكأنهم أرادوا أن يتسلحوا بمعرفة كافية بالعقيدةالمسيحية قبل الخوض في غمار الحرب المبطنة التي أرادوا شنها على خصومهمالدينيين ، وظل الكثير منهم يتولى وظائف دينية وتبشيرية وله مكانة كنسيةمرموقة . ورغم محاولات بعضهم نفي هذه التهم والاعلان عن حيادهم وانهم انما يقصدون من دراساتهم وجه العلم والحقيقة ، فقد لازم التعصب الديني اكثرهم وبدا بين سطور ما يكتبون ان لم يعلنوا عنه صراحة وجهارا .

ولسنا نريد القول بأن الهدف الوحيد للاستشراق كان الدافع الديني ، ولن نستطيع أبدا أن نبعد المطامع الاستعمارية عن هذه الصورة التي نرسمها لاهداف الاستشراق ، لان الاستعمار في رأيناكان من بين العوامل الهامة التي ساعدت على تطور الاستشراق . فقد رأت الدول الاستعمارية أنه لابد لها من أجل تحقيق

أغراضها السياسية والاقتصادية في الدول العربية والاسلامية من أن تستفيد من الاستشراق لتحقيق هذه الاغراض .

ونخلص من كل ذلك الى القول بأنه بعد قيام الحركة الاستعمارية الاوربية في القرون الحديثة وشعور المستعمرين بأن الدراسات الاستشراقية التي قامت في الاساس لخدمة أغراض دينية يمكن الافادة منها في ميدان التغلغل وتثبيت النفوذ الاستعماري ، فقد قامت هذه الدول بدعم حركة الاستشراق ومدها بالعون المادي والمعنوي ورعت مؤسساتها وساهمت في انشاء جمعياتها ومولتها بما تحتاج . وهكذا وبعد أن كانت الكنيسة راعية الاستشراق والموجهة لتحركات وأعمال رجاله ، انضمت الدولة الى الكنيسة في هذه الرعاية وقدمت له ما يحتاج من دعم مادي ومعنوي . وليس أدل على ذلك من جهود وارن هيستنجز Waren Hastings الحاكم الانكليزي العام للبنغال الذي أمر بعض موظفي شركة الهند الشرقية في أواخر القرن الثامن عشر بالاهتمام بدراسة لغات الهند وتاريخها وحضارتها ، ثم ما لبث أن عمد الى تأسيس « الجمعية الاسيوية للبنغال » سنة ١٧٨٤ ، وهي أول جمعية علمية للمستشرقين ، وذلك لان الحاكم العام كان يريد اقامة السيطرة البريطانية في الهند على أساس متين من معرفة البلاد وامكانيات استثمارها ، وعندما تأسست (الجمعية الاسيوية) في فرانسا سنة ١٨٢١ كتب القائمون عليها في نشرة الاعلان عنها أن غايتها هي قبل كل شيء « جمع الوثائق الثمينة اللازمة للاعمال الدبلوماسية في الشرق الادنى وللمشاريع التجارية في آسية كلها ، ثم جمع المعلومات عن الصناعات الهامة مثل النسيج والخزف التي يسهل الاطلاع عليها في مؤلفات الشرقيين »(٨) . وواضح من هذا الاعلان أن أهداف الاستعمار السياسية والاقتصادية كانت وراء الامر بتأسيس هذه الجمعية . ووثيقة تأسيس هذه الجمعية تفضح الترابط بين الهدفين الاستعماري والديني أيضا اذ أنه جاء فيها أيضا بأن الدراسات الشرقية التي سوف تعنى بها هذه الجمعية « من شأنها أن تمهد السبيل للمبشرين وتفيدهم في نشر الديانة المسيحية »(٩) . ويقدم الاستعمار الفرنسي للجزائر مثلا آخر على هذه الصلة الوثيقة بين الاستعمار وتطور الدراسات الاستشراقية ، فقد اتسعت الدراسات العربية في فرانسا وتطورت ونمت بعد استيلائها على الجزائر ، وغدت فرانسا حريصة على اقامة المؤسسات المتخصصة في ميادين اللغة العربية والدراسات الشرقية وزودت هذه المؤسسات بما تحتاج وأولتها عناية تتناسب وما تعلق عليها من آمال .

وحرص الاستعمار على اشاعة ايديولوجية تهدف الى اقامة التفريق الواضح بين الشرق والغرب ، والنص على أن هناك من حيث المبدأ والاساس فرق جوهري

بين الغرب والشرق لا في أسلوب الحياة المادية اليومية والعادات ، بل في طريقة التفكير ونوعية العقلية والتكوين الفكري . فكانت نظريات غوبينو Gobineau (١٨١٦ — ١٨٨٢) العرقية التي ضمنها كتابه « بحث حول عدم التساوي بين العروق الانسانية » Essai sur l'inégalité des Races Humaines ، وارنست رينان E. Renan (١٨٢٣ — ١٨٩٢) في كتابه « أديان الساميين » الذي يذكر فيه أن الساميين منحدرون من أصل واحد يتميز أفراده بتشابه لغاتهم وعقليتهم ونظرتهم الجزئية غير المجملة الى الاشياء وتأثرهم بالغيبيات وميلهم الى السذاجة في التفكير. ويؤكد رينان أن الصفات التي تتميز بها العقلية السامية ترجع الى عوامل بيولوجية موروثة من الجنس الذي ينحدرون منه ، لذلك فهو يعتبرهم مختلفين أساسا عن الاريين . وطبيعي أن يكون من جملة البواعث التي حدث برينان الى اطلاق مثل هذه الافتراضات العفنة عقلية استعمارية ، أرادت أن تفرض نظرية العرق السيد الذي يحق له أن يستعمر ، هذه النظرية التي طورها هتلر والنازية فيما بعد . فكان ما هو معروف من أمرها ، مما لا أرى ضرورة لتكراره . وهكذا نرى أن العلاقة وشيجة بين الاستعمار والاستشراق ، وقد أدت هذه الصلة الوشيجة الى انصراف الاستشراق للاهتمام بنوعية معينة من الموضوعات تتناسب والمرحلة التي قطعها الاستعمار في علاقاته مع البلد المستعمر ، فالدراسات في دور الغزو تختلف عنها في دور توطيد النفوذ ، كما تأخذ شكلا اخر في دور مقاومة الثورات التحررية .

وينبغي أن ننبه الى أن الكثير ممن نسميهم بالمستشرقين لم يكونوا علماء أو أساتذة جامعات أو رجال بعثات أثرية ، بل كان بينهم العديد من الجواسيس والموظفين في وزارات الخارجية ووزارات المستعمرات ودوائر الاستخبارات وغير ذلك . كما ينبغي أن نلاحظ ان دراسات المستشرقين انصرفت انصرافا تاما عن نهضة الشعوب الشرقية والاسلامية في العصر الحاضر وركزت جهدها بشكل خاص على تاريخها القديم ومعالم حضارتها وفكرها في الماضي البعيد . وهم حين يبحثون في تاريخ وحضارات وطننا العربي في القديم يقتصرون على بحث الامور التي لا تمس نواحي عزة هذه الامة ومساهمتها في حضارة العالم وتراثه ، وما كان لها من دور انساني كبير لابد من بعثه والقاء الاضواء عليه حتى تستنير الاجيال اللاحقة بأنوار الماضي فتلحق بالركب وتستعيد ما كان لها من مجد وسيادة . ويوصلنا هذا الى القول بأن أبحاث المستشرقين حول موضوع النهضة العربية الحديثة قليلة جدا ، وأقل منها أبحاثهم حول الجوانب الايجابية في تاريخ العرب والاسلام ، وأن جل اهتمامهم تركز حول الفتن والحروب الاهلية والفرق الدينية ومظاهر الفرقة والانقسام التي تظهر سلبيات هذا التاريخ ، كما اهتموا بالامور اللغوية وبالمؤثرات الخارجية التي كان لها في زعمهم تأثير في نشأة الاسلام وحضارته . فهم يحاولون

التشكيك في صفاء الاسلام ويبرزون الدور الذي لعبته المسيحية واليهودية في تكوين الفكر والعقيدة الاسلامية ، ويردون الفلسفة العربية الاسلامية الى اصول يونانية أو غيرها . وكل ذلك بدعوى استعمال الاسلوب العلمي في البحث واتباع الطريقة النقدية في استقراء النصوص ، وتطبيق قواعد منهج البحث التاريخي . ولابد من الاعتراف بأنه مهما كانت نوايا المستشرقين غير صافية فان اسلوبهم في البحث والنقد التاريخي يظل الاسلوب الذي يجدر بنا احتذاؤه في دراساتنا التاريخية والحضارية . كما لابد من الاعتراف بأن جهودهم في ميادين نشر تراثنا كانت جهودا جبارة وتستحق كل تقدير ، فحتى اليوم ورغم الخطى الحثيثة التي قطعتها عملية نشر التراث العربي بأيد عربية ، فان الكثير من الاصول ماتزال أفضل طبعاتها طبعات ليدن Leiden وباريس وسواهما من مراكز الاستشراق القديمة . كما أن الكثير مما نشروه مايزال دون اعادة نظر رغم ظهور مخطوطات جديدة لم يتح للناشرين الاول الاطلاع عليها . وما قلناه عن ميدان التراث يصح بشكل اوسع بكثير على ميدان الاثار ، ففي هذا الميدان مازالت جهود البعثات الاثرية الاجنبية هي الجهود الحقيقية التي أخرجت أثارنا من ظلام القرون الى نور الحقيقة . ولن أسرد أمثلة على هذه الجهود ويكفي أن أذكر بعض الاسماء التي تتضمنها القائمة الطويلة للمستكشفين والاثاريين الاجانب الذين دفع الكثير منهم حياته ثمنا لارتياد أرض الجزيرة العربية بقصد الكشف عن آثارها والتعرف على حضارتها وتاريخها . واقدم من نعرفه من هؤلاء الرحالة هو دي فارتما L. de varthema الذي وصل الى مكة قادما من دمشق في أوائل القرن السادس عشر ، وتلاه اخرون اكثر ، ولكن اكثر الرحالة الذين تركوا لنا وصفا مسهبا لرحلاتهم ومخاطراتهم كانوا المستكشفين الذين قاموا برحلاتهم في أوائل القرن التاسع عشر ، وفي مقدمتهم المغامر الاسباني باديا ي لبلخ Badia Y Leblich الذي وصل الى جدة عام (١٨٠٧) تحت اسم علي بك العباسي مدعيا انه اخر امراء البيت العباسي . وقد زار لبلخ مكة وكتب وصفا دقيقا للكعبة وطقوس الحج ، وكان أول من عين مكان مكة على خريطة العالم ، وتتالى بعد ذلك الرحالة والمستكشفون من أمثال نيبور Carsten Niebuhr (١٧٦١ - ١٧٦٤) وهاليفي Halévy (١٨٦٩) وغلازر Glaser (١٨٨٢-١٨٩٢) الذين زاروا آثار اليمن وقدموا للعالم الكثير من المعلومات حول تاريخها وحضارتها وقام رحالة آخرون من أمثال ولستد Wellsted (١٨٢٥) وفون فريده Von Wrede وهيرش Hirch وبنت Bent الذي زار شواطىء بلاد العرب ومايلز Miles الذي زار شواطىء بلاد العرب عام (١٨٦٧) موفدا من قبل شركة الهند البريطانية . هذا فضلا عن بوركهارت J. L. Burckhardt (١٨١٥) الرائد الاول للحجاز ، وبرتون Burton وسنوك هيرخرونيه Snouck Hurgonyé الهولندي ، وبالغريف Palgrave (١٨٦٢-١٨٦٣)

وداوتي Doughty مؤلف كتاب Arabia Deserta (١٨٧٥) وبلنت Blunt (١٨٨٧) وغيرهم ممن كان لهم فضل في اكتشاف بلاد العرب . ولما أشرق القرن العشرون ازدادت الابحاث العلمية واخذت شكلا اكثر جدية وظهرت مؤلفات عن بلاد العرب تتصف بالجدية في البحث والغنى في المعلومات مثل كتاب موزل Alois Musil الذي أصدره في سبعة اجزاء ، وكتاب جوسن وسافينياك Jaussen - Savignac بعنوان « بعثة أثرية في الجزيرة العربية » Mission Archéologique en Arabie الذي يشمل حديثا مسهبا عن آثار الحجاز وبخاصة مدائن صالح والعلا . وفي الفترة السابقة للحرب العالمية الاولى كان ديسو Dussaud يقوم بأبحاثه الاثرية في سورية وينقل النقوش ويجري دراسات أثرية وتمكن ديسو هذا ، ودينان Dunand من نقل اكثير من النقوش الصفوية والثمودية واللحيانية بحيث أصبح من الميسور عمل سجل جامع لها . أما في أواسط الجزيرة العربية فسيظل البحث العلمي مدينا لبرترام توماس B. Thomas الذي اخترق الربع الخالي في شباط من عام ١٩٣١ فوجد بقايا بحيرة عند منخفض ابو بحر وآثار نباتات وحيوانات عند جبل العترا ، وكان اكتشافه هذا المنطلق الذي استند عليه وينكلر وكايتاني في بناء نظريتهما القائلة بأن الجزيرة العربية كانت أرضا خصبة في تاريخها القديم وانها بالتالي مهد العرق السامي . ولن ننس أخيرا ان نذكر اسم هنري سان جون فيلبي Philby الذي قام بكثير من الرحلات كانت آخرها رحلته التي قام بها بصحبة العالم البلجيكي ريكمانز شتاء عام ١٩٥١ — ١٩٥٢ ، وعادا ومعهما (١٢٠٠) نقش اكثرها ثمودية وبينها نقوش لحيانية سبئية .

وكان من أهم النتائج التي ترتبت على تطور الاستشراق واتساع ميادينه ومواضيعه أن شعر المستشرقون بضرورة التخصص ، فنشأت فروع استشراقية عديدة من أهمها فرع الدراسات الاسلامية Islamologie الذي انقسم بدوره الى فروع عدة بينها ميدان اللغة والتاريخ والعقيدة وسواها من الميادين . وظلت حياة الرسول الكريم ودعوته وتعاليمه أهم الميادين التي طرقها المستشرقون واحتلت المقام الاول بين الموضوعات التي عالجوها . وظل الاوربيون في القرون الوسطى وحتى القرن السابع عشر الميلادي يتحدثون عن الرسول الكريم حديثا تملؤه الاسطورة وتحف به ابشع صور الدجل والشعوذة . ولما بدأت الحركة الاستشراقية تتخذ لنفسها طابع العلمية والحياد ، أخذ المستشرقون يتظاهرون بالتحرر من التعصب الديني ويدعون أن هدفهم من دراسة حياة الرسول هو معرفة سيرة حياته معرفة صحيحة بعيدة عن كل تصور مسبق أو هدف غير علمي ، ورغم ما في هذا الادعاء من بعد عن الصحة ، فانانلاحظ أن بعض الكتاب الغربيين أخذوا منذ القرن الثامن

والدقة في الحكم عليه ، ولكن هذا الظاهر الخادع لم يمنعهم في أغلب الاحيان من طمس الحقائق أو تشويهها . وتستبين لنا هذه الحقيقة اذا ذكرنا نماذج من أعمال المستشرقين الاوائل في ميدان دراسة سيرة حياة الرسول الكريم .

فالمستشرق الفرنسي غليوم بوستل Guillaume Postel مثلا (١٥٠٠ — ١٥٨١) الذي كان يعد من اكبر علماء عصره ويدرس العربية والعبرية واليونانية في جامعة باريس ، وكانت لديه مجموعة ضخمة من المخطوطات الشرقية ، ألف كتابا أسماه « عن جمهورية الاتراك » De la Republique des Turques وقد ضمن القسم الاول منه وصفا لحياة الرسول مدعيا أنه استقاه من القرآن والحديث ومما جاء في كتب المسلمين لاعتقاده ، كما يقول ، بأن احسن وسيلة لمحاربة المسلمين هي محاربتهم بأسلحتهم نفسها . ثم قام في القسم الثاني من الكتاب بعرض حياة الرسول من وجهة نظره الدينية . ولخص في القسم الثالث تعاليم الدين الاسلامي محاولا بشكل خاص ان يشير الى الامور التي اقتبسها الاسلام عن المسيحية واليهودية والعجيب في أمر بوستل أنه بعد هذا العداء الصارخ للاسلام اتيحت له فرصة زيارة مصر وسورية ولبنان والاستانة فازدادت معرفته بالاسلام حتى أعجب به ، ورأى أنه من الممكن التوفيق بين الاسلام والمسيحية واليهودية . وقد أثارت آراؤه هذه الكنيسة فأمرت بسجنه في أحد الاديرة حيث ظل حتى مات .

ويعتبر بوستل رائدا في ميدان الرجوع الى المصادر العربية لدراسة حياة الرسول وغيرها من القضايا المتعلقة بالتاريخ واللغة العربية ، وكان من أشهر من سار على هذه السنة المستشرق الانكليزي ادوارد بوكوك الاب E. Pococke (١٦٠٤ — ١٦٩١) الذي بدأ حياته قسيسا ، ثم ما لبث أن اظهر اهتماما واضحا بالدراسات العربية ، فقصد مدينة حلب سنة ١٦٣٠ حيث أمضى مدة خمس سنوات اتقن خلالها اللغة العربية كتابة وخطابة على يد شيخ حلبي اسمه الشيخ فتح الله ، واقتنى مجموعة نفيسة من المخطوطات العربية من بينها « الامثال » للميداني . وعاد الى اكسفورد يحمل هذه الذخيرة من المخطوطات ، كما يحمل شجرة تين ظل يتفيأ ظلالها . وفي سنة ١٦٣٦ عين استاذا لكرسي اللغة العربية في جامعة اكسفورد ، وأخذ يحاضر في الاداب العربية والنحو العربي ، وكانت الحلقة الاولى من محاضراته عن أقوال الامام علي بن أبي طالب . وكانت في اكسفورد مطبعة عربية ، فاستغلها لطباعة المخطوطات العربية التي حملها معه . ثم ما لبث أن عاوده الحنين الى الشرق بعد سنة من قدومه الى اكسفورد فعاد للاستزادة من العلم والمخطوطات ولقي استاذه وصديقه الشيخ فتح الله ، وعاد سنة ١٦٤١ الى بريطانيا ليعاود التدريس في الجامعة ونشاطه الكنسي . وبلغ من شهرته في ميدان الدراسات الشرقية أن

توافدت عليه اعداد اكبيرة من طلاب البلدان الاوربية ليفيدوا من خبرته وعلمه . وقد خلف بعد وفاته مجموعة بلغت (٤٢٠) مخطوطا اقتنتها مكتبة جامعة اكسفورد (بودليان) . والمهم أن بوكوك أشرف على نشر عدد كبير من المخطوطات العربية من بينها « نظم الجواهر لابن البطريق » ، وقد ترجمه الى اللاتينية وسماه « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » . وله « المختار من تاريخ العرب » ، وهو مجتزء من تاريخ ابن العبري (بارهبرايس) المسمى تاريخ مختصر الدول الذي أشرنا اليه آنفا ، كما ترجمه الى اللاتينية وذيله بدراسات في التاريخ والادب والدين والعلوم العربية . وقد اعتمد الكثيرون ممن جاؤوا بعد بوكوك على كتاب ابن العبري هذا فيما كتبوه عن الرسول والاسلام . وكان بوكوك كغيره من المستشرقين في عصره يهدف الى التبشير بالمسيحية والدفاع عنها .

وقد اعتمد مستشرقو هذه الفترة على ما وصلهم من ترجمات للقرآن الكريم ، الى جانب اعتمادهم على المصادر العربية في دراساتهم لحياة الرسول الكريم والدين الاسلامي . وكانت الحروب الصليبية وما نجم عنها من احتكاك وتحد من جهة ، والرد الحاسم على هذا التحدي من جهة اخرى ، هي نقطة البدء في حركة واسعة هدفت الى ترجمة القرآن الكريم ونشره بقصد استخدام الوسائل الفكرية المعتمدة على تعاليم الاسلام ونصوصه الاصلية في محاربة الاسلام . وكان الرائد الاول لحركة ترجمة القرآن هو بطرس المحترم Petrus Venerabilis (١٠٩٢ ــ ١١٥٦) ، الذي كان يعتقد أنه « لاسبيل الى مكافحة العقيدة المحمدية الا بالحجج العقلية وقوة المنطق ومظاهر الحب »(١٠) ومن أجل تحقيق هذا الهدف قرر العمل على ترجمة القرآن الى اللغة اللاتينية ، وساعده في عمله رجلان من رجال الدين المسيحي كانا يعرفان العربية . ولكن لم يتح لهذه الترجمة ان تنشر الا بعد (٤٠٠) سنة اذ قام أحد علماء اللاهوت في مدينة بال بسويسرا بطبعها سنة ١٥٤٣ . ولكن سياسة الكنيسة كانت لاتهدف الى ترجمة القرآن فحسب ، بل كان رأي البابا اينوسنت الحادي عشر أنه من الافضل نشر ترجمة للقرآن مع رد عليه في وقت واحد . وعهد بهذه العملية الى راهب يرجع اصله الى سورية اسمه « المرعشي » ، ولكنه عاش في المقر البابوي بايطاليا حيث عرف باسم ايطالي محرف عن العربية هو لودوفيكو ماراتشي Ludovico Marracci (١٦١٢ ــ ١٧٠٠) ، الذي نشر في روما سنة ١٦٩١ كتابه « دراسة عن الاسلام » الذي جعله مقدمة لطبعته من القرآن الكريم متنا وترجمة لاتينية وتعليقات على المتن . وقد قدم لكتابه بترجمة لحياة الرسول الكريم ، يقول في تبريره لكتابتها ما يلي :

« لو اردت وصف حياة (محمد) حسب رواية كتابنا لتعرضت لسخرية

المسلمين . فان هناك اختلافا كبيرا بين ما نتناقله نحن عن (محمد) وبين ما يرويه المؤرخون المسلمون ، حتى أن القارىء لا يكاد يصدق أن الكلام في الحالتين يدور حول الشخص ذاته . لذلك سوف أتبع المؤرخين المسلمين ، ليس لانني اعتقد بصدق كل ما يقولونه ، بل لاننا اذا أردنا مكافحة أعداء الدين لابد لنا من أن نحاربهم بأسلحتهم . أضف الى ذلك ان الكثيرين من كتابنا يذكرون أمورا عن (محمد) لايمكن أن تثير لدى المسلمين الا السخرية ، ولا تزيدهم الا تمسكا بعقائدهم الباطلة »(١١) . وواضح من هذه المقدمة أن المرعشي لم يكن يقصد في عمله أن يصدر حكما عادلا على الرسول صلوات الله عليه .

وقد ظهر بعد ذلك اتجاه اكثر اعتدالا وعلمية في دراسة الاسلام والسيرة النبوية ، ويمثله المستشرق الهولندي هادريان ريلاند Hadrian Reland (١٦٧٦ ــ ١٧١٨) الذي ألف كتابا عنوانه : « في الديانة المحمدية » De Religione Mohammedica نشر لاول مرة سنة ١٧٠٥ والكتاب عبارة عن تعريف بالعقائد الاسلامية باللغتين العربية واللاتينية ، وحاول فيه المؤلف أن يصحح بعض الآراء الشائعة عن الاسلام ، والتي هي في مجملها آراء مغلوطة . وقد أثار هذا الكتاب ضجة كبيرة واتهم المؤلف بأنه قصد من وراء كتابه الدعاية للاسلام . وغني عن القول أن هذا الاتهام غير صحيح ، ولكن التعصب الديني عند رجال الكنيسة الكاثوليكية جعلهم يضعون الكتاب في قائمة الكتب المحرمة . وتتضح المسحة العقلانية عند ريلاند في المقدمة التي يضعها لكتابه والتي يقول فيها :

« هل يعقل أن يعتنق الملايين من البشر الديانة الاسلامية لو كانت منافية للعقل وسخيفة كما يدعي المؤلفون المسيحيون ؟ ! » ثم يضيف قوله : « لندع المسلمين انفسهم يصفون لنا ديانتهم . ألا نرى أن التعاليم اليهودية والمسيحية قد شوهت من قبل الوثنيين ، والتعاليم البروتستانتية من قبل الكاثوليك ، انه لا يمكن معرفة حقيقة أي ديانة بالاستناد الى أقوال خصومها . اننا جميعا بشر ، أي كائنات معرضة للخطأ ... ثم كيف يجوز أن نحاول مجادلة المسلمين دون أن نعرف عقائدهم معرفة جيدة ؟. » ورغم ما وجه اليه من تهم نراه لايتراجع عن رأيه ويقول : « فالحقيقة يجب البحث عنها مهما كانت المصاعب ، لذلك أريد في كتابي هذا وصف الديانة المحمدية ، ليس كما تبدو لنا من خلال ضباب الجهل وخبث البشر ، بل اكما تدرس حقا في مدارس المسلمين ومعابدهم ... واذا أراد الناس ، رغم كل ماقلته ، أن يتمسكوا بالخرافات السخيفة فذلك شأنهم . ان تجارب الحياة تبرهن لنا كل يوم على أن الناس ينقادون بسهولة الى الاحكام السابقة المتوارثة ، وانهم يفضلون الخداع والغش على معرفة الحقيقة »(١٢) .

ورغم ما في هذا الصوت من مسحة عقلانية كانت نغما نشازا في زحمة التعصب الديني الرهيب الذي كانت تحياه أوربا في تلك الفترة ، فان عقلانية ريلاند لم يتح لها أن تعمر طويلا أو أن تجتذب الانصار الكثر ، وما لبثت عماوات التعصب والجهالة أن عادت لتحتل المقام الاهم في ميدان الدراسات الاستشراقية . فبعد أن شهد القرن الثامن عشر نشوء النزعة العقلانية في أوربة وقامت حركة « التنوير » التي كانت تسعى الى التحرر من سيطرة الكنيسة ، الامر الذي ادى في ميدان الدراسات الاستشراقية الى ظهور أصوات اخرى ، كالمستشرق الانكليزي جورج سيل G. Sale (١٦٩٧ — ١٧٣٦) والمستشرق الفرنسي كلود ايتين سافاري C. E. Savary في كتابيهما عن القرآن (The Koran, le Coran) عادت موجة الكره والعداء لتطغى ، ولتظهر على شكل مؤلفات لا تختلف في هدفها ومضمونها بشيء كثير عن مؤلفات القرنين السادس عشر والسابع عشر . ومن الاصوات المنصفة التي لابد من الاشارة اليها والتي ظهرت في القرن التاسع عشر ، صوت توماس كارلايل Th. Carlyle (١٧٩٥ — ١٨٨١) صاحب كتاب « عن الابطال وعبادة الابطال، والبطولي في التاريخ » On Heroes, Hero-Worship and the Heroic in History ، London. ١٨٤٩ والذي جمع فيه بعض محاضراته ، ومنها محاضرته عن « الرسول محمد » والتي يقول فيها ما معناه انه من العار على الانسان المتمدن أن يصغي الى الاقوال التي تدعي أن الاسلام كذب وأن محمدا خادع ومزور . ويقرر أن الرسالة التي حملها ذلك الرسول مازالت النور المضيء لاثني عشر قرنا ويؤمن بها مائتا مليون من الناس خلقهم الله الذي خلقنا . ويخاطب بني قومه قائلا : « أكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر اكذوبة وخدعة ؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبدا . » ويحلل كارلايل بعد ذلك شخصية الرسول ويكشف عن نواحي عبقريته ، وينتهي الى القول بأنه صلوات الله عليه كان مخلصا اشد الاخلاص في دعوته ، صادقا في عقيدته لا يرقى الى صدقه شك أو ريبة . وقد ترك كلام كارلايل أثرا عميقا في الرأي العام الاوربي في القرن التاسع عشر . وكانت بعد كارلايل عشرات الاسماء من الذين احترفوا الاستشراق وعملوا في ميادينه المتعددة ، مما لا أراني بحاجة للتذكير بها . وسأتوقف ، وقد أطلت ، عند مثل واحد من المستشرقين المحدثين وهو المستشرق هنري لامنس Henri Lammens الذي يستحق في نظري وقفة غير قصيرة نحلل فيها أعماله ومواقفه ونضرب من خلالها المثل على نوعية من المستشرقين جاءت الى العروبة والاسلام والتاريخ العربي الاسلامي وفي يدها خنجر مسموم تحاول تسديده الى صدر هذه الامة لتطعنا في أعز مقدساتها ، ولتشوه أروع فترة من فترات تاريخها وهي فترة خلافة بني أمية . وعندي أن أعمال لامنس وكتاباته وآراءه تمثل

الاعماق الحقيقية والاهداف البعيدة المدى لحركة الاستشراق ، كما تمثل التطورات المرحلية التي كانت تدخل على هذه الحركة لتساير أهداف الاستعمار الغربي في مرحلة معينة وفي ظرف تقتضي طبيعة التحرك الاستعماري فيه بث مفاهيم من نوعية محددة لتساير الاهداف المرحلية للحراكة الاستعمارية . وفي هذا ايضاح مهم للفكرة التي حاولت أن اشرح من خلالها الترابط العضوي بين حركة الاستشراق من جهة والاستعمار الذي ورث أهداف الحركة الصليبية الى جانب اطماع الدول المستعمرة في الميادين السياسية والاقتصادية والستراتيجية من جهة اخرى .

ولد هنري لامنس في أول تموز من عام ١٨٦٢ في مدينة Ghent في بلجيكا من أسرة فلمنكية Flemish تدين بالنصرانية على المذهب الكاثوليكي . وفي الخامسة عشرة من عمره غادر بلجيكا لينضم الى الرهبنة اليسوعية في بيروت ، وأقام في تلك المدينة التي غدت موطنه الثاني ما تبقى له من عمر . وقد امضى السنة الاولى من اقامته في لبنان في الكلية اليسوعية في بيروت ، ثم انتقل بعد ذلك الى دير غفير في جبل لبنان حيث بدأ حياة الرهبنة « كمبتدىء » Novice ، وذلك في تموز من عام ١٨٧٨ . وقد مكنته اقامته في لبنان من تعلم اللغة العربية حتى اجادها اجادة تامة ، كما تعلم اللغة السريانية ، هذا فضلا عن معرفته باليونانية واللاتينية .

ولما كانت سنة ١٨٨٦ كلف بتدريس اللغة العربية في كلية بيروت اليسوعية وما لبث أن الف كتابا في تعليم العربية . أما أول مؤلفاته التي يمكن أن تدخل في ميدان الاستشراق فكان كتابه « كتاب الفرائد في الفروق » الذي الفه سنة ١٨٨٩ ، وكان عبارة عن قاموس يحتوي على ١٦٣٩ مادة انتقاها مما جاء عند اللغويين وأصحاب المعاجم من مصطلحات . ثم ما لبث في عام ١٨٩١ أن ترك مهنة التعليم وكرس السنوات الست التالية من حياته للدراسة والسفر . وقد زار خلال هذه الفترة بريطانيا وبلجيكا والنمسا ومصر ، واكتسب خلالها معرفة جيدة باللغتين الانكليزية والالمانية ، فضلا عن الفرنسية والايطالية اللتين كان يتقنهما من قبل .

وفي الفترة نفسها ، ظل لمدة عام يحرر جريدة « البشير » ، وهي جريدة يسوعية كانت تصدر في بيروت . وبعد أن انهى اسفاره سنة ١٨٩٧ أوكلت اليه ادارة الكلية اليسوعية ، فظل في هذا المنصب ثلاثة أعوام ، ثم ما لبث أن عاد ليرأس تحرير جريدة « البشير » هذه ، وذلك سنة ١٩٠٠ . وفي سنة ١٩٠٣ عاد يزاول عمله الاكاديمي في الكلية اليسوعية ، فكان يدرس مادتي التاريخ والجغرافية في تلك الكلية .

وحين اسست مدرسة الدراسات الشرقية في كلية بيروت اليسوعية عام ١٩٠٧ ، بدأ لامنس حياته كمستشرق محترف ، اذ أنه عين استاذا في تلك المدرسة، فتفرغ كلية للدراسة والبحث . وقد ظهرت ابحاثه في موضوع « السيرة النبوية » خلال فترة السنوات السبع التي أعقبت تسلمه منصب الاستاذية . وكان بعد ذلك أن وقع لبنان وسورية في ظل الانتداب الفرنسي بعد الحرب العالمية الاولى ، فاتخذ من لامنس رأسا من رؤوس صنائعه ، وداعية لسياسته الاستعمارية في الشرق قاطبة . حتى أنه كتب بناء على طلب المفوض السامي الفرنسي الجنرال غورو كتابا بعنوان « سورية La Syrie » ضمن دعاية سافرة لاهداف وآراء الاستعمار الفرنسي ، من خلال عرضه لمادة علمية المظهر والاسلوب . وقد محضته السلطة الفرنسية ثقة مطلقة ، فغدا من ذوي النفوذ القوي في لبنان ، وتدخل بشكل سافر في السياسة اللبنانية عن طريق الثقة المطلقة التي كانت توليه اياها السلطة الفرنسية من جهة ، وعن طريق طلابه القدامى الذين كانوا يعتبرون من الاوجه اللبنانية الهامة التي تحتل مركز الصدارة في الادارة والسياسة من جهة اخرى ، وحين توفي الاب لويس شيخو عام ١٩٢٧ غدا لامنس رئيس تحرير مجلة « المشرق » التي كانت تعتبر من المجلات العلمية المتخصصة آنذاك ، وفي هذه المجلة نشر لامنس العديد من مقالاته وابحاثه بعد أن ترجمت الى اللغة العربية ، وتابع النشر في هذه المجلة بقية سنوات حياته . وفي ٢٣ نيسان عام ١٩٣٧ توفي لامنس بعد أن اصيب بشلل اقعده أول الامر ثم مالبث أن اودى بحياته .

هذه خلاصة سريعة للمعالم البارزة في حياة هنري لامنس ، المستشرق الذي يعتبر انتاجه ، كما اسلفنا ، مثلا حيا على أهداف ومسار حركة الاستشراق في مطلع هذا القرن . كما أن اسلوبه في العرض وطريقته في استعمال المصادر الاولية تمثل المنطلقات المتحيزة البعيدة عن كل حياد ودقة وأمانة التي هي الاساس في كل بحث علمي . فقد كان لامنس كاثوليكيا متعصبا لكاثوليكيته . ويحاول البعض ان يضيف الى هذا أنه كان يحب « سورية » حبا شديدا وأن الكثير من آرائه المعادية للاسلام ، كانت صدى لهذا الحب ، لانه كان يعتقد أن اسلام سورية كان سببا في تخلفها وتخليها عن الرسالة الحضارية والانسانية التي كان من الممكن أن تؤديها لو أنها لم تقع تحت قبضة العرب المسلمين ، أو لو أن الاسلام لم يعرف طريقه اليها. ويدللون على هذه الفكرة بالقول ان لامنس درس تاريخ وجغرافية سورية ، البلد الذي آواه صبيا ومنحه شبابا وكهولة وشيخوخة حافلة بالامجاد العلمية والمكانة الاجتماعية والسياسية المرموقة . ويقولون أيضا أن حبه لسورية ، كان لا يعدله الا بغضه للاسلام . وأود أن اتوقف عند اعترافهم ببغضه للاسلام هذا ، لاقول أن حبه المزعوم لسورية ، لم يكن في الحقيقة الا انعكاسا لما كان يحمله من حقد

وكراهية للعرب والاسلام وانه انما اختبأ وراء « الحب » الذي بشرت به النصرانية لينفس عن سموم الحقد الذي كان يأكل قلبه ويسد دون بصيرته أبواب العقلانية والنزاهة اللتين يقتضيهما كل عمل علمي . وأول ما يظهر هذا الحقد ، في كتابه « سورية » الذي حاول أن يبرر فيه الانتداب الفرنسي على سورية وأن يثبت أن هذا الانتداب ما هو الا امتداد لرسالة التمدين التي تحملها فرنسا الى هذا الجزء من وطننا العربي . يتناول لامنس في هذا الكتاب تاريخ سورية منذ الفتح العربي لها وحتى وقوعها في ظل الانتداب الفرنسي ، ويقدم له بمقدمة سريعة جدا تتناول تاريخ هذا القطر في العصور القديمة . ويذكر الدكتور زكي محمد حسن أن لامنس كتب كتابا عن سيرة حياة الرسول الكريم ، ولكن هذا الكتاب لم ينشر . وفي رأي الدكتور حسن أن البابا هو الذي أوقف نشر هذا الكتاب(١٣) . وغير خاف أن ما ورد في الكتاب من تجريح في شخص الرسول الامين هو الذي دعا البابا الى الامر بايقاف نشره لتخوفه مما قد يترتب على ظهور كتاب من هذا النوع من نتائج وخيمة، أقل ما توصف بها هو أنها لن تكون في صالح الاستعمار الغربي أو الكرسي البابوي . وقد كان المنطلق الذي انطلقت منه كتابات لامنس ، والفكرة التي سادت جميع أعماله هو ايمانه بأن الاسلام كان حادثا تاريخيا بائسا ، وكارثة أصيبت بها سورية فشلتها وأخرت تقدمها . وفي كتابه « سورية » شرح واف لايمانه بالامة السورية ومحاولة لاثبات فكرة الكيان السوري ، ورغم ان لامنس لم يكن أول من دعا الى هذه الفكرة ، الا أنه هو الذي حاول أن يطور هذا المفهوم وأن يقدم له البراهين والادلة التي تصطبغ بصباغ من العلمية الزائفة ليقيم أوده ويعطيه النفس المصطنع الذي لن يساعده على البقاء .

وكان من رأي لامنس أن سورية بعد أن حلت بها « كارثة » الاسلام كان عليها أن تتقبلها على « مرارتها » وأن تحاول التقليل من ثقل وطأتها وأن تحافظ على شخصيتها السابقة بالابقاء على لبنان كموطن مسيحي وكملجأ للمسيحية السورية التي نكبت بالتسلط الاسلامي ، وهذا ما يسميه لامنس L'Asile du Liban وكان حليف سورية في « محنتها » القاسية هذه اوربة اللاتينية التي فجرت الحروب الصليبية ، فكانت هذه الحروب ، في رأي لامنس ، متنفسا مؤقتا لسورية مما أصابها بعد أن وقعت فريسة حكم المسلمين . وينتهي به هذا المنطق المشوه الى القول بأن الانتداب الفرنسي على سورية هو الوسيلة الرئيسية لاعادة الوحدة والسيادة الى « الامة السورية » التي يصفها :

«Nation Melkite, nation Maronite .... Cette terminologie captieuse ne devrait pas survivre au souvenir de la domination turque.»

وواضح من كل ما تقدم أن ايمانه بأمة سورية أمر لم يبن على أي أساس من حقيقة علمية ، وانه لم يكن سوى وسيلة فيها كل الاصطناع والزيف والكذب لتبرير مواقفه المتعصبة من جهة ، ولايجاد ما ظنه وسيلة لتسويغ الانتداب الفرنسي على هذا القطر من جهة اخرى .

واذا تركنا قضية أيمانه « بالامة السورية » المزعومة جانبا ، وانتقلنا الى القضايا التاريخية التي يوليها اهتمامه ويصرف لها جهده ، لوجدنا أن لامنس المؤرخ قد شغله أمران أساسيان هما : شخصية محمد ، ونبوته ، اللذان كان يعتبرهما المشكلة الرئيسية في التاريخ العربي . وهناك قضايا لابد في رأيه من البدء بها : كيف وجد الاسلام ؟ وما هي الظروف التي جعلت محمد يعتقد بأنه نبي ؟ ومن أين جاء بالافكار والمعتقدات التي بشر بها ودعاها الاسلام ؟ واذا تفحصنا هذه القضايا والتساؤلات لوجدنا أنها كانت دوما القضايا والتساؤلات التي شغلت بال المستشرقين منذ أن ولد الاستشراق وغدا حركة لها أهدافها وطرائقها في العمل والتفكير ، لاسيما اذا تذكرنا الرابطة الوثيقة التي تربط الاستشراق بحركة الاستعمار عامة . ولامنس كما نعلم ، هو مستشرق وممثل للاستعمار الغربي في آن واحد ، وكان محمد بالنسبة اليه مشكلة تاريخية تعنيه كمؤرخ ، ومشكلة قومية تعنيه كمستعمر . ولن ينسينا كل ذلك القول بأن لامنس المؤرخ كان يتمتع بكفاءة نادرة ومهارة واسعة في معالجة الامور التاريخية ، ولكن الاثر الاستعماري في شخصيته أعماه في أغلب الاحيان فانقلب الى انسان لا يهمه افتراس الحقيقة العلمية والافتراء على المصادر ليصل الى ما كان في رأيه ، كمستعمر ، سبيلا لتحقيق أهدافه واثبات آرائه .

ويظهر هذا الذي ندعيه هنا اذا ما تفحصنا كتابات لامنس في موضوع السيرة وأسلوبه في نقد ماجاء في كتب سيرة الرسول الكريم . ويحاول الدكتور كمال صليبي(١٥) أن يوجد رابطة بين أسلوب لامنس في دراسة السيرة واسلوب المستشرق جولدزيهر Goldziher في دراسة الحديث الذي يشكك في صحة الكثير من الاحاديث في كتابه « دراسات محمدية » Muhammedanische Studien ويحاول البرهنة على وضعها مبررا ذلك بظروف حكم الخلافتين الاموية والعباسية، واهتمام العباسيين بوضع الاحاديث التي تؤيد احقيتهم في الحكم وقيام الفئات السياسية والدينية المختلفة بتزوير الاحاديث لتستمد السند لآرائها وأهدافها . وعندنا أن هذه الرابطة موجودة بين لامنس وجولدزيهر بسبب اتساق الهدف بين الاثنين ، وحرص كليهما على تهديم العمد الاساسية التي يقوم عليها التراث العربي الاسلامي الخالد ومن بينها الحديث النبوي . وكما اقتبس لامنس من

جولدزيهر اسلوبه في تجريح الحديث والتشكيك به ، اقتبس من سنوك هيرخرونيه أسفه لعدم توفر طبعة نقدية Edition Critique للقرآن الكريم تعينه في دراسة حياة الرسول ، ونراه يقول (١٦) :

« Dans L'état actuel de nos Connaissances, les innombrables allusions historiques du Qoran nous échappent en grande partie. Nous attendons toujours une édition critique, et la chronologie du texte demeure une question ouverte .»

ويؤكد لامنس في كتابه « القرآن والحديث » Qoran et Tradition أن كتب السيرة النبوية ، وكتب من سبقه من المستشرقين عن حياة الرسول تعتمد في الغالب على الحديث ، في حين انه يرى أن القرآن الكريم وحده هو المصدر الوحيد الذي يمكن أن يعتمد عليه لمعرفة حياة الرسول ونبوته ، وذلك لما دخل الحديث من وضع ودس وتحريف . ويبدو زعم لامنس هذا وكأنه دفاع عن الحقيقة العلمية التي يتوخاها باحث نزيه رائده الحقيقة العلمية الصافية ، ولكن اذا تجاوزنا هذه القشرة الزائفة ، وغصنا في أعماق كتابات لامنس في موضوع السيرة لوجدنا أن النتائج التي يتوصل اليها لا تتفق وهذا الحياد والعلمية التي يزعم . فقد كان لمكوناته الاستعمارية الاثر الحاسم في استعمال الاسلوب النقدي الزائف : فهو يصول ويجول في ميادين النقد ويسلط كل سهام التشكيك والتجريح حين يكون ما بين يديه من مادة في جانب الرسول الكريم وصدق رسالته ، وينسى كل ذلك ويجافيه كل التزام بالطريقة النقدية حين يكون في الخبر دسيسة أو فرية تحط من قدر الاسلام ورسوله العظيم . وينطبق هذا الموقف على ما في المصادر من أخبار تتعلق بعلي والعباس وسواهما من آل الرسول . فهو نقاد عنيف لكل مايرد حولما من أخبار ترفع من مكانتهما ، ولكنه يقبل أي شيء يرفع من مكانة بني أمية ، مهما كان الخبر مضعفا ومهما كان رواته مشكوكا في عدالتهم وضبطهم . وحجته في ذلك انه لا يستطيع قبول فكرة أن كتاب السيرة من المسلمين قد كتبوا عن الرسول شيئا يشينه ، ولذلك فكل ما كتبوه لا بد صحيح . وغير خاف ما في هذه الحجة من مجافاة للمنطق والواقع التاريخي الذي يثبت بما لا يقبل الشك ما دخل على أخبار السيرة من دس وتشويه بتأثير العناصر الشعوبية والفرق الدينية الهدامة التي دخلت الاسلام لتعمل فيه يد التخريب والتشويه . وحتى في الامور المتعارف عليها والتي أجمع رأي كل كتاب السيرة والتاريخ على صدقها ، نجد لامنس يحاول الغمز منها والنيل من أهميتها ، اذا كان فيها ما يرفع من مكانة الرسول بين قومه وحتى قبل اسلامه . ان صفة « الأمين » التي تعارف الناس على وصف محمد بن عبد الله بها قبل نزول الاسلام على قلبه هي من الامور التي تسوء لامنس وتجعله يعلق عليها بقوله (١٧) :

« A nous, hommes du vinghtième siècle, un **amîn** quoraisite paraitrait peut-etre un coquin, dans notre civilisation, deux milles ans de christianisme et de philosophie ont précisé, offiné jusqu'à l'extrême, le concept de la loyauté humaine.... La loyauté existe ou n'existe pas, mais elle ne peut se combiner avec une dose, meme infinitessimale, de duplicité, de vues intéressées, Jamais les Arabes ne haussèrent jusque-là.

وكان لامنس يصدر عن فكرة مسبقة في موضوع « السيرة » ، تتلخص في الشك بصدق رسالة محمد بن عبد الله ، فهو لهذا يشوه النصوص ويحملها ما لا تطيق ويقتنص منها نتفا يستغلها استغلالا لا ينطبق مع منطق علمي أو أمانة في النقل (على طريقة « لا تقربوا الصلاة » .. دون « وانتم سكارى ») . ويتجلى هذا الموقف في كتابه Mahomet, fut-il sincère الذي حشاه بالدس والافتراء على الرسول الكريم ، وحاول من خلاله أن يشكك في كل المرتكزات الاساسية والمعالم الرئيسية لحياته صلوات الله عليه . فقضية تحنثه وانقطاعه للتأمل في غار حراء قبل أن يتنزل الوحي على قلبه قضية كاذبة في رأي لامنس . والعجيب في الامر ان رفضه لهذه الواقعة التي لا يرقى اليها شك أو ريبة مبني على المناقشة التافهة التالية :

« Rien ne garantit l'authenticité de cette retraite. Elle Cadre mal avec l'horreur de Mahomet pour la solitude, avec sa repugnance notoire pour l'ascétisme. Nous la croyons plutôt calquée sur celles de Moise au Sinai, du Christ ou désert avant sa vie publique. Les montagnes sacrées abondaient aux alen-tours de la Mecque. En y plaçant la retraite du Maitre, la tradition a essayé de leur confére un caractère de sainteté islamique... Nous nous croyons donc autorisés à rayer le Mont Hira de l'histoire de la première vocation.» (١٨)

وفي اكتابه « فاطمة ، وبنات محمد » Fatima et les filles de Mahomet يقدم لنا لامنس مثلا آخر على هذه الطريقة في استعمال المادة الموجودة في المصادر ، وعلى الاحكام المسبقة التي يتبناها ويحاول أن يسخر النصوص للبرهنة عليها ، ولو اضطره ذلك الى تشويه النصوص الاصلية أو الافتراء عليها . ففي هذا الكتاب يحاول لامنس أن يظهر أن فاطمة الزهراء لم تكن ابنة الرسول المفضلة ، وأنه صلوات الله عليه ، لم يكن يرغب أن يخلفه في حكم امة الاسلام أحد من اعقابها . لذا نراه في كتابه هذا يخضع الاحاديث النبوية التي تتعلق بعلي وفاطمة والحسن

والحسين الى اشد انواع النقد والتجريح والتشكيك . ويخرج بعد هذه العملية التي تتسم بالمبالغة الشديدة بنتيجة واحدة هي أن فاطمة ، رضوان الله عليها كانت لا تتمتع بحب أبيها وانه كان لايهتم برفاهها أو تجنيبها المشاق . وأن زوجها عليا رضي الله عنه لم يكن على مستوى رفيع من الذكاء والفطنة ، وأن الرسول الكريم كان يشك بكفاءته ومقدرته . ومن العجيب أن لامنس الذي نراه يصوب سهاما جارحة من النقد والتجريح الى كل حديث أو خبر يرفع من مكانة علي وآله ، يقبل أكثر الاحاديث والاخبار ضعفا من حيث المتن والسند لمجرد أنها تطعن في فاطمة وزوجها وأولادها . وغير خاف أن هدف لامنس من كل ذلك اسقاط حق لآل البيت في الحكم ودعم شرعية الحكم الاموي وحق آل أمية في رئاسة المسلمين . ويتضح هذا الموقف بشكل أدق في كتابه « دراسات عن حكم الخليفة الاموي ، معاوية الاول » Etudes sur le règne du calife omaiyade, Mo'awia 1er الذي يضفي فيه كل الفضائل والامجاد على البيت الاموي بشكل عام ، ومعاوية بوجه خاص الذي هو بالنسبة اليه خير حاكم وأفضل رجل دولة عرفه العرب .

ورسالة محمد بن عبد الله بالنسبة للامنس هي محاولة اصلاحية ، ليس فيها اية بذرة من بذور النبوة ، وهذه المحاولة كانت جزءا من صيحات الاصلاح التي كانت تتردد في الاجواء المكية آنذاك استغلها محمد ليدعي نبوة ليس له فيها اي نصيب (١٩) :

« La mission, d'abors entrevue par Mahomet, se borne à une réforme mi-sociale, mi-religieuse des institutions mecquoises; ou, pour parler plus exactement, Mahomet ne separa jamais le sacré du profane: dogme, stipulations relatives aux hertages, aux testaments, tout sera par lui placé sur le meme pied .»

ولا يقبل لامنس مايدعيه نولدكه(٢٠) Noeldeke من أن الرسول كان مصابا بالصرع Epilepsie. وأن المظاهر الخارجية للوحي كانت نوبات صرع واضحة ، بل يعتقد أن محمدا كان يرى مايدعوه « وحيا » في نومه ، حتى انه كان يسميه بال Le grand dormeur: وأن وحيه نابع من داخله وليس تنزيلا من عند الله . ويتابع هذه النظرية التي يحاول فيها اظهار الرسول الكريم بمظهر المصلح الاجتماعي ورجل السياسة فيقول ان العنصر الروحي الذي تستتر به محمد بن عبد الله ابان الفترة المكية من حياته اخذ يزول بالتدريج مذ غدا الاسلام قوة سياسية بعد الهجرة الى المدينة ، حيث صار محمد رجل دولة وسياسة ، وانتهى الجانب الروحي من

حياته أو تضاءل الى حد كبير بعد النجاحات السياسية والعسكرية التي حققها في المدينة(٢١) .

واذا تركنا هذا الجانب المتعلق بسيرة الرسول الكريم من دراسات لامنس وانتقلنا الى الميدان الاخر من الدراسات الاسلامية التي أولاها عنايته ، ألا وهو خلافة بني أمية ، لوجدنا أن هناك ترابطا وثيقا بين اهتمام هذا المستشرق ببني أمية ومحاولته رفع شأنهم ، وبين عدائه للرسول الكريم والاسلام عامة . فالامويون عنده هم أحفاد ابي سفيان الذي حمل لواء المعارضة في وجه الاسلام ، وقادالجيوش لحربه ، وفي هذا مايكفي لامنس لتمجيدهم ولربط حكمهم الذي قام في الشام وعلى أرض سورية بما يكنه من حب مزعوم لسورية ، كما أشرنا آنفا . فخلافة معاوية عنده نصر معنوي « للامة السورية » على الاسلام كقوة قهرت سورية وأخرت تقدمها ومنعتها من أن تلعب الدور الحضاري الكبير الذي كان مقدرا لها أن تلعبه لو لم تصب « بكارثة » الفتح الاسلامي لها . وأهم الخدمات التي قدمها عمر بن الخطاب الى سورية هو أنه ولى معاوية بن أبي سفيان أميرا عليها بعد وفاة أخيه يزيد بن أبي سفيان ، وان معاوية الذي اعتمد القبائل السورية في حكمه كان يعيد صرح السيادة السورية السابقة ، لان هذه القبائل هي بقايا الغساسنة النصارى وحلفائهم . وزواج معاوية من ميسون التي ولدت له ولي عهده يزيد ، هو مظهر آخر من فضائل معاوية . فميسون سورية ربت ابنها وزودته بزاد ثقافي سوري جعل منه انسانا يمتلك صفات لا تتوفر الا فيمن اتيح له هذه الخؤولة والثقافة السورية التي توفرت لـــه .

وهذا الالحاح على الانتماء السوري ، يقوم عند لامنس على أساسين مهمين هما : وحدة الارض ، ووحدة الجنس . فسورية عنده أرض واضحة الحدود تحيط بها معالم طبيعية مميزة هي : البحر وجبال طوروس Taurus والصحراء العربية . أما السوريون فهم شعب يجمعه تجانس رائع وحيوية جديرة بكل تقدير . وقد أراد لامنس حين ألف كتابه عن « سورية » La Syrie لا أن يقدم لنا وصفا لتاريخ وجغرافية هذا البلد ، بل أن يظهر من خلال سرده لاحداث هذا التاريخ أن هناك جنسية سورية متميزة ليس لها ما يربطها بالعرب والعروبة . وفي هذا ، كما هو واضح ، اتساق تام مع هدفه الاصلي ، ألا وهو اعمال معول الهدم والتخريب في جسد الامة العربية ككيان موحد متماسك من جهة ، وفي الاسلام كدين ومادة حضارة وموضع فخار لهذه الامة من جهة اخرى . والاستشراق أساسا لم يخرج في اكثر الاحيان عن هذين الهدفين كما بينا خلال هذا الحديث .

وبعد فلست أريد أن أنهي هذا الحديث دون كلمة انصاف يقتضيها واجب الامانة العلمية ، وتحقيق مبدأ اعطاء كل صاحب حق حقه . قد يتراءى مما قدمته من ملاحظات عن الاستشراق وسيرة بعض من رجالاته أن الاستشراق كان حركة شريرة لم تقدم لتاريخنا ومقدساتنا أية خدمة أو نفع ، وهذا ما لست أريد قوله . فالاستشراق عندي ، حركة كان لها من الاهداف المعادية للعروبة والاسلام ما حاولت شرحه في الصفحات السابقة ، ولكنه يظل مساهمة لايمكن تجاهل أهميتها أوالتغاضي عما كان لها من مردود واضح الاثر في اغناء الدراسات العربية والاسلامية في مختلف حقولها وآفاقها .

واذا كان المستشرقون قد نظروا في مناسبات كثيرة الى الاسلام ونبيه بمنظار الشك والريبة ، ورفعوا في وجهيهما اصابع الاتهام والتحيز ، فانهم اعطوا هذه الدراسات اسلوبا ومنهجا كان ينقص الكثيرين من دارسينا . وكان لبعضهم فضل المساهمة الجادة في نشر تراثنا وتقديم الدراسات الجادة حول الكثير من قضايا تاريخنا ولغتنا وبعض جوانب حضارتنا . ان الكثيرين ممن يتصدون اليوم منا لدراسة التاريخ العربي الاسلامي ، قد درسوا على مستشرقين ، وتلقوا تدريبهم العلمي على ايديهم ، وان نظرات الشك والريبة التي تطل من بين هذه السطور لا تعني أني اجهل أهمية الدراسات الاستشراقية ، ولا تقتضي رفض كل ما جاء به المستشرقون من أبحاث ودراسات ، فبينها الكثير مما يستحق كل ثناء وتقدير . ولكني سأظل اردد فكرة اومن بها وهي أن التاريخ العربي الاسلامي يستحق منا نحن الذين نتشرف بالانتماء الى صانعيه عناية فيها علمية الاسلوب الذي انتهجه بعض المستشرقين ، واخلاص المؤمن بهذه الامة الذي لم يتوفر لغالبية المستشرقين .

واذا كان النقاش اليوم حادا بين ادوارد سعيد صاحب كتاب «الاستشراق» وبين معارضيه ، وعلى رأسهم المستشرق المعروف برنارد لويس ، فاني لم أرد لهذا البحث أن يدخل في متاهة هذا النقاش ، ولكني مؤمن أن زمن الاستشراق بالمعنى الذي شرحته في مقدمة البحث قد ولى ، وأن المؤتمر الاخير للمستشرقين الذي عقد في باريس صيف عام ١٩٧٩ ، وكان لي حظ المشاركة فيه ، قد دفن حركة الاستشراق الى الابد ، واستعاض عن مؤتمرات الاستشراق المعروفة بمؤتمرات أسماها رسميا باسم : « المؤتمر الدولي للعلوم الانسانية في آسية وشمال افريقية » ، وسيعقد المؤتمر الحادي والثلاثون منها صيف العام القادم في اليابان .

وبعد ، فان كل هذا يدعونا الى القول بأن الكثير من المكتوب من تاريخنا بحاجة الى عودة جادة نتخلص فيها من نهج السلفيين الذين نظروا الى احداث هذا

التاريخ نظرة تعتمد على سرد وقائعه سردا وصفيا تتالى فيه السنوات وتتشابك الحوادث وتبرز فيه أسماء العظماء من رجال الحكم والحرب دون تفحص لمايقبل وما لا يقبل ، ودون الالتفات للتيارات الكبرى التي سيرت هذا التاريخ وصنعت أحداثه على الشكل الذي ظهرت فيه ، ودون اعارة اية التفاتة لجماهير هذه الامة في مساهماتها السياسية وفي حياتها اليومية وفي اقتصادها وفكرها ومواقفها من أمور دينها ودنياها . ان أساليب النقد العلمي ومناهج البحث التاريخي التي تنقص الكثير مما نكتب لابد وأن تحتل مكان الصدارة في انتاجنا التاريخي الجديد ، وفي نظرتنا الى احداث تاريخ أمتنا . وهنا نجد في الاسلوب الذي تتبعه كثرة من المستشرقين المحدثين مثلا يحتذى لا غنى لنا عنه في نهضتنا المأمولة في ميدان الكتابة التاريخية . ولست أريد أن أنكر على جميع مؤرخينا المحدثين فضلهم في هذا الميدان ، فبينهم من قطع شوطا محمودا في هذا الطريق ، ولكني مازلت مؤمنا أنه ينقصنا الكثير ولابد أن تلجأ جامعاتنا التي يقوم طلابها بكتابة أبحاث لنيل شهادات جامعية عليا في مواضيع تاريخنا الى التشدد في استعمال هذا الاسلوب كي نخرج جيلا من المؤرخين يكونون عدتنا لتحقيق هذا الهدف .

* * *

الحواشي :

(١) يمكننا ان نذكر كمثال على المعلومات التي يوردها ثيوفانس عما كان يجري في دولة الاسلام في الفترة التي يؤرخ لها ، ما ينقله لنا عن موقعة صفين التي جرت بين علي ومعاوية كما هو معلوم . يقول ثيوفانس : ((ان من كان مع معاوية تغلبوا واستولوا على الماء ، ومن كان مع علي تركوا القتال وفروا بسبب العطش . على ان معاوية لم يكن يريد أن يقاتل ، لكنه احرز النصر بدون مشقة .)). وهذا ، كما هو معلوم ، يخالف المعلومات المتعارف عليها والتي تقرر أن الذي كان يسيطر على شريعة الماء أول الامر هو معاوية ، ولكن عليا وجيشه قاتلوا اهل الشام واستولوا على الماء وسمحوا لاهل الشام بأن يستقوا . غير خاف ان مصدر معلومات تيفانس هذه هو أهل الشام ، كما انه ألف موسوعته قبل الطبري بقرن من الزمن (توفي الطبري سنة ٣١٠هـ / ٩٢٢م) ، وبعد مالايزيد بأكثر من ستين سنة على قيام دولة بني العباس ، فهو اذن اقرب الى زمن الحادث من الطبري . من اجل التوسع في هذا الموضوع ، انظر كتابنا ، خلافة بني أمية ، ط . دمشق ١٩٧٢ ص ٣٩ وما بعدها .

(٢) السيد الباز العريني ، مؤرخو الحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ١٣٢ .

(٣) من أجل أزمة الايقونات ، انظر كتابنا ، الامبراطورية البيزنطية ، ط . دمشق ١٩٧٠ ، ص ١٤٧ وما بعدها .

(٤) انظر نص هذا المنشور في ترجمة شكيب ارسلان لكتاب رينو عن غزوات العرب في غاليا وايطاليا ، ص ٢٣٠ ، وقد وجد نص هذا المنشور في دير لوريان وطبع في لشبونة عام ١٦٠٩ .

(٥) كامل عياد ، صفحات من تاريخ الاستشراق ، مجلة المجمع العلمي العربي ، المجلد الاربعون ، الجزء الاول ، يناير ١٩٦٥ ، ص ١٦٥ .

(٦) كامل عياد ، ص ١٦٧ .

(٧) من أجل أسماء المستشرقين الاوائل ، انظر ، نجيب العقيقي ، المستشرقون ، ثلاثة أجزاء ، طبع القاهرة ١٩٦٤ ، ج١ ، ص ١٢٠ وما بعدها .

(٨) كامل عياد ، المصدر المذكور ، ص ٥٨٣ .

(٩) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(١٠) انظر ، كامل عياد ، صفحات من تاريخ الاستشراق ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، ج٣ ، المجلد ٤٣ ، ص ٥٧٦ .

(١١) المصدر السابق ، ص ٥٧٨ ـ ٥٧٩ .

(١٢) كامل عياد ، صفحات من تاريخ الاستشراق ، مجلة مجمع اللغة العربية ، ج٣ ، المجلد ٤٣ ، ص ٥٧٩ ـ ٥٨٠ .

(١٣) انظر مقال الدكتور زكي محمد حسن في ، مجلة المقتطف ، ديسمبر ١٩٣٧ ص ٥٥٥ – ٥٦١ .

(١٤) La Syrie, I, P. 5.

(١٥) بحث مقدم من الدكتور صليبي الى حلقة دراسية عقدت في جامعة لندن حول موضوع : ((الكتابات التاريخية عن الشرق الادنى والاسط .)) .

(١٦) Qoran et Tradition ..., P. 7.

(١٧) Mahmet, fut-il sincère, P. 4.

(١٨) Mahomet, fut-il sincère, P. 1.

(١٩) Mahomet, fut-il sincère?, P. 44

(٢٠) Noeldeke, Sketches from Eastern History, ed. London, 1892, P. 25

(٢١) Mahomet, fut-il sincère ?, P. 24

★ ★ ★